أدب وتاريخ


أدب وتاريخ

تصـانيف المـؤلف الأخيرة

١ — La Genèse de l'Esprit National Egyptien par M. Sabry.

كتاب بالفرنسية يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير ، ثمنـه ٤٠ قرشا .

٢ — تاريخ مصر الحديث، من محمد على الى اليوم :

يستند الى مذكرات الشيخ محمد عبده وأهم الوثائق الرسمية وغير الرسمية .
نفـدت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب وستصدر طبعة جديدة خاصة للجمهور تشتمل على إضافات كثيرة وفصل جديد فى ثورة سنة ١٩١٩

٣ — أدب وتاريخ :

الثمن ١٥ قـرشا .

تحت الطبـع

٤ — القرن الثامن عشر، والثورة الفرنسية، ونابليون :

كتاب يستند الى أحدث أساليب البحث العلمى فى تاريخ ذلك العصر الكبير الذى قامت على مبادئه العمرانية والسياسية مدنية أوروبا الحديثة .
يقع فى نحو ٣٥٠ صحيفـة (خلاف الصور الكثيرة) ، الثمن ٣٠ قرشا .

*
* *

جميع هذه الكتب مطبوعة على ورق جيد بمطبعة دار الكتب المصرية وتطلب من المكاتب الشهيرة .



تأليف

محمد صبرى

الحائز لدكتوراه الدولة فى الآداب مع الشرف من السوربون

أستاذ التاريخ الحديث بدار العلوم

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧

الكتاب الأوّل

محمود سامى البارودى

صفحة

الكتاب الثانى

اسماعيل باشا صبرى

الكتاب الثالث

تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا

الكتاب الرابع

الفصول

تصدير

هذه كتب وفصول ظهرت فى أزمنة مختلفة فضممت شتاتها فى سفر واحد أقدمه اليوم للقراء، تنطوى كلها على غرض واحد، وهى صورة من نفس كاتبها، مصرية فى سمتها ونزعتها .

ولا ريب أننا لم نبلغ بعد فى عالم الفكر ما بلغناه فى عالم الخيال، وأن آدابنا القومية لا تزال فى نشأتها الأولى ، وما آداب الأمم إلا سنادها .

كان أدباء الألمان ، ومؤرخوهم ، وفلاسفتهم فى بروسيا فى القرن الثامن عشر يشيدون بذكر العظمة القومية ، ويتعهدون الشعور الوطنى فى كتاباتهم، فلما حاول نابليون اخضاعهم فى أوائل القرن التاسع عشر انقلبت الفكرة الكامنة فى النفوس، الفكرة الحية المنتجة وليدة آدابهم القومية ، الى قوة خارجية منظمة انتفضت فجاءة فأخرجت الأجنبي من الديار، وأحاطت استقلال بروسيا وعظمة ألمانيا بسياج متين .

ان الآداب القومية الصحيحة، من تاريخ وبيان وفلسفة، يجب أن تكون رسول الفكرة الوطنية الى النفوس، بشرط أن

لا تتبـذل فى السياسـة ، وأن تصون نفسها عن الامتهان وخدمة الأغراض ، وأن تروى فيها شهوات العلى ، وأن يتنفس المظلوم فى أفيائهـا ، وأن تكون له مصـدر قوة والهام ، تردّه الى العزم اذا أصابه ضعف أو خور ، وتعصمه باليقين اذا جنح الى اليأس والاستسلام ، وتتعهده اذا عز المعين ، وتحدوه فى الطريق المأمون الى غاية المراد البعيد .

وأكبر أمل لصاحب هذا الكتاب أن ينتفع به المتأدبون وأن يكون حجرا صغيرا فى بناء أدبنا القومى .

الكتاب الأول

محمود سامي البارودي

مقدمة

رسالة من أمير الشعراء
الى المؤلف

سيدى الأستاذ صبرى

أحبب بك مهديا، وأكرم بكتابك هدية، ولا برحت توالينا بالطرف من أدبك، وتوافينا بالتحف من كتبك، وجعل الله هذه الآثار وأمثالها من نتائج القرائح فى مصر نماء وبركة، فى رأس مال الأمة، من حضارة مستقبلة، ودولة مؤملة، ومكان بين الممالك ومنزلة، فما رأس أموال الأمم إلا وسائل الأدب السليم، وذرائع العلم الصحيح، وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان، وكل علم صحيح فهو علم كل أوان. سألتنى عن رأيى فى رسالتك الجليلة فان كان له من القيمة ما زعمت فهو رأى الغواص فى الجمانة، والبستانى فى الريحانة، والتجر فى معتقة الحانة، ترجمة كلها حسن وأحسن ما فيها المترجم، وتحلية كلها روعة وأروع ما فيها المحلى. منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكة من جاه

يطويه، ونعيم يذويه، وولد يرديه، ونور يطفيه، وحسب وضاح يخفيه، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه. جاورته بحلوان الشهور الطوال يشد بيتينا طنب، وينتظم دارينا جدار، فإذا الجار كريم، وإذا الشاعر عظيم، ماسمعته مرة عرض شعره على جلسائه، ولا رأيته إلا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه. وهكذا كان رحمه الله اذا جرى ذكر الحوادث العرابية فى مجلسه توارى بالاطراق حتى يمسك المتكلم. سأله مرة صبرى باشا : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا، قال : وما منعك؟ قال علمى بأن الغضب فى طباعى وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات فيبغى القلم على الرجال. فقال حامد بك خلوصى وكان ممن ضم المجلس، صدقت، ألست القائل (ونغضب فى شروى نقير فنشتد) فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يغضبنى مثل حديث الثورة فلنخض فى غيره.وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ انه كان له غنى عن الاشارة الى مواقف المرحوم البارودى فى الحوادث العرابية فان فى ذلك من مسابقة التاريخ ما فيه، ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يضل الأعقاب، ويحرّف مواضع التبعات من الرقاب.

٢ يوليه سنة ١٩٢٣

المخلص

شـــوقى

الفصل الأول

تمهيـــــــد

البارودى يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة فى الشعر، فهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصرى، وهو محيي دولة الشــعر بعد العدم، فوجب أن يعنى به المصريون لأنه زعيم النهضة الشعرية الأدبية التى هى مظهر سام من مظاهر النهضة العامة التى نهضتها البلاد فى القرن التاسع عشر.

ولكننا قبل أن نقلب الطــرف فى شعر البارودى ونترجم عن الأثر الذى يتركه فى النفس ســنقول كلمة إجمــالية نحدّد بهــا المراد بالشعر العصـــرى.

لو تفهمنا بالدقة على حدة معنى كلتا الكلمتين «الشعر العصرى» لتجنبنا سبلا كثيرة ضل فيها اللب والفهم وأخطأ فى سلوكها شعراء كثيرون. الشعر شعور «يشعر» به الفرد فى «عصره» والآن نفصل.

الشعر الذى يصدر عن شعور صادق هو الشعر حقيقة، هو الشعر المطبوع المنسجم الذى تنعكس فى مرآته صورة من حياة الرجل يتجلى فيها طابع خاص، وكلما كبرت شخصية الشاعر ازدادت اتصالا بعصره، وقد يمتزج الاثنان امتزاج الروح بالجسد، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر وعصره معا .

فلأجل أن يكون الشاعر شاعرا عصريا يجب أن يكون شعره شعرا وأن يكون عصريا، وانى أضرب مثلا .

يذكر القراء أن شاعرنا حافظ ابراهيم وصف القاطرة فى قصيدة له ميمية فى « رعاية الأطفال » فلم يوفق فى هذه القصيدة كما وفق فى كثير من شعره خصوصا فى قصيدته اللامية التى قالها فى نفس الموضوع، تلك القصيدة التى تجلت فيها شاعرية حافظ والتى يقول فيها .

وكأن ناحل جسمها فى ثوبها   خلف الخروق يطل من غربال

ووصف الشاعر الفرنسى " الفرد دى فينى " القاطرة فى أوّل عهدها فى قصيدة « بيت الراعى » فلم يوفق والسبب واحد، ذلك أن الأوّل كان شاعر بؤس ورقة وألم خلق فى فضاء لم يألفه وقبل أن يألفه الشعر فسقط ، وكان الثانى شاعرا فيلسوفا تذوب نفسه أسى على المجتمع البشرى الذى أطال التأمل فيه فهبط بغتة من سماوة الفكر العالى وأخذ يتخوّض فى ماء وحل .

ذلك بأن الشعر العصرى ليس معناه وصف المخترعات العصرية من قاطرات وطيارات وما شاكلها — وان كان ذلك لا يمنعه من التعرّض لها — فهذا فى الحقيقة تطفل من الشعر على العلم وطرق أبواب ما أغناه عن الوقوف بها طويلا :

قال البارودى :

طبعته فى لوح الفؤاد مخيلتى بزجاجة العينين فهو مصور
وسرت بجسمى كهرباءة حسنه فمن العروق به سلوك تخبر
لولا التنفس لاعتلت بى زفرة فيخالنى طيارة من يبصر

أنظر الى هذه الأبيات الثلاثة التى اضطررنا الى ذكرها الآن لأنها جامعة، تجد البارودى أشار فى البيت الأول الى آلة التصوير أو « الفتوغرافيا »، وفى الثانى الى الكهرباء والسلوك، وفى الثالث الى الطيارة .

خلط الشاعر بين الشعر والعلم ، بين الخيال السامى والماديات ، بين ماء السماء الصافى وماء المستنقع الآجن ، فظهر شعره فى تلك الصورة التى يأباها الذوق السليم .

هذه الأبيات ليست من الشعر العصرى فى شىء لأنها ليست من الشعر، وانى أمقت ذكر المخترعات على هذه الصورة كما أمقت

الصنعة والتكلف والبديع والجناس وكل مايحول الشعور عن مجراه الطبيعى فلا يلبث أن يتشتت ويجف .

وليس من الشعر العصرى فى شىء أن يولع بعض شعرائنا المعاصرين ببكاء الأطلال والدمن كما كان يفعل العرب لأنه لا أثر للاطلال والدمن فى العصر الحاضر ولا يمكن أن ينم بكاؤها عن شعور صادق .

على أن فى ذلك مظهرا من مظاهر التقليد ، والتقليد ممقوت لأن معناه فقدان شخصية الفرد وشخصية العصر، وهو دليل ضعف ، والحياة قوة .

والنفس تمل التقليد لأنه عدو الجديد ولكل جديد لذة ، وكلما تعدّدت المذاهب واختلفت باختلاف العصور كان ذلك دليل نهضة وحياة ، والحياة حركة .

ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليقارن بين مذهب العرب ومذهب المولّدين ومذهب الأندلسيين ، أو فليقارن بين مذهب الشعراء الفرنسيين فى القرن السابع عشر (Ecole Classique) ومذاهبهم العديدة فى القرن التاسع عشر، ثم ليقارن بعد ذلك بين مذهب الشعراء الفرنسيين أو الانجليز فى الوقت الحالى وبين مذهب شعرائنا اليوم اذا كان لنا مذهب جديد معين .

لا أريد بذلك الحط من مكانة الشـعر العصرى فلست أنكر مثلا عبقرية شـوقى التى تتجلى كالصبح ، ولكن من منا لا يأسى كلما رأى شاعرنا قد وقف جزءا كبيرا من شعره على المديح وسلك فى ذلك مذهب القدماء .

على أن من حسنات شوقى أنه هجر البكاء على الطلول والمغانى وبكى على آثار مصر وشاد بذكراها فى قصائد عديدة من عيون قصائده فأصبح "شاعر الآثار" وكان بذلك مصرى النزعة عصريا ، وكان يعبر عن شعور صادق ووطنية عالية ، وكان فى الوقت نفســه خير ترجمان للنهضــة المصرية الحـديثة التى تعمل على إحياء مجد السلف .

ولكننى لا أقصـد التكلم عن « عصرية » شـوقى أو مطران أو صبرى أو غيرهم وانمـا أردت أن أضرب مثلا ، وأضيف الى ما تقدّم أن الشاعر العصرى حقيقة هو الذى يضطر الناقـد الى ترتيب قصائده عند الحكم عليها ، لا بحسب الأبواب من مديح وفخر وهجاء كما يفعلون ، بل بحسب تاريخها فهـذا هو المقياس الصحيح الذى يدلنا على مبلغ ارتباط الشعر بحياة الرجل وعصره .

وتلك هي الطريقة التي سنجرى عليها فى درس البارودى والبحث عن آثار القديم التي تختلط أحيانا بشعره اختلاط الرغام بالذهب فى معدنه، وسنبين كيف تمكن البارودى من نظم بعض قصائد من الشعر النقى الحر كسبائك الذهب المصفى .

ولا ريب أن هذا الشاعر سيكون لنا مثلا كبيرا نثبت به تلك الحقيقة التى جهلها الأكثرون وهى أحسن الشعر أصدقه .

الفصل الثانى

عصـــــر الصـــــبا

صدر من ديوان البـارودى جزآن يحتويان على معظم شعره، وهما مصدران بمقدّمة فى حياة الرجل لاتنقع غلة لاسيما اذا تذكرنا أن حياة هـذا الشاعر كانت كبـيرة مملوءة بالحوادث والعـبر التى نظمتها يد المقـدار صحيفة فى تاريخ مصر، وأن حيـاته وشـعره يؤلف بينهما نسب صادق فمن أراد حقـا أن يمتع بذلك الشـعر العذب فليرجع الى الأصل وهو الحياة وليقتطف تلك العناقيد من كرومها وحسبنا أن نصوّرها من عال فى لوحة مصغرة .

وسنتكلم فى هذا الفصـل عن صـباه حتى يقارب الأربعين فى آخر حكم اسماعيـل ، ثم نتكلم عنـه فى أطوار حياته الأخرى ، ابان الثورة العرابية، فى منفاه وفى مصر .

نشأ البارودى فى بيت مجد مؤثل ، هو ابن حسن بك حسنى الذى كان من أمراء المدفعية ثم صار مديرا لدنقله وبربر على عهد

المرحوم محمد على باشا ، ابن عبد الله بك الجركسى ينتهى نسبه الى المقام السيفى نوروز الأتابكي أخى برسباى قرا المحمدى .

والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر واتخذوها وطنا وتوالدوا فيها فأصبحوا « مولَّدين » ، روى صاحب الهلال أن البارودى كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه فى سبيل البحث عنه فى أنحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك .

ولد صاحب الترجمة بسراى باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجرية ، وفى سنة ١٢٦٢ توفى والده بناحية دنقله وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وفى ذلك يقول لما ناهز العشرين :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى
طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
مات الذى ترهب الأقران صولته
ويتقى بأسه الضرغامة العادى
مضى وخلفنى فى سنّ سابعة
لا يرهب الخصم إبراقى وإرعادى
فان أكن عشت فرداً بين آصرتى
فها أنا اليوم فرد بين أندادى

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسج نظمه فى سن صغيرة ، فما سر هذه القوة التى تجلت قبل الأوان فى عصر مقفر من الشعر الجيد؟ أهو فى تربيته القومية أم فى طبعه واستعداده ؟

شرع محمود سامى فى سنّ الثامنة يتلقى مبادئ العلم على أساتذة كانت تحضر فى منزله ، ودخل فى سنة ١٢٦٧ ، أى فى سن الثانية عشرة ، مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ فى أوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة و يقال أنه كان يتعاطى صناعة الشعر فى أثناء دراسته .

أما تربيته الأدبية فاليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفى فى "الوسيلة الأدبية" وكان من أعرف الناس به : «محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سنّ التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصوّر فى برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ... ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء» .

لم يكن عصره يساعد على تكوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء الشعر اذ ذاك محمود صـفوت الساعاتى الذى أعقب الدرويش ، حدثنى المرحوم حفنى بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت فى عهد محمد على هى القصيدة التى مطلعها :

يا آل طه عليـكم حالـتى حسبت
إن الضعيف على الأجواد محمول

والتى ما زال الى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها ، وكان الليثى والنجارى والابيارى والنـديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من معاصرى الساعاتى مولعين بالبـديع محتذين مثـل البهاء زهير وابن خفاجة وغيرهما من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان .

أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودى :

أنا فى الشعر عريق لم أرثه عن كلاله
كان ابراهيم خالى فيـه مشهور المقاله
وسمـا جـدى علىّ يطلب النجم فناله

لا أظن أن خال البارودى كان شاعرا يمتاز عن أهل عصره ولكن لعـل البارودى وجد فيـه مشجعا على قول الشـعر كما وجد فى المعالى التى يفتخر بها ، وفى معاهد العز والشباب التى درج فيها .

ولكن كل هذا لا يكفى لأن يبرز شاعر غض الاهاب على معاصريه ثم يجرى حبله على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدّمين قبل أن يطوى برد الشباب .

اذن كان سر قوة هذا الشاعر فى طبعه ، وكانت فى قرارة نفسه عين كامنة ما لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم تنضب ، روى الأستاذ خليل مطران فى فصل رائع : «لقد تسامحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل الى الشعر وأكثر اشتغالا به فاجابنى ان خطرات الشعر صحبتنى فى أيامى كلها ولم تفارقنى إلا فى أقلها» .

على أن من يقرأ شعر البارودى يرى ماء الطبع يترقرق فيه ؛ قال هو عن نفسه فى كلمة افتتح بها فى ديوانه : «ولقد كنت فى ريعان الفتوّة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج به لهج الحمام بهديله ، وآنس به انس العديل بعديله ، لا تذرعا الى وجه أنتويه ، ولا تطلعا الى غنم أحتويه ، وانما هى أغراض حركتنى واباء جمح بى وغرام سال على قلبى فلم أتمالك ان أهبت فحركت به جرسى ، أو هتفت فسرّيت به عن نفسى» ثم روى بيتين قالهما فى هذا المعنى :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت
به عادة الانسان أن يتكلما

فـــلا يعتمدنى بالاساءة غافـــل
فلا بد لابن الأيك أن يترنما

أجل ، غنى البارودى بالشـعر كما يغـنى الطائر من غير صنعة ولا تكلف ، وحركت الأغراض فؤاده فى بحر الحياة فأطربنا بأغانيـه ، حتى جاء آخر العمر وأظلمت الدنيا فى عينيه بعـد فقد الشباب وفقد الديار .

ولقد خص شاعرنا بالذكر غرضين من الأغراض التى حركته فى شبابه فقال «إباء جمح بى وغرام سال على قلبى» ، أما غرامه فلا ندرى من أمره شيئا ، على أن شعره فى الغرام قليل ولا أعرف له إلا قصيدة فذة واحدة فى هـذا الموضوع ، من خير ما غنى به شاعر على غصن الغزل المياد :

هل من فتى ينشد قلبى معى ... بين خدور العين بالاجرع
كان معى ثم دعاه الهوى ... فمـــر بالحى ولم يرجـــع
فهـل اذا ناديته باسمـه ... يفيق من سكرته أو يعى

والقصـــيدة كلها من أرق الشعر وهى تصافح فى سماء الأدب العصرى قصيدة صـــبرى باشا التى مطلعها :

يالواء الحسن أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنـة فى ظل اللواء

ويغلب على ظنى أن البارودى قال قصيدته هذه فى آخر حياته لأن عليها مسحة الشعر الذى أنضجه الألم ، ولعله هتف بها فى منفاه، وفى البيتين الأخيرين منها بعض الدلالة :

فهل الى الأشواق من غاية أم هل الى الأوطان من مرجع

لا تأس ياقلب على ما مضى لا بد للمحنة من مقطع

ومهما كان من الأمر فانني أعتقد أن البارودى كانت فى نفسه مغالبة بين عاطفتى الحب والاباء فتغلب الاباء وجمح به . ولقد كان الاباء عاملا كبيرا فى حياته، وفى شعره ، دفعه فى الحياة الى سلوك الطريق الوعر المملوء شوكا ليصل الى العز من خلاله ويبلغ به أبعد غاية ، ثم الى التجلد والصبر عند الشدائد ، ودفعه فى شعره الى الفخر وترك المديح الذى «يتطلع الى غنم» وهو رجل ذو مطامع طموح الى العلياء، وكأنما نطق الكاظمى بلسانه حين قال :

ما سلونا آرام نجد ولكن شغلتنا العلا عن الآرام

اذا دققنا النظر فى مصادر هذا الاباء وجدناها ثلاثة : أولها أصل البارودى وحسبه، ثانيها النعرة العربية التى ورثها الشاعر عن العرب الذين درس شعرهم وأصبح يجاريهم، ثالثها كبرياء حامل السيف، لا سيما أن البارودى كان جنديا كبيرا صعد فى درج الترقى

فى أيام سعيد واسماعيل وخاض الوقائع ، وكانت له مواقف فى حرب كريد وحرب الروس مع الدولة وصفها وصف مصوّر .

أما وقد ذكرنا العز الذى خالط إباءه والذى يفوح شعره برياه فلا يغيب عنا أن البارودى لا تكاد تخلو له قصيدة من ذكر "روضة المقياس" أو "روضة النيل" والجزيرة، والشجر ، وغناء الأطيار ، وقد وصف حديقة جزيرة كريد وحديقة جزيرة سيلان ، وإننا لا يخالجنا شك فى أن البـارودى كان فى أيام صباه يؤم كثيرا روضة المقياس والجزيرة ، فانطبعت صورتهما فى فؤاده الحساس ، وصار كلما أوحى اليـه فؤاده قول الشعر ظهرت هـذه الصورة فى ألوان شـتى .

وبالجملة فان طبيعة البارودى فى شبابه حركته لقول الشعر والتمييز بين أساليب القدماء الذين كان يحفظ من شعرهم كل ما كان جزلا رصينا ، ثم وجدت تلك الطبيعة فى الحياة ما يساعد على تغذيتها فى أطوارها المختلفة فخرج شـعره فى صباه متينا رقيق الحواشى .

وقد ثبت لنـا أن القصائد التى جارى بها القدماء أمثال أبى نواس والشريف الرضى والنابغة الذبيانى وأبى فراس والطغرائى ، والتى هى من أجود شعره ، هى من شعر الشباب ولكنا لم نهتد الى هذه النقطة من الديوان المطبوع الذى جنى عليـه شارحه . بل

من الوسيله الأدبية ، فان الشيخ حسين المرصفى اختار هذه القصائد وذكرها فى كتابه ، وهو وان لم يكن ذكر تاريخها الا أننا عرفنا أن تاريخ ظهور الطبعة الأولى من كتابه كان سنة ١٢٩٦ (لا ١٢٩٢ كما ذكر خطأ فى أول الكتاب) فتكون جملة القصائد التى نشرت فيه ظهرت قبل أن يبلغ البارودى أربعين عاما . وسنذكر شيئا من هذه القصائد التى تتهادى كالعرائس فى أبهى حلى"، ولكننا نقرر من الآن أن البارودى كان فيها مجاريا لا مقلدا فساقها حضرية بدوية التركيب ، ومهما حشد فيها من ألفاظ وتشبيهات قديمة فان آثار التقليد سطحية ، وليت شعرى متى كان الصانع المقلد يصل بالشعر الى المرتبة العليا التى وصل اليها البارودى

أنظر اليه مثلا كيف وصف حرب جزيرة كريد حين خرجوا من طاعة الدولة سنة ١٢٨٢ (١٨٦٥ م) فى قصيدة "أخذ الكرى بمعاقد الأجفان" التى يقول فيها :

وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا
يتكلمون بألسن النيران

صوّر البارودى فى هذه القصيدة موقفا له فى تلك الحرب تصويرا دقيقا كأنه من ريشة مصور ، ومما يزيدنا عجبا أنه نظمها فى ميعة الصبا اذ كانت سنه وقتئذ ٢٧ عاما .

وقال فى موقف آخــر :

ولما تداعى القــوم واشتبك القنا
وداًرت كما تهوى على قطبهـا الحرب

وزين للنـاس الفرار من الردى
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب

ودارت بنـا الأرض الفضاء كأننـا
سـقينا بكأس لا يفيق لهـا شرب

صـبرت لهـا حتى تجلت سماؤها
وانى صبور ان ألم بى الخطب

ولما أعلنت روسيا الدولة العليا بالحرب سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) ذهب مع الجيش الذى أرسلته الحكومة المصرية لمساعدتها ومما قاله فى هذه الحرب :

أدور بعيــنى لا أرى غير أمـة
من الروس بالبلقــان يخطئها العـد

جـواث على هـام الجبـال لغـارة
يطير بهـا ضوء الصـباح اذا يبدوا

اذا نحن سرنا صرّح الشر باسمـه
وصاح القنا بالموت وآستقتل الجند

ترى من ذلك أن البارودى وصف الحرب عن خبرة وصفا يتأثر منه القارئ كأن احساسهما مشترك .

ومما قاله فى بعض القصائد الأخرى التى أشرنا اليها، وذاع على كل لسان، وصفه للخمر فى القصيدة التى يجارى بها أبا نواس :

فطاف بها شمسية لهبية ... لها عند ألباب الرجال ثؤور
اذا ما شربناها أقمنا مكاننا ... وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

ومنها فى وصف الحمائم :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ... ولا دائرات الدهر كيف تدور
خوارج من أيك دواخل غيره ... زهاهن ظل سابغ وغدير
اذا غازلتها الشمس رفت كأنما ... على صفحتيها سندس وحرير

أرأيت وصفا أدق من هذة الأبيات يشف عن قوة الملاحظة وحسن التخيل ؟

ومنها فى الفخر :

وأصبحت محسود الجلال كأننى
على كل نفس فى الزمان أمير
اذا صلت كف الدهر من غلوائه
وان قلت غصت بالقلوب صدور

ومن قوله أيضا فى الفخر فى القصيدة التى يجارى بها الشريف الرضى :

ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذى يلقاه فيها محبب
اذا أنا لم أعط المكارم حقها
فلا عزنى خال ولا ضمنى أب

ومن قوله فى قصيدته التى يجارى بها أبا فراس :

وانى امرؤ لولا العوائق أذعنت
لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم
لها فى حواشى كل داجية فجر
اذا آستل منهم سيد غرب سيفه
تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

كل هذا الشعر قاله البارودى فى صباه، وكل هذا الشعر يترنم به أهل العصر فهو إذن من الشعر العصرى الحرّ، وهو كما ترى مشرق الديباجة عليه نضرة ونعيم يدل على اقبال الدنيا، ولكن لا يفتك أن الأيام دول وأن أواخر أيام اسماعيل التى كانت فى الوقت نفسه

أواخر أيام شباب شاعرنا الذى رضع من ثدى عزه وسلطانه قد تكدرت بعد صفو وأصابها ازعاج بعد أمن .

جاء فى الديوان ما نصه :

« قال يذم سيرة الحكام ويحرض الناس على طلب العدل فى الأحكام وذلك فى عهد اسماعيل باشا خديوى مصر » ، جاء فى هذه القصيدة :

قامت به من رجال السوء طائفة
أدهى على النفس من بؤس على شكل

من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضا ويلفظه الديوان من ملل

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل فى خلل

ومنها :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منتزع سهما ومختتل

حتى تعود سماء الأمن ضاحية
ويرفل العدل فى ضاف من الحلل

هذه القصيدة فيما أعتقد مبدأ الشعر السياسى فى العصر الحديث وهى صيحة فى وجه الظلم الصارخ، واستنهاض للهمم، وحث على العمل، وتذكير بمجد دارس، وهى وداع للشباب وبلهنية العيش، وإيذان بالدخول فى حياة قلق واضطراب، وجد بعد لهو .

على أن فيها معنى آخر، وهو أن الشاعر قد وفق بين الشعر والعمل، بين الحلم والحقيقة فكان طائر النهضة الذى غرد فى السحر، وكان ساعد النهضة العامل وان لم توفقه المقادير .

وسنرى كيف بدأت تتغير روح البارودى فى شعره مع تغير الحوادث التى كان شعره مرآة لها .

الفصل الثالث

صـــناعته الشـــعرية

أبنا فى مقال سابق كيف تأتى للبارودى أن يصوغ فى صباه قصائد بذ بهـا المتقدّمين وكانت حلية فى جيد العصر ولكن هناك نقطة لا نرى بدا من الاشارة اليها، وهى أن شارح ديوان البارودى لم يجن على شعره بشرحه الطويل الغث فحسب ، بل تعدّى ذلك الى عدم العناية بنشر الشعر فى صورته الأصلية فمسخ بعض القصائد الرائعة التى جارى بها البارودى فحوّل المتقدّمين ، وكان من السهل على الشارح أن يتنبه الى هـذا الخطأ الذى وقع فيه عفوا لو أنه تفهم شعر البـارودى واهتمامه بحسن السـبك أو أنه أمعن النظر فى القصائد التى نشرها له صاحب الوسيلة .

ومن العجيب حقا أن ينشر المرصفى للبارودى وهو حىّ فى ريعـان الشباب نصا لقصائده أصح بكثير من النص الذى نشر بعد وفاته ، على أننا من جهة أخرى قد أسعدنا الحظ بالوقوع على نصين مختلفين لقصائد أو أبيات معدودة لا نشك أن الثانى منهما

الذى ظهر فى ديوانه هو فى الحقيقـة النص الأوّل الذى أصلحه البـارودى وصقله بعـد إعمـال الروية فيـه ونقده نقـد الصير فى الحـاذق .

من المقارنة بين هـذين النصين يتبين لنـا بعض جمـال هذه الصنعة الشعرية وسرها ، ولقـد صدق الأسـتاذ مصطفى صادق الرافعى فى قوله فى المقتطف سـنة ١٩٠٥ « لم يكن شاعرنا كامل التصرف فى فنون المعانى وإن كان أشعر من جميع معاصريه بلا مراء غير أنه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء ، أما نمط البارودى فى النظم فهو غاية ما دارت له الألسـنة ، عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلعب بالنفس ، وسلاسـة يستريح فى ظلها القلب . وكان يقدم أبا تمـام على المتنبى لأن شعر أبى تمـام أجزل وصنعته أوضح وأتم » .

جاء فى القصيدة التى يجارى بها أبا فـراس :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهـم ملول من الأيام شيمته الغدر

وقد روى صاحب الوسيلة البيت على الصورة الآتية :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهـم أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فانظر الى الفرق بين الصياغتين وتأمل كيف كان البيت فى أوّل الأمر كالطائر الذى كسر أحد جناحيه فتعسر عليـه النهوض حتى

جاء الشاعر وبدل الشطر الثانى بشطر آخر يتلاءم مع الأوّل معنى ومبنى، فان قوله "ملول من الأيام" بعد "ثم بدد شملهم" من أضعف التراكيب وأخسها بخلاف "أخو فتكات بالكرام" فان هذا التركيب جمع بين الجزالة والرقة اللتين بلغتا منتهاهما فى آخر البيت حين فسر شاعرنا الكناية بقوله : "اسمه الدهر" .

أضف الى ذلك إن حزن الشاعر يتجلى فى الشطر الأخير على أولئك " النفر الغر " الذين بدد الزمان شملهم، وهذا أتم للمعنى وأوفى وأكثر اتصالا بما جاء بعد ذلك :

فلم يبق منهم غير آثار نعمة تضوع برياها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهى صوامت ويثنى برياه على الوابل الزهر

ولعل أكبر قصيدة بدلت معالمها وشوّهت هى قصيدته التى جارى بها أبا نواس، فان الفرق بين الروايتين كبير جدا فنحث المتأدّبين على الموازنة بينهما لما فى ذلك من فائدة، واننا لا نشك أن رواية الوسيلة أصح وأبلغ من رواية الديوان ولا نأسف إلا على شطر واحد ذكر فى الثانية وسقط من الأولى مع البيت كله وهو:

ونبهنا وقع الندى فى خميلة لها من نجوم الأقحوان ثغور

فان الشطر الأوّل غاية فى الحسن والانسجام، قال صديقى الكاشف حين أنشدته إياه : «هذا شعر»، وهو ظرف من

الجوهر الرقيق يشف عن ذلك النفس العالى، وفيه مايسميه الافرنج بالنغم التقليدى (Harmonie imitative) وهو دقة التعبير عن المعانى بتراكيب وألفاظ وأوزان تجد لها نغما خاصا يحكى تلك المعانى ويدل عليها . اقرأ ثانية الشطر الذى سبق ذكره :

ونبهنا . وقع الندى . فى خميلة

ترأن الوقوف بعد لفظى "نبهنا" و "الندى" يجعلك تحس وقع الندى وهو يهبط على الخميلة من عل . ومن الأبيات التى بدلت فى هذه القصيدة قول البارودى :

عقدنا جناحى ليلنا بنهارنا ... وطرنا مع اللذات حيث تطير

فقد جاء فى الديوان :

عقلنا به ما ندّ من كل صبوة ... وطرنا مع اللذات حيث تطير

فالشطر الذى رواه المرصفى كما ترى ضعيف متكلف فى حين أن الشطر رواية الديوان من أجود التراكيب وأجملها، ومعنى البيت أن الشاعر كان يمتع بليل جمع فنون اللهو، وهذا دليل على السرور الكامل الذى ينسى الانسان مر الليالى حتى ينبهه وقع الندى أو هاتف بالسحر وهو لاه منعم، ومما يزيد من ملاحة ذلك التصوير المقابلة بين الشطرين، فان الشاعر ذكر فى الشطر الأول أنه يعقل ما ندّ من كل صبوة ثم وصف نفسه بالطائر الحر الذى يطير

فى فضاء اللذات حيث تطير، فأنت ترى من جمال المقابلة بين الضدّين ما ترقص له النفس طربا .

وجاء فى هذه القصيدة وصف الحمائم رواية الديوان :

اذا ضاحكتها الشمس رفت كأنما على صفحتيها سندس وحرير

فقد ورد فى الوسيلة "غازلتها" بدلا من "ضاحكتها" والأولى فى هذا المقام أدق وأحلى ، وهى كلمة بكر جاء بها وحى الشعر ، أما كلمة المضاحكة فهى عامة شائعة خالية من الصنعة الشعرية التى امتاز بها البارودى .

كان شاعرنا يفتش عن الألفاظ الشعرية ، ورب كلمة مليحة تعدل بيتا بل قصيدة بل ديوانا ، مثل ذلك كلمة "حواشى" فى هذا البيت :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر

ولعل البارودى أغار على الشريف الرضى الذى قال :

نهار بلألاء السيوف مفضض وجو بحمراء الأنابيب مذهب

ترى اليوم محمرّ الحواشى كأنما على الجو غرب من دم يتصبب

لم تخرج لفظة الحواشى فى بيت الشريف عن كونها لفظة جيدة من حيث اللغة الشعرية ولكن معناها ضيق محدود ، فى حين أنها

فى بيت البارودى جيدة من حيث الصنعة الشعرية العالية ومعناها واسع غير محدود، وكلما تأملت فيها حملتك على جناحيها فى فضاء الفكر والخيـال .

وقد أغار البارودى سهوا على شطر كامل لأعرابى كان سائحا فبلغه أن امرأته تزوجت فقال من أبيات :

أتانى بظهر الغيب أن قد تزوجت فظلت بى الأرض الفضاء تدور

ووصف شاعرنا الخمر فقال :

اذا ما شربناها أقمنـا مكاننـا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

ولكن البارودى أحسن الأخذ وصار أحق بالمعنى من صاحبه .

هذه أمثلة علنا نكون اهتدينا بها الى بعض أسرار تلك الصناعة، وفى اعتقادى أن البارودى جمع فى أساوبه بين الرقة والمتانة، والدقة والجزالة، والبداوة والحضارة، فجاء شعره مصقول الديباجة كالمرمر المسنون يمت بنسب الى البحترى، وكلاهما لا يشق له غبار .

الفصل الرابع

الثـــورة العرابيـــة

انتقل البارودى من صباه الى كهولته تحت لواء الثورة حتى أسلمته الى منفاه وهجع هجوع الليث بعـد أن كانت له على أعدائه دولة وصـــولة .

ولسنا نريد اليوم أن نفصل حوادث الثورة العرابية وأسبابها ونتائجها فهذا بحث تاريخى مستقل نرجئه الى حين ، ونكتفى الآن بقول كلمة إجمالية عن الثورة وشرح الدور الذى لعبه البارودى فيها .

أجمع أكثر المؤرخين على القول بأن الثورة العرابية كانت ثورة وطنية مصرية ترجع أسبابها الى الظلم الذى أخنى على البلاد فى أيام اسماعيل ، والى تدخل انجلترا وفرنسا فى فروع الادارة المصرية تمهيدا للاحتلال الثنائى الذى تفردت به انجلترا فيما بعد تحت ستار الثورة التى كانت تعمل فى الحقيقة على إزالة أسبابه واجتثاث أصوله .

بدأ أحرار المصريين فى أواخر حكم اسمـاعيل وأوائل حـكم توفيق يطلبون صراحة العدل والدستور لخلاص البلاد مما هى فيه ،

وانضم البـارودى من أوّل الأمر الى زعماء الحركة وكان من مشـجعيها سرا . روى المرحوم عرابى باشا فى مذكراته أنه فى سنة ١٨٧٩ على أثر حادثة المـالية التى دبرها اسماعيل وأراد أن يلصق تبعتها بمحمد بك النادى ، وعلى الروبى ، وأحمد عرابى دعاهم رئيس التشريفات عبد القادر باشا حلمى فتفاهموا معـه ثم دعاهم محمود باشا البارودى وكان وقتئذ مأمور الضبطية فصارحوه القول ، وهنا قال عرابى بالنص عن محمـود سامى : « وآنست فيه تأففا من الظلم وميلا الى العدل والدستور » .

أجل ، كانت هـذه النفس الأبية تكره الظلم وتأبى الصبر على الهوان ، ولقـد أشرنا فى مقال سابق الى القصـيدة التى شكا فيها ظلم الحكام . ولمـا صـعد الأمير محمـد توفيـق الى العرش هنأه بقصيدة قال فيها :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة ... إلا جنى بهما ثمـار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم ... شورى وجند للعدو بمرصد

أراد « بالجمع » مجلس النوّاب و « بالجند » الجيش — وهذا واضح — فانظر الى شجاعة الشاعر وإخلاصه لوطنه كيف دفعاه فى ذلك الزمن غير المأمون الى المجاهرة بتلك الحقيقة الكبرى وسط التهنئة والمديح ، والبارودى هو خير من لخص أغراض العرابيين

فى بيت من الشعر ، وهل هناك دواء أنجع من مجلس يحكم البلاد وجيش يحميها؟ وهل هناك وسيلتان أخريان لتحقيق ثورة الاصلاح التى كانت البلاد بحاجة اليها ؟

عين الخـديو توفيـــق فى أوائل حكمه محمـود سامى وزيرا للأوقاف المصرية فسعى جهده فى إصلاحها ، ويقال انه كان فى ذلك الوقت يشجع الحزب الوطنى سرا مع أن القوى العاملة لهذا الحزب كانت فى الجيش حيث استحكم العداء بين المصريين والعنصر التركى الشركسى الذى ينتمى اليه البارودى ، وهذا يدل على حب العدل الذى بنى عليه لا سيما وأنه من عائلة قديمة فى الديار المصرية .

ولمـا حدثت المظاهرة العســكرية الأولى ضـد عثمان رفقى الشركسى ناظر الجهادية وطلب عرابى من الخـديو توفيق عزله أجابه الخديو الى طلبه وأحال هـذه النظارة الى محمود سامى الذى أصبح ناظر الجهادية والأوقاف معا .

روى محمود باشا فهمى المهندس فى كتاب "البحر الزاخر" أن عرابى وعلى فهمى وعبد العال « اعتبروا إجابة طلبهم مكيدة بهم من الحكومة لتسكين جأشهم ثم تحتـال عليهم وتغتالهم وما كانوا يعتقدون فيما يعظهم به محمـود سامى من الأقوال وتمهيد الأحوال

واضطرب حالهـم وشرعوا فى عقـد مجالس سرية واحتفالات وجمعيات ليلية » .

اعتقد أن محمود فهمى لم يقل فى هذا الموطن إلا حقا . ويجب علينا من الآن أن نبين الصفة البارزة فى خلق البارودى وهى الاعتدال ، وإن كان المعتدل قد يتطرّف أو يتهوّر فى بعض أزمان الثورة ، وأريد بالاعتدال هذا الخلق الهادئ الذى يجمع بين الرزانة والروية والحنكة . ولقد جمع البارودى بين الاعتدال والذكاء ، وكان أنبه العرابيين فاشترك فى الحركة ولم يبزه حلمه . ولم يلعب فيها دور شاعر وإنما قال فيها الشعر منفردا قول باك على فنن فى غسق الدجى بعد أن غرد فى فجر النهضة تغريدة أو تغريدتين . ولم يلعب دور زعيم يخطب فى الجماهير ، وإنمـا كان رجل وزارة وسـياسة يرقب الحوادث من كثب ويعمل على سـياستها حتى اذا رآها جمحت بالبلاد مولية انزوى فى ضيعته وكان أقلهم تبعة .

اجتهد البـارودى فى إصـلاح « الجهادية » المختـلة فطلب الى رئيس الوزارة رياض باشا زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسـكرية ، وقع الخديوى توفيق على هذا الطلب فى ١٢ أبريل سنة ١٨٨١ ففرح الناس وأقام محمود

سامى احتفالا دعا اليه النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض ومحمود سامى وأحمد عرابى وأثنوا على الخديوى .

وفى ٢٥ يوليـــه من هـــذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا فى الاســـكندرية صدمت عربة أحد التجار جنديا فقتل لساعته فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا الى الخديوى النظـــر فى أمره فهاجه ذلك وأمر بعقد مجلس حربى حكم عليهم بالأشغال الشاقة أو بالنفى الى الســـودان فشكا عبد العـــال حلمى أميرالاى السودانية من قسوة الحكم وعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فشق ذلك عليه واعتقد أن محمود سامى كان يعمل باتفاق مع العرابيين فدعا فى الحال النظار من القاهرة الى الاســـكندرية وقدّم البارودى استعفاءه وعين مكانه داود يكن ابن عم الخديوى .

والراجح أن الذى دفع محمود سامى الى عرض هذه الشكوى هو اعتقاده عدالتها ولكـــن يظهر أن ذوى الأغراض ألقوا من الدسائس فى حقه عند الخديوى ، أشار الى ذلك بقوله :

نقمـــوا على حميتى فتألبـــوا	حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا	سمعا يميل الى الملام توسعوا
لاعيب فىّ سوى حمية ماجد	والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ويقال إن هذا مبدأ العداوة بين الخديوى ومحمود سامى ومبدأ التحالف بين عرابى ومحمود سامى .

ثم عاد النظار الى القاهرة وانتظمت الأمور فى الظاهر ، وعاد اليها الخديوى فى شهر سبتمبر وسرعان ما أصدر داود يكن أمرا الى آلاى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وآلاى الاسكندرية بالحضور الى العاصمة فتوجس عرابى خيفة وفهم أن المقصود تفريق كلمتهم هو وأعوانه . روى محمود فهمى بالنص : « لما استعفى محمود سامى من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله فى القاهرة توجه اليه أحمد عرابى سرا فى الليل وتعاهد معه على مساعدته ومعاضدته ، هذا قول عرابى لى وإلا فأنا ما كنت أعرف هذا ، ولما استوثق عرابى من معاضدة محمود سامى له ، عاد الى منزله وتوجه فى صباح ثانى يوم الى العباسية وأتى اليه طلبة عصمت يبث له ما وقع فيه فخاطب فى الحال عرابى الآلايات فى كونهم يستعدون للحضور فى ميدان عابدين » .

هذه الرواية من الأهمية بمكان لأن هذه الفترة أوّل عصر الثورة ولا بد أن يكون عرابى قد استوثق أوّلا من تأييد محمود سامى وبعض كبار الوطنيين له قبل كتابته الى الخديوى والى نظارة الجهادية يخبرهم « ان الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص

طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد » فان هذه الطلبات أصبحت قومية لا محدودة كما كان الأمر من قبل، لذلك لقيت تأييدا من الشعب وبدأت الثورة التي ترمي الى الاصلاح العام .

اجتمعت الآلايات في عابدين، كما هو معـلوم، في ٩ سبتمبر سـنة ١٨٨١ وطلب عرابي باسم الجيش الذي هو قوة الأمـة التنفيذية « إسـقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش » فتردد الخـديوي ثم عين شريفا رئيس الوزارة مكان رياض الذي كان مكروها ، ولم يقبل شريف إلا بعد أن تعهد له رؤساء الحزب العسكري باطاعة أوامره وقدم له عمد البلاد ضمانة، ولمـا دعي محمود سـامي لتقلد وزارة الجهادية أجاب « بأنه عقـد النية على أن لا يتقلد خدمة من خدمات الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان القانون» ولكنه قبل بعد إلحاح .

وقد اطلعنا على أوراق للمرحوم الشيخ محمد عبده يعجب فيها من خطة شريف « الذي كان من مدبري الحركة » ولا شك أن القارئ يعجب أيضا من خطة محمود سامي المتناقضة في الظاهر، وأغلب ظني أن هذين الوزيرين، لاسيما محمود سامي، من المعتدلين الذين يعملون لمصلحة بلادهم ولكنهم يخشون دائمـا أن تغل يدهم سكرة العسكر أو أن تخرج الثورة من دائرتها السلمية القانونية في ظروف

دقيقة للغاية فيجد الخصم وسيلة للقضاء على نجاحها المبدئى خصوصا وأن المطالب الأساسية كانت أجيبت أو كادت ، و باستغلالها فى الدائرة القانونية يمكن الاحتيال والوصول الى أبعد غاية : كان مانان بطل البندقية وحاميها فى الثورة الايطالية من أكبر أنصار هذه الفكرة .

وهذا هو السبب الذى من أجله ألح شريف ومحمود سامى على عرابى فى السفر بآلايه الى رأس الوادى فى مديرية الشرقية وعلى عبد العال حلمى الى دمياط . ومن حسنات عرابى أنه أبى ان ينتقل قبل أن يصدر أمر بتشكيل مجلس النوّاب ، وكان الاحتفال بتوديعه فاتحة المظاهرات والاتصال بين عرابى والجمهور ، واشترك الجمهور فى الثورة اشتراكا فعليا .

ولكن عرابى بعد استقراره فى رأس الوادى شرع يجول فى أنحاء المديرية ويخطب فيها فدعاه محمود سامى وجعله وكيلا لنظارة الجهادية .

وفى ٢٢ سبتمبر وافق الخديوى على القوانين العسكرية وفى ٤ أكتوبر اعتمد لائحة مجلس النوّاب الذى تم انتخاب أعضائه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا تحت رياسة سلطان باشا ، وكان من الممكن

أن تســـير الأمور بانتظـام لو لم يـكـن أعداؤنا بمرصد يدسون بين هـذا وذاك ، ويحرّضون هـذا على ذاك ، ويحرّكون المطامع والشهوات حتى وجدوا بفضل داء الشخصيات الذى ينغل فى جسم الأمة فرجة توصلوا بها الى كبد البلاد فطعنوها فى الصميم .

وما وافق الخـديوى توفيق من مبدأ الحركة الى منتهاها على جميع الاجراءات والمطالب إلا مكرها . كان للسراى حزب، وكان العرابيون منقسمين الى متطرّفين أمثال عرابى وطلبة وعبد العال وعبد الله نديم ، ومعتدلين أمثال عبد السلام المويلحى ومحمود سامى ، وشريف وغيرهم ، لذلك كان الخصم آمنا مطمئنا لم يزعجـه انعقاد مجلس النوّاب لعلمه أن فرص الخلاف كثيرة وأنه سيعرف كيف يخلقها ويستـفيد منها ويحـول بين المصريين وبين التمتع بمجلس النوّاب الذى هو عمود الثورة السلمية المنظمة .

أرسلت انجلترا وفرنسـا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة ثنائية الى الخـديوى تقولان فيها «أنهما موطدانه ومثبتانه على الأريكة الخديوية» فوقعت هذه المذكرة فى القاهرة ، كما قال السير مولى ، كالقنبلة ، وكان الغرض منها خلق الفتن وتهيئة جوّ صالح للتدخل .

وكان شريف باشا قدّم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ الى مجلس النوّاب اللائحة الأساسية الجديدة التى أعدّها له ، وبعد فحصها وقع

الخلاف بين النوّاب والنظار بشأن المواد المتعلقة بالميزانية وكان سلطان باشا وبعض النوّاب يؤيدون شريف فتدخل وكيلا فرنسا وانجلترا معارضين فى حق مجلس النوّاب فى تقرير الميزانية فكان تدخلهما مثيرا للشكوك داعيا لاستحكام الخلاف ، وانتهى الأمر باستعفاء شريف باشا وتأليف وزارة برياسة محمودسامى البارودى ، وتعيين أحمد عرابى وزيرا للجهادية فسر الحزب الوطنى بهذا الانتصار ووردت التهنئات من كل صوب ، واعتبرت هذه أوّل وزارة وطنية مصرية ينتمى رئيسها الى حزب الثورة .

ملك محمود سامى وقتئذ أعناق المطالب وكان مملكا على عرش القلوب ، وكان فى بيته كوكب سعد ولكن الدهر ما لبث أن أطلع فى جوانبه للنحس نحسا . على أن شاعرنا وهو البصير الهادئ الذكاء لم يكن ممن يلهيه سكر الانتصار عن الحقائق الراهنة ، واليك الدليل :

فى يوم الأربعاء ٨ فبراير ذهب محمود سامى الى مجلس النوّاب ومعه اللائحة بعد أن وافق عليها مجلس النظار فقوبل بالشكر والتبجيل ، ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس فقال :

«أيها السادة النوّاب إنى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الأساسى ... ...

«إلا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرّد وضع القـانون على أصول الحرّية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لا بد أن ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هـذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الأعمـال والأفكار منحصرة فى دوائرها . وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات الأعمـال وكلياتها فى دائرة القانون إنما ينال بعد العناء وطول التجارب ولكننى لا أعدّ هذا صعبا عليكم .

«وفى أملى أنكم ستحققون ما يظنّ أحباء البـلد فيكم عنـد ما تبتدئون فى الأعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها بأن تستعملوا صادق النظر للوقوف على مافيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصـول على فائدة قليـلة وهذا لا يكون إلا بتخليص الأفكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الأعمال وقفا على المصالح العموميـة التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم .

«إن التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القـلوب محاسـدات ومناظرات تحمل على الخـلاف الدائم وانكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك إلا باخلاصهم

فى طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب وأحلتهم اعلى المنازل فثبتوا فى مكانهم ما داموا بحلية الاخلاص . »

ثم ختم قائلا : « وآخر ما نتواصى به أن لا نجعل للتعصب المشربى دخلا فى الأعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها وأن تكون الوطنية الحقيقية هى الباعث القوى على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل» .

هذه خطبة أخلق بها أن تكتب بماء الذهب فهى صيحة إخلاص فى ساعة الخطر تشف عن جوى باطن وداء دخيل .

وسرعان ما سعت انجلترا وفرنسا فى خلق الارتباكات وتعقيد الأمور للقضاء على الثورة والاستيلاء على مصر .

بلغ عرابى أن طائفة من ضباط الشركس يعملون على الكيد له فعقد مجلسا حربيا وقرّر نفيهم الى الأقطار السودانيــة فعارض الخديوى وتصلب عرابى وكان هـذا مبدأ دخول الثورة السلمية فى طريق العنف والارتباك والاضطراب التى لعبت انجلترا تحت ستارها دورا كبيرا ختمته بمأساة الاسكندرية : وسعت انجلترا الخلاف بين الخديوى والعرابيين فدعا الخديوى قنصلى انجلترا وفرنسا وقال لهما ان حياة الأوربيين فى خطر فانزعج القنصلان وذهبا

الى رئيس الوزارة محمود سامى وناظر الحربية أحمد عرابى فأكدا لها أن لا خوف من ذلك .

فى هـــذه الساعة انفلت «عيار» الثورة وجمحت الحوادث عجلى ، وكثرت المجالس الليلية والاجتماعات وظن الناس الظنون . وبينما كان بعضهم يعمـــل على رقع الخرق قبـــل أن يتسع وردت أنباء مجىء الأساطيل الى المياه المصرية ، وإرسال الدولتين بلاغا آخر بالاتحاد مع ســلطان باشا رئيس مجلس النـــوّاب، تطلبان فيه إسقاط الوزارة وإخراج عرابى من القطر المصرى فلم تقبله الوزارة وقبله الخديوى الذى كان جل اعتماده على انجلترا ، وبناء عليه استعفت الوزارة، وكان ذلك فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢

يظهر أن محمود سامى أحس وقتئذ الخطر الذى يهدّد البـــلاد وعجزه عن تقويم الأمور فعاد الى ضيعته وبقى فيها حتى دعاه عرابى الى قيادة فرقة الصالحية فى الحرب التى أرغمت انجلترا البلاد عليها .

ولا ريب أن البارودى رجع الى مزارعه مترع القلب بالأسى ، فلمـــا رأى خلاء ومنظرا هتف بالشعر ليسرّى عن نفسه . ولعله نظم فى هذه الفترة القصيدة التى نقتطف منها ما يأتى :

كـــنا نود انقلابا نســـتريح به
حـــتى اذا تم ساءتنـــا مصائره

فالقلب مضطرب فيما يحاوله
والعقل مختبل مما يحاذره
أن دام هذا أضاع الرشد كافله
فيما أرى وأطاع الغىّ زاجره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
قواعد الملك حتى ريع طائره
فأهمل الأرض جرّى الظلم حارثها
واسترجع المال خوف العدم تاجره
واستحكم الهول حتى ما يبيت فتى
فى جوشن الليل إلا وهو ساهره
انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران أو بعض شهر إن هى احتدمت
وفى الجديدين ما تغنى فواقره
فان أصبت فعن رأى ملكت به
علم الغيوب ورأى المرء ناظره

كان الرومان يسمون الشاعر (Vates) وهو الذى يملك بالرأى علم الغيوب ، وقد يتفق ذلك كثيرا للشعراء لما امتازوا به من

فطنة والهام ، وهـذا ما حدث للبارودى فانه كان ينصح مواطنيه بالعمل على اجتناب الحرب وان كان يعلم علم اليقين ان البلاد مدفوعة اليها وانه لاينفع الحذر، وقد أجاد البارودى فى البيت الثانى تصوير هذه الحالة النفسية كما أجاد تصوير نفسيته حين جاءه وهو فى سيلان خبر العفو عنه فقال :

أحس فى قلبى دبيب المنى والمح الشبهة فى خاطرى

هذان البيتان من أدق الشعر، وهما خير ماء تحدر من غمام واحد .

ثم انظر من أى بحر يغترف حين يقول بعد انتهاء الحرب وان كان الديوان خلوا من أية اشارة الى موضوع الأبيات :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى عمدتم لتصديقى وقد قضى الأمر

فلم يبـق فى ايديكم غير حسرة ولم يبق منى غير ماعافه الصدر

فجاء الذى كنتم تخـافون شره وزال الذى لم يبق من بعده شعر

هذا شـعر ينضح بمرارة العيش التى يقاسيها مغترب فى منفاه بعد أن قضى الأمر وضاعت الديار، ومن كياسة البارودى وصدق وطنيته أنه لم يطعن الثورة فى ظهرها بعد فشلها كما فعل الكثيرون ، ولم يأس على المـال ومتاع الدنيا وظل كريم العنصر :

لم أقترف زلة تقضى على بمـا

أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

فهــل دفاعى عن دينى وعن وطنى
ذنب أدان به ظلما واغترب
فلا يظن بى الحساد منــدمة
فاننى صـابر فى الله محتســب
أثريت مجــدا فلم أعبأ بمـا سلبت
أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عاليــة
ولا يشــيد بذكر الخــامل النشب

ألست تحس كأن هــذا الشعر من قول المتنبي أو أبى العلاء وأن روح الشاعر «تطورت» فى كهولته ، ثم انظر الى الحكمة فى شعر صباه وقد كانت بنت الذكاء والتحصيل ، وانظر اليهـا الآن وقد شيب الدهر فوديها وصارت بنت التجارب والألم .

فانت ترى من كل ماتقدم أن البارودى لعب فى الثورة العرابية دورا كبيرا تصحبه الحكمة والاعتــدال فى معظم أطوارها ، وترك حبلها على غاربها حين أحس ريحا عاتية تسوق البلاد الى الحرب ، ثم رجع الى الصف فكم توفقه المقــادير ، وذهب الى منفاه الذى جمع الأسى واقتدح زناد فكره فقال شــعرا كثيرا أعاد به الى البلاد عصر الأدب الأزهر .

الفصل الخامس

المنــــــفى

أرأيت مخضرا من الروض كان مسرحا للشباب ترف عليه الغضارة والنضارة، وكان ساكنوه يقامرون الدهر فوق ذلك البساط الأخضر، والدهر يلهيهم بعاجل الربح عن آجل الخسران، حتى قمرهم بغاءة، ودالت دولة السرور، وهبت النكباء، وغاض ماء النعيم، وطوى البساط، وخرج كل منهم خاشعا وسليبا.

كان محمود سامى من أولئك النفر الذين تبسـطوا على لذات الشباب زمانا بين الجزيرة والروضة، وذاقوا حلاوة المجد وهم فى صحوة العمر، ثم دفعهـم الطماح فقدّموا الراحة والرفه والثروة والجاه مهرا للحرية والعليـاء.

أجل، فقـد محمود سامى كل شىء إلا الشرف والكبرياء، ومكث فى منفاه سبعة عشر عاما كاملة أفنى فيها كهولته بين تباريح وعبرات ولوعة وحنين.

نكب فى الثورة حين ختله الدهر وألقى ورقة رابحة اجتاحت المـال والبلاد فكانت كهولته كلهـا ليلة داجية، وكان كبلبل

الظلماء يردف تغريدا بتغريد، ويقول شعرا هو أنس المحزون، وعزاء الثكلى، وسلوة العاشق، شعرا يلهم الصبر على المكاره، والجلد على الشدائد، والأمل فى الله. وهو القائل:

فان أكن جردت من ثروتى ففضل ربى حلية العاطل

ولقد كانت الأيام التى ختمت بها الثورة وسبقت منفاه مأساة تتصدع منها كبد الحر مملوءة بالذكريات المحزنات التى تهيج فى سماء الفكر كأنها أغربة سحم.

وحسبك أن تذكر أن بعض المصريين رحبوا جهلا أو انخداعا «بدخول الفاتحين»، وأن حب الانتقام دفع بعض الكبراء الى ارسال الخدم الشركس وغيرهم ليهينوا و يزعجوا زعماء الثورة فى سجونهم صباح مساء، ولعل البارودى أشار الى ذلك فى قوله وهو بمنفاه:

وما أنا بالمغلوب دون مرامه ولكنه قد يخذل المرء جهده

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه ويملك أعناق المطالب وغده

تداعت لدرك الثأر فينا ثعاله ونامت على طول الوتيرة أسده

وكان حكم على رؤساء الثورة بالاعدام فقيض الله لهم بلنت الذى أرسل برودلى ونابيير للدفاع عنهم فاستبدل بالحكم فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ النفى المؤبد.

ولا اخاله إلا مشيرا الى ذلك بهذين البيتين المنفردين اللذين يقومان مقام لوحة مصورة :

ألا قل لقوم شامتين تربصوا تهــزم شر بالمنيـــة كارث
أرى سترخطب قد ترفع وانبرت تلوح لهم منه وجوه الحوادث

وفى ٢٨ ديسمبر رحل قاصدا سيلان ، ومعــه صحبه ، فدخلوا ميناءها كولومبو فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ، وهناك أقاموا بعــد أن سلخ من العمر خمسة وأربعين عاما ، وقد وصف شاعرنا الفراق بقصيدة أحلى من تعريسة الفجر ، قال :

محا البين ما أبقيتْ عيون المها منى
فشبت ولم أقض اللبــانة من سنى
عنــاء ويأس واشـــتياق وغربة
ألا شدّ ما ألقاه فى الدهر من غبن
فان أك فارقت الديار فلى بهــا
فـــؤاد أضلته عيون المهاعنى
بعثت به يوم النـــوى إثر لحظـــة
فاوقعــه المقـــدار فى شرك الحسن
فهل من فتى فى الدهر يجمع بيننــا
فليس كلانا عن أخيـــه بمستغن

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى
وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن
وما هى إلا خطرة ثم أقلعت
بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظى
وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن
وما كنت جربت النوى قبل هذه
فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن
ولكننى راجعت حلمى وردنى
الى الحزم رأى لا يحوم على أفن
ولو لا بنيات وشيب عواطل
لما قرعت نفسى على فائت سنى

هذا شعر يمتزج بالروح رقة ، وعندى أن أجود قصائد البارودى ثلاث : هذه القصيدة التى أخلق بها أن تسمى قصيدة "محا البين" كما يقولون "قفانبك" و "خفف الوطء" وقصيدته

الغزلية «هل من فتى ينشد قلبي معى» ، وقصيدته التى قالها فى الجزيرة بعد عودته من منفاه :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

ومن العجيب أنك لاتجد فى هذه القصائد معنى جديدا ولا أثرا من آثار المبالغة والغلو، وانما هى عرائس مجلوة وسمها الله بميسم الجمال فغنيت عن التزويق الكاذب ، انما هى تصوير حالات نفسية ، ووجدان، وعواطف قد يخيل اليك لأول وهلة أنه خال من الدقة وأنه من «فرشة» المصور لا من ريشته . ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق فان هذا الشعر الحى من التصوير الصادق الذى يلعب بالنفس ويدخل على القلب بلا استئذان .

كلنا يعرف قول المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى الفراق :

هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من آماقنا نتدفق

أطرب كثافقد لهذا البيت لأن فيه معنى جديدا، وهو من الغلو المستعذب، ولكننى لا أتذوقه لأنه لا يحرك عاطفتى، ولأنه يخاطب العقل قبل القلب .

ولقد كان فراق البارودى مظلما ، وكان منفاه مظلما اذ نعى اليه زوجه واصدقاؤه واحدا بعد واحد، ورأى الشقاق دب بين رؤساء

الثورة فى المنفى فغادرهم عام ١٨٩٠ الى مدينة كندى فى جزيرة سرنديب (سيلان)، وكأن هذه الظلمة وقفت فى عينيه هناك وتجمدت فانقلب حسير الطرف فى أواخر سنى منفاه، ثم عاد الى مصر ففقد ابنتيه ، فيالها ظلمة أخذت تنزل فى عينيه شيئا فشيئا من أول كهولته نزول الليل فى الهوة العميقة حتى اتصلت بظلام القبر .

وقد ماتت حليلته سنة ١٣٠٢ هـ أو سنة ١٨٨٥ م فرثاها بقصيدة من أجود شعره جاء فيها :

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى	تقوى على رد الحبيب الغادى
يادهر فيم فجعتنى بحليلة	كانت خلاصة عدتى وعتادى
ان كنت لم ترحم ضناى لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادى
ومن البلية أن يسام أخو الأسى	رعى التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحى	أسفا لبعدك أو يلين مهادى
ولهى عليك مصاحب لمسيرتى	والدمع فيك ملازم لو سادى
فاذا انتبهت فأنت أول ذكرتى	واذا أويت فأنت آخر زادى

هذه القصيدة من النوع الذى يسميه الافرنج (Poiees intime) وهو شعر الحياة المنزلية الباطنة ، وإن اشارة البارودى الى الدمع الذى سيلازم وسادته بعد فرقتها لأفضل عندى على بساطتها من دك الجبال وكسوف الشمس جزعا ! .

نظم البارودى أكثر شعر المنفى فى مدينة كندى حيث أقام عشرة أعوام ووجد منظرا طبيعيا من أبهى مناظر الدنيا .

وصف المرحوم عرابى باشا فى مذكراته هذه المدينة، قال :

«وفى سنة ١٨٩٢ انتقلنا الى مدينة كندى عاصمة جزيرة سيلان للاقامة فيها حيث وجدنا مناخها فى زمن الربيع جميلا ، وكان قد سبقنا اليها بالاقامة محمود باشا سامى ويعقوب باشا سامى وطلبه باشا عصمت .

«ومدينة كندى كائنة فى واد ذى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال، وفيها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك الشنجليز، وفيها بركة عظيمة طولها ميل وعرضها من ٢٠٠ الى ٤٠٠ متر تنصب فيها مجارى السيل من رؤس الجبال، وعليها حاجز من الشمال وقنطرة بباب لصرف المياه الزائدة عن منسوبها، وعلى حافتيها أشجار السيجو والمنجو والدوم وجوز الهند، وهى محل النزهة العمومية .

«وفوق الجبل خزان للمياه المنبجسة من قمته طوله نصف ميل وعرضه ١٠٠ متر وعليه سدّ عظيم، وفى جانبه الجنوبى جدول فوق سطح الخزان تنصرف فيه المياه الزائدة وتمتدّ منه المواسير الموصلة الى أعلى نقطة من بيوت المدينة .

«وهناك متنزه عظيم يقال له جنينة برادينيا على نهر برادينيا مساحتها نحو ٦٠٠ فدان وفيها من جميع أنواع الشجر وكل شجرة مكتوب على لوحة بجانبها اسمها واسم بلادها .

وفى كندى نحو ٢٠٠٠٠ منهم ١٠٠٠٠ من المسلمين» .

ولا ريب أن سكنى البارودى فى هذه المدينة التى جمعت بين جمال المنظر وجلاله فى السهل والجبل قد أثرت فى نفس الشاعر وجعلته يلهج بذكر الطبيعة لهج الحمام بهديله ، وأجد له طيب المكان وحسنه منى فتمنى مصر :

يا حبذا جرعة من ماء محنية وضجعة فوق برد الرمل بالقاع

ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريا الأزاهر من ميث وأجراع

ياهل أرانى بذاك الحى مجتمعا بأهل ودّى من قومى وأشياعى

وقال من قصيدة أخرى يتشوّق :

ردّوا علىّ الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى

لم يدر من بات مسرورا بلذته أنى بنار الأسى من هجره صالى

يا غاضبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى

غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الليالى بعد اجمال

فاليوم لا رسنى طوع القياد ولا قلبى الى زهرة الدنيا بميال

أبيت منفردا فى رأس شاهقة مثل القطامىّ فوق المربأ العالى

وقال من قصيدة «كشف الغمة فى مدح سيد الأمة» :

أدعو الى الدار بالسقيا و بى ظمأ   أحق بالرى لكنى أخو كرم
منازل لهواها بين جانحتى   وديعة سرها لم يتصل بفمى
اذا تنسمت منها نفحة لعبت   بى الصبابة لعب الريح بالعلم

لا شك أن الشاعر فى البيت الثانى يشير الى حب مكتم فتق قلبه فى شباب عليه نضرة ونعيم كما يفتق برد الندى وردة الروض النضير، فسار شعره مسير النسيم فى الجنان يضوع برياها . والراجح أن حبه لم يزد عن ذلك الحب الذى قال عنه "لامرتين" أنه نشأ عن نظرة حزت فى كبده فشب وكبر وهى باقية فيها كالمدية التى يتركها عابر سبيل فى جذع الشجرة، فما كان أشدّ لوعته؛ وما كان أكبر ألمه

فلا تسألنى عن هواى فاننى
وربك أدرى كيف زلت بى النعل
فما هى إلا أن نظرت بجاءة
(بحلوان) حيث انهار وانعقد الرمل
الى نسوة مثل الجمان تناسقت
فرائده حسنا وألفه الشمل

تكنفن تمثالا من الحسن رائعا
يجنّ جنونا عند رؤيته العقل
فكان الذى لولاه ما درت هائما
أرود الفيافى لا صديق ولا خل

قد تكون حلوان أصل حب ذلك الرجل العفيف النفس ، وقد يكون كل حبه فى تلك النظرة أو ذكراها التى عاودته وهاجت بلباله وشجنه وحنينه فى سرنديب فقال :

أبيت حزينا فى سرنديب ساهرا
طوال الليالى والخليون هجد
اذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة
نزت بين قلبى شعلة تتوقد
وهيهات ما بعد الشبيبة موسم
يطيب ولا بعد (الجزيرة) معهد
شباب واخوان رزئت ودادهم
وكل امرئ فى الدهر يشقى ويسعد

هذه الأبيات توازن أرقى أبيات الأغانى أو ديوان الحماسة بعلو النفس الشعرى ، وصدق النزعة ، وصفاء الروح ، وقل أنّ يوفق لمثلها شاعر عصرى يعيش فى جوّ المدنية الحديثة الذى يتعذر على روح

الشاعر أن تنطلق فيه حرة بريئة من كل صنعة . ومن أرق شعره فى الغزل قصيدته التى أولها :

غلب الوجد عليــه فبكى   وتولى الصبر عنــه فشكا

والقصيدة مطلعها :

لوى جيـــده وانصرف   فمــا ضـــره لو عطف

كان الحب من العواطف التى تتجاذب نفسه ، ولا يظنن أحد أن البارودى مازال مضطربا فى أمله حتى استقر فى منفاه فان نفسه من النفوس الكبيرة الوثابة التى لا يقعد بها يأس أو جزع ، والتى يتعب فى مرادها الجسم لا سيما اذا كان أسيرا :

عفاء على الدنيا اذا المرء لم يعش   بهــا بطلا يحمى الحقيقة شدّه
وانى أمرؤ لا أستكين لصولة   وان شدّ ساقى دون مسعاى قدّه
أبت لى حمل الضيم نفس أبية   وقلب اذا سيم الأذى شب وقده

ثم انظر كيف تفتح همته التى لا تهدأ باب الأمل المغلق حين يقول فى نفس القصيدة :

ولا بد من يوم تلاعب بالقنا   أسود الوغى فيه وتمرح جرده
قلوب الرجال المستبدة أكله   وفيض الدماء المستهلة ورده
أحمل صدر النصل فيه سريرة   تعدّ لأمر لا يحــاول رده

فى هـذه الأبيات صور البارودى نفسه التى لا ينال منها أسر يعانيه ، بل ولا ضعف لحق بجسمه ولا مشيب :

انى وان كانت الأيام قد أخذت

منى وأخنى على الضعف والشمط

فقـد أذود السبنتى عن فريسـته

وأبخأ البطـل الحامى فاختبط

وقد يتعجب القارئ من قوله أيضا فى قصيدة :

تالله أهدأ أو تقوم قيامة فيها الدماء على الدماء تراق

ولكن العجب لا يلبث أن يزول اذا تذكرنا أن النفوس الكبار لا تهدأ لها ثائرة إلا اذا جاءها الموت وأنام أصحابها بعنف فناموا .

وهناك عاطفة أخرى تجلت فى شعر البارودى ، ولا شك أن المنفى كان سببا فى تقويتها وتنميتها ، هى العاطفة الدينيـة . كان شاعرنا فى سرنديب يعلم كثيرا من المسلمين القراءة والكتابة ويعظ ويخطب فى الجوامع ، هنـاك نظم قصيدة "كشف الغمة" التى توسل بها الى الله ليعفو عنه ويفرج كربه ، ونظم قصـيدة أخرى مدح فيها الرسول ومما قاله :

أنا الذى بت من وجدى بروضته

أحن شـوقا كطير البانة الهـزج

هاجت بذكراه نفسى فاكتست ولها
وأى صب بذكـر الشوق لم يهج

ويظهر أن العاطفة الدينية تمكنت من نفسه حتى دفعتها الى التفكير فى أمر الوجود وحقيقة الكون ، ساعدها على ذلك تقلب الدنيا على عينيه ، قال من قصيدة :

سل الفلك الدوار ان كان ينطق ... وكيف يحير القول أخرس مطرق
نسائله عن شأنه وهو صامت ... ويخـبر ما فى نفسه وهو مطبق
فلا سره يبدو ولا نحن نرعوى ... ولا شأنه يدنو ولا نحن نلحق

ومن بديع التصوير :

فضاء يرد العين حسرى ومسرح ... يقص جناح الفكر وهو محلق

ولا يفوتنا أن نقول ان من دقق النظر فى شعر البارودى وجد فيه نزعة المصوّر المـاهر . أنظر الى قوله فى الشيب :

أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منـــه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على عيـ ... ـنى حتى أظل كالهـدّاب

وقـــوله :

ورب يوم طويل العمر قصره ... جرى السوابق والوخادة النشط
ترى به القوم صرعى لاحراك بهم ... كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا

وللفواخت فى أفنانها هزج قدماج من لحنهن السهل والفرط
خضر الجناجن والأطواق تحسبها أطفال ملك لها من سندس قمط

ومن أراد الكثير فليتصفح ديوانه فكله غرر وآيات وعبر .

وقد عاد البارودى من منفاه الى مصر سنة ١٩٠٠ ويقال إن المرحوم الشيخ محمد عبده هو الذى توسط له فى العفو عند الخديوى ، وسنتكلم فى الفصل الآتى عن شعره فى آخر أيامه بعد أن دار الفلك دورته وتبدّلت الحال حالا .

الفصل السادس

آخـــــــر أيامــــــــه

قضى البارودى فى مصر أربعة أعوام من سـنة ١٩٠٠ لغاية سنة ١٩٠٤ أو من ٦ جمـادى الأولى سنة ١٣١٨ لغاية ٦ شوّال سـنة ١٣٢٢، وكان انحداره فى آخر سنيه من منفاه الى القبر مثل انحدار الشمس عند المغيب فى رءوس الجبال وقد أعارتها الطبيعة كل ما حوته من روعة وجلال .

ويخيل الى أن نفسـه الواسعة ذات الطول والعرض كانت مملوءة بالسـكون المهيب الذى يحيط بأعلى الذرى، وكان الشاعر يشرف منها على المـاضى الممتد فلا يرى حوله من كل النواحى إلا خرائب وطلولا .

ولا يغرنك ما قاله متغزلا حين « أطل على ربوع مصر وسر برؤية أهلها »

أبابل رأى العين أم هـــذه مصر

فانى أرى فيها عيونا هى السـحر

نواعس أيقظن الهوى بلواحظ
تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة
فذلك عصر المعجزات وذا عصر
فأى فؤاد لا يذوب صبابة
ومزنة عين لا يصوب لها قطر
بنفسى وان عزت على ربيبة
من العين فى أجفان مقلتها فتر
فتاة يرف البدر تحت قناعها
ويخطر فى أبرادها الغصن النضر
تريك جمان القطر فى أقحوانة
مفلجة الأطراف قيل لها ثغر

والقصيدة كلها على هذا النمط خالية من الروح الشعرية التى امتاز بها البارودى ، وهى من الشعر الفاتر الذى يتمخض عنه التكلف ، وكذلك شأن القصيدة الأخرى التى قالها شاكرا الخديو عباس على تعطفاته :

عباس ياخير الملوك عدالة وأجل من نطق امرؤ بثنائه
أوليتنى منك الرضا وجلوت لى وجها قرأت البشر فى أثنائه

وقد اشتهر البيت الأخير من هذه القصيدة :

لا غرو إن جمع المحامد يافعا وسمـا بهمته على نظـرائه
فالعين وهى صغيرة فى حجمها تسع الفضاء بأرضه وسمـائه

على أن هذا البيت ان هو إلا أثر من آثار الصنعة العالية : فإما أن تكون الروح الشـعرية نضب معينهـا فى آخر العمر فلم تبق للشاعر إلا صنعته يحتال بها على صوغ القريض و يستر بها ما لحق شاعريته من ضعف أو وهن كما تستر الحسـناء آثار المشيب فى غضون الوجه تحت الألوان والطلاء ، وإما أن تكون شاعرية الرجل ما زالت فى نضرتها ولكنها عصته حين دعاها لا سيما وان البارودى قال ما قاله قياما بالواجب نحو مليك عفا عنه ثم أصدر أمره « بتمتعه بالحقوق المدنية » و بلاد رآها بعـد أن عاش غريبا عنها سبعة عشر عاما .

وهذا الفرض الثـانى عندى أقرب الى الصحة لأن البارودى كان شاعرا مطبوعا غذى بآداب العرب والفرس والترك ، ومثل هذا الطبع يخيل اليك أحيانا أن العمر يجففه ولكنه لا يلبث أن يتفجر بالمـاء الزلال .

يدل على ذلك قصيدته العينية التى ثبت لنا أن البارودى قالها فى الجزيرة بعد رجوعه من منفاه إذ كتب ناقد المنار ولعله المرحوم

الأديب السيد حسين رضا — فى عدد ٧ يناير سنة ١٩٠٥ فصلا يتبين منه أن الكاتب كان من ألصق الناس بالبارودى فى آخر أيامه ، روى الكاتب : « ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر أيام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا » :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع
هيهات قـــد ذهب المتبوع والتبع
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدا
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبـــل منزلة
للملك منهـا لوفد العـز مرتبـع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ
ولا سميــع إذا ناديت يســتمع
كانت منازل أملاك اذا صـدعوا
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بهـا حقبة حتى اذا نهضت
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقـــدار ما فغرت
به الحوادث ما شادوا ولا رفعــوا

دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا
أيدى سبا وتخلت عنهم الشيع

كانت لهم عصب يستدفعون بها
كيد العدو فما ضرّوا ولا نفعوا

أين المعاقل بل أين الجحافل بل
أين المناصل والخطية الشرع

لاشيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
أحداثه أو يقى من شر ما يقع

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
ولا تعطلت الأعياد والجمع

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
وإنما صفوه بين الورى لمع

لو كان للمرء فكر فى عواقبه
ما شان أخلاقه حرص ولا طبع

وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث
من لم يزل بغرور العيش ينخدع

دهر يغر وآمال تسر وأعـ
ـمار تمر وأيام لها خدع

يسعى الفتى لأمور قد تضرّ به
وليس يعلم ما يأتى وما يدع

يا أيها السادر المزوّر من صلف
مهلا فانك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالإيمان ينتفع

إن الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب إذا ما رث ينخلع

وقد علق كاتب المنار على القصيدة قائلا : «فهذه القصيدة من آخر ما نظم ، وفيها من آيات النذر للمغرورين بكثرة المال والدثر» .

تلك قصيدة من أجود شعر البارودى ، وهى دمعة وفاء على أيام اسماعيل التى كانت أيام صباه ، وهى من الشعر الحى الذى يستمدّ قوّته من الذكرى ، وهى بكاء على الحال التى آلت اليها البلاد بعد عودته إليها ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه فى نواحيها ، ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمر تحت الرماد فلم يصرح عنه مقاله وأشدّ الألم ما كان مكتما .

وتدل قصيدته فى الجزيرة على أن الرجل كان ثاقب الفكر لاتعوقه الظواهر عن رؤية أبعد البواطن ، فلم تغرّه الرفاهية المادّية

التى غزت بعض العرابيين بعد رجوعهم من المنفى فتوهموا أن أغراضهم تحققت ، ولم تغرّه مظاهر العــدل المنظم فى الظاهر ، فأزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبى المنظم فى الباطن الذى يضؤل بجانبه كل ظلم .

من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالأمس يبكى من اسماعيل فأصبح يبكى عليــــه .

وكأنى بالشاعر أحس دنو الأجل فاستسلم للقضاء فى هــذه القصيدة ، ولم تحفزه همته الى الفخر ومغالبة الأقدار ، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعيـاد والجمع

فهذا البيت من خير ما قيل فى وصف خروج الانسان من هذه الحياة الدنيـا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما ، قال فيكتور هوجو فى هذا المعنى بيتا يشبه هذا البيت :

Je m'en irai bientôt au milieu de la fête
Sans que rien manque au monde immense et radieux,

وقد تكون هــذه القصيدة فى جملتها أثرا من آثار التأمل الذى يعترى الانسان عند تقاص الأيام وتقلب الدنيا ويدفعه الى عرض

الماضى فى صفحة الفكر فإذا بكى عليه كان بكاؤه المتر عصارة التجارب والألم .

كان الأستاذ خليل مطران يختلف إليه كثيرا فى آخر أيامه ، ومما قاله عنه فى فصل كتبه : « إن هذا الوزير الذى اقتدح زناد تلك الهمة وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع شجاعته و إقدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغهما فى مواطن القتال إلا رجل سكينة ووداعة وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه وأحفظ عهدا لمحبيه ، ولعل إصابته بكريمتيه هى التى قلصت من كبده وأودت بجسده . ثم إن العارف بحوادث حياته لا يكاد يصدّق أنه هو الرجل الذى كان ديدنه فى سنواته الأخيرة أن يجمع أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات فيجعل لهم مكانا خصيصا من البيت لتلقى العلوم واللغات يضربها على أساتذة يحضرون فى مواعيد كأنهم فى مدرسة قانونية فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهر ويوزع عليهم المكافآت .

« على أن هذا البر إنما كان إحدى شمائله وفضائله فان أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود ، والكياسة مع لطف الحس ، والصفح مع المقدرة ، والإيناس مع علو النفس وشرف الطبع » .

نضيف الى ذلك أن البـارودى تمكن بفضل جدّه وكدّه من تجـديد جزء عظيم من ثروته تركه لأهـله وذويه فكان طول حياته مثال الهمة العلياء ، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة المحافل ورياسة الوزارة فى أحرج الأوقات والعمل .

وكل ما يعـاب على الرجل أنه لم يوفق فى حياته السياسية كما وفق فى شعره ، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى من التاريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية ، وصدق العزيمة ، وكراهية الظلم ، والاعتدال ، والروية ، والأناة .

وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواءها اليوم شوقى ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذى ننعاه اليوم الى الشعر كما ننعى فتى الجود الى الجود .

ولا أعرف رجلا كافح الردى مثلما كافحه البارودى ، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثلما طاعنها ، وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها ، وقد كان خلق الرجل عظيما ، وذكاؤه عظيما ، وشعره عظيما فكان الثلاثة فى مستوى واحد .

وفى اعتقادى أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى ، شعر العواطف ، شعر الوجدان ، شعر الألم .

وليس فى هذا الشعر ما يبعث على اليأس والاستسلام، أو يولد خورا فى العزيمة، وإنما هو درس من دروس الشجاعة والصبر والجلد، درس من دروس الوفاء وعلو النفس وكرم العنصر، فأخلق به أن يكون أنشودة الصبي فى مكتبه ، والناسك فى صومعتـه ، والزارع فى مزرعته، والوطنى فى جهاده .

وقدلبى دعوة ربه فى ٦ شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر سنة ١٩٠٤) فبكته مصر وبكاه الشـعراء الذين وقفوا يوم الأربعين لدى قـبره «ونبهوا الأصداء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد» . وكان ذلك يوما مشهودا لم يسبق مثله إلا للمعرى، ومن خير ماقيل فيه بل خير ما نختم به هذا البحث قول مطران :

وما كانـ سجنك إلا قرارا — وقـد تعب الجـد أن يسهرا
ولا النـفى إلا خلاء أعدت — به زمن الأدب الأزهرا
ولا الثـكل إلا لتأسى أسالك — وتبكى بكاء ليوث الشـرى
ولا الغض عمـا تراه العيون — إلا وقـد ساء أن ينظرا
إذا وسـع الكون فكر امرئ — فلا بأس بالطرف أن يحسرا
على الشمس أن تهدى المبصرين — وليس على الشمس أن تبصرا

الفصل السابع

مختارات

ننشر فى هـذا الباب ما نختاره من قصائد البارودى التى أشرنا الى أكثرها فى أثناء البحث حتى تكون عند القارئ فكرة كاملة عن الرجل وشعره، قال رحمه الله :

هل من فتى ينشد قلبى معى	بين خدور العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهوى	فمر بالحى ولم يرجع
فهل اذا ناديته باسمه	يفيق من سكرته أو يعى
هيهات يلقى رشدا بعد ما	أغواه لحظ الرشأ الاتلع
فيادموع القطر سيلى دما	ويابنات الأيك نوحى معى
وأنت يانسمة وادى الغضا	مرى برياك على مربعى
وأنت يا عصفورة المنحنى	بالله غنى طربا واسجعى
وأنت ياعين اذا لم تفى	بذمة الدمع فلا تهجعى
صبابة أغرت على الأسى	ودلت السهد على مضجعى
ويلاه من نار الهوى إنها	لولا دموعى أحرقت أضلعى

أبيت أرعى النجم فى سدفة ضـل بهـا الصبح فلم يطلع
لا أهتدى فيهـا الى حيـلة تقى حياتى من يدى مصرعى
طورا أدارى لوعتى بالمـنى وتارة يغلبـنى مـدمعى
فهـل الى الأشواق من غاية أم هل الى الأوطان من مرجع
لا تأس ياقلب على ما مضى لا بد للمحنة من مقطـع

وقال يصف حرب سكان جزيرة كريد حين خرجوا عن الطاعة سنة ١٨٦٥ و يتشوّق الى مصر :

أخذ الكرى بمعاقـد الأجفان وهفا السرى بأعنـة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتـالع والربى بجـران
لا تستبين العين فى ظلمائه إلا اشـتعال أسـنة المـران
نسرى به ما بين لجـة فتنـة تسمو غواربهـا على الطوفان
فى كل مربأة وكل ثنيـة تهدار سامرة وعزف قيـان
تسـتن عادية و يصهـل أجرد وتصيح أجراس ويهتف عانى
قوم أبى الشيطان إلا خسرهم فتسللوا من طاعة السـلطان
ملؤا الفضاء فمـا يبين لنـاظر غير التماع البيض والخرسـان
فالبدر أكدر والسماء مريضة والبحر أشـكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسانهـا لطراد يوم كريهة و رهان
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا يتكلمـون بألسن النيران

حتى اذا ما الصبح أسفر وارتمت عيناى بين ربى وبين مجان
فاذا الجبال أسنة واذا الوها د أعنة والماء أحمر قانى
فتوجست فرط الركاب ولم تكن لتهاب فامتنعت على الأرسان
فزعت فرجعت الحنين وانما تحنانها شجن من الأشجان
ذكرت مواردها بمصر وأين من ماء بمصر منازل الرومان
والنفس لاهية وان هى صادفت خلفا بأول صاحب ومكان
فسقى السماك محلة ومقامة فى مصر كل مرنة مرنان
حتى تعود الأرض بعد ذبولها شتى النماء كثيرة الألوان
بلد خلعت به عذار شبيبتى وطرحت فى يمنى الغرام عنانى
فصعيدها أحوى النبات وسرحها ألمى الظلال وزهرها متدانى
فارقتها طلبا لما هو كائن والمرء طوع تقلب الأزمان
حمل الزمان على ما لم أجنه ان الأماثل عرضة الحدثان
نقموا على وقد فتكت شجاعتى ان الشجاعة حلية الفتيان
فليهنأ الدهر الغيور برحلتى عن مصر ولتهدأ صروف زمانى
فلئن رجعت فسوف أرجع واثقا بالله أعلمت الزمان مكانى
صادقت بعض القوم حتى خاننى وحفظت منه مغيبه فرمانى
زعم النصيحة بعد أن بلغت به غشا وجاز الحق بالبهتان
فليجر بعد كما أراد بنفسه إن الشقى مطية الشيطان

وكذا اللئيم اذا أصاب كرامة　　عادى الصديق ومال بالاخوان

فليعلمن أخو الجهالة قصره　　عنى وان سبقت به قدمان

فلربما رجح الخسيس من الحصى　　بالدرّ عند تراجح الميزان

شرف خصصت به وأخطأ حاسدى　　مسعاته فهذى به وقلانى

وقال أيضا مجاريا قصيدة "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر":

طربت وعادتنى المخيلة والسكر　　وأصبحت لايلوى بشيمتى الزجر

كأنى مخمور سرت بلسانه　　معتقة مما يضن بها التجر

صريع هوى يلوى بى الشوق كلما　　تلألأ برق أو سرت ديمة غزر

اذا مال ميزان النهار رأيتنى　　على حسرات لا يقاومها صبر

يقول أناس إنه السحر ضلة　　وما هى إلا نظرة دونها السحر

فكيف يعيب الناس أمرى وليس لى　　ولا لامرئ فى الحب نهى ولا أمر

ولو كان مما يستطاع دفاعه　　لألوت به البيض المباتير والسمر

ولكنه الحب الذى لو تعلقت　　شرارته بالجمر لاحترق الجمر

على أننى كاتمت صدرى حرقة　　من الوجد لايقوى على مسها صدر

وكفكفت دمعا لو أسلت شئونه　　على الأرض ما شك آمرؤ أنه بحر

حياء وكبرا أن يقال ترجحت　　به صبوة أو فل من غربه الهجر

وإنى آمرؤ لولا العوائق أذعنت　　لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم　　لها فى حواشى كل داجية فجر

اذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عمد مرفوعة ومعاقل ... وألوية حمر وأفنية خضر
ونار لها فى كل شرق ومغرب ... لمدرع الظلماء ألسنة حمر
تمدّ يدا نحو السماء خضيبة ... تصافحها الشعرى ويلثمها الغفر
وخيل يرج الخافقين صهيلها ... نزائع معقود باعرافها النصر
معوّدة قطع الفيافى كأنها ... خدارية فتخاء ليس لها وكر
أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ... أخو نتكات بالكرام اسمه الدهر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة ... تضوع برياها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهى صوامت ... ويثنى برياه على الوابل الزهر
لعمرك ما حى وان طال سيره ... يعد طليقا والمنون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل ... يحل بها سفر ويتركها سفر
ولا تحسبن المرء فيها بخالد ... ولكنه يسعى وغايته العمر

وقال فى النسيب :

غلب الوجد عليه فبكى ... وتولى الصبر عنه فشكا
وتمنى نظرة يشفى بها ... علة الشوق فكانت مهلكا
يالها من نظرة ما قاربت ... مهبط الحكمة حتى انهتكا
نظرة ضم عليها هدبه ... ثم أغراها فكانت شركا
غرست فى القلب منى حبه ... وسقته أدمعى حتى زكا

آه من برح الهوى ان له بين جنبى من النار ذكا
كان أبقى الوجد منى رمقا فاحتوى البين على ما تركا
ان طرفى غر قلبى فمضى فى سبيل الشوق حتى هلكا
قد تولى إثر غزلان النقا ليت شعرى أى واد سلكا
لم يعد بعد وظنى أنه لج فى نيل المنى فارتبكا
ويح قلبى من غريم ما طل كلما جدّد وعدا أفكا
ظن بى سوءا وقد ساومته قبلة فأزورّ حتى فركا
ياغزالا نصبت أهدابه بيد السحر لضمى شبكا
قد ملكت القلب فاستوص به إنه حق على من ملكا
لا تعذبه على طاعته بعد ما تيمته فهو لكا
غلب اليأس على حسن المنى فيك واستولى على الضحك البكا
فالى من أشتكى ما شفنى من غرام واليك المشتكى
سلكت نفسى سبيلا فى الهوى لم تدع فيه لغيرى مسلكا

طائر على غصن

ونبأة أطلقت عينى من سنة كانت حبالة طيف زارنى سحرا
فقمت أسأل عينى رجع ماسمعت أذنى فقالت لعلى أبلغ الخبرا
ثم اشرأبت وألفت طائرا حذرا على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزا يتنزى فوق أيكته تنزى القلب طال العهد فادكرا

لا يستقرّ له ساق على قدم ... فكلما هدأت أنفاسه نفرا

يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه ... دحو الصوالج فى الديمومة الأكرا

ما باله وهو فى أمن وعافية ... لا يبعث الطرف إلا خائفا حذرا

اذا علابات فى خضراء ناعمة ... وإن هوى ورد الغدران أو نقرا

ياطير نفرت عنى طيف غانية ... قد كان أهدى لى السراء حين سرى

حوراء كالريم ألحاظا اذا نظرت ... وصورة البدر إشراقا اذا سفرا

زالت خيالتها عنى وأعقبها ... شوق أحال علىّ الهم والسهرا

فهل الى سنة أن أعوزت صلة ... عود تنال به من طيفها الوطرا

***

كان رحمه الله حين ذهب الى حرب الروس (١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧ م) كتب لأبناء ودّه كتبا لم تصل اليهم وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة بالاجابة ، وقد وصل الى الشيخ حسين المرصفى أحد كتابين كتبهما له يوم قدومه الى مصر بعد مدّة طويلة من كتابته ، وهذه أبياته :

يا ناعس الطرف الى كم تنام ... أسهرتنى فيك ونام الأنام

أوشك هذا الليل أن ينقضى ... والعين لا تعرف طيب المنام

الله فى عين جفاها الكرى ... فيكم وقلب قد براه الغرام

قد رحم العاذل حالى فما ... يرضى لذلى فى الهوى بالملام

ويلاه من ظبي الحمى إنه جرعنى بالصد مر الحمام

يغضب من قولى آه وهل قولى آه يا ابن ودى حرام

لا كتبه تترى ولا رسله تأتى ولا الطيف يوافى لمام

طال النوى من بعدكم وانقضت بشاشة العيش وساء المقام

ارتاح ان مر نسيم الصبا والبرء لى فيه معا والسقام

ياليتنى فى السلك حرف سرى أو ريشة بين خوافى الحمام

حتى أوافى مصر فى لحظة أقضى بها فى الله حق الذمام

مولاى قد طال مرير النوى فكل يوم مر بى ألف عام

أنظر حولى لا أرى صاحبا إلا جماهير وخيلا صيام

وديدبانا صارخا فى الدجى ارجع وراء إنه لا أمام

يقتبل الصبح ويمضى الدجى وينقضى النور ويأتى الظلام

ولا كتاب من حبيب أتى ولا أخو صدق يرد السلام

فى هضبة من أرض دبريجة ليس بها غير بغاث وهام

من خلفنا البحر وتلقاءنا سواد جيش مكفهر لهام

فتلك حالى لا رمتك النوى فكيف أنتم بعدنا ياهمام

وقال يجارى قصيدة أبى نواس فى مدح الأمير محمد ابن الرشيد، وسنذكر هنا قصيدة أبى نواس اتماما للفائدة ثم نعقبها بقصيدة البارودى .

قال أبو نواس :

يا دار ما فعلت بك الأيام ... لم تبق منك بشاشة تستام
عرم الزمان على الذين عهدتهم ... بك قاطنين وللزمان عرام
أيام لا أغشى لأهلك منزلا ... إلا مراقبة على ظلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم ... وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ آمرؤ بشبابه ... فاذا عصارة كل ذاك أثام
وتجشمت بى هول كل تنوفة ... هوجاء فيها جرأة إقدام
تذر المطى وراءها فكأنها ... صف تقدمهن وهى أمام
واذا المطى بنا بلغن محمدا ... فظهورهن على الرجال حرام
قربنا من خير من وطئ الحصا ... فلها علينا حرمة وذمام
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر ... قمر تقطع دونه الأوهام
ملك اذا علقت يداك بحبله ... لا يعتفيك البؤس والاعدام
ملك توحد بالمكارم والعلى ... فرد فقيد الند فيه همام
ملك أغر اذا شربت بوجهه ... لم يعدك التبجيل والاعظام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة ... لبس الشباب بنوره الاسلام
سبط البنان اذا احتبى بنجاده ... فرع الجماجم والسماط قيام
ان الذى يرضى الإله بهديه ... ملك تردى الملك وهو غلام
ملك اذا اعتبر الأمور مضى به ... رأى يفل السيف وهو حسام
داوى به الله القلوب من العمى ... حتى أفقن وما بهن سقام

أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر أملا لعـقد حباله استحكام
فسلمت للأمر الذى ترجى له وتقـاعست عن يومك الأيام

وقال البـارودى فى الوزن والروى :

ذهب الصبا وتوالت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام
تالله أنسى ما حييت عهـوده ولكل عهـد فى الكرام ذمام
اذ نحن فى عيش ترف ظلاله ولنـا بمعترك الهـوى آثام
تجرى علينا الكاس بين مجالس فيها السـلام تعـانق ولزام
فى فتيـة فاض النعيم عليهـم ونمـاهم التبجيل والاعظـام
ذهبت بهم شيم الملوك فليس فى تلعابهـم هـذر ولا ابرام
لا ينطقون بغير آداب الهوى سمح النفوس على البلاء كرام
من كل أبلج يستضاء بنوره كالبدر حل صفحتيه غمـام
سهل الخليقة لا يسوء جليسه بين المقامـة واضح بسام
متواضـع للقـوم تحسب أنه مولى لهم فى الدار وهو همـام
ترنو العيون اليه فى أفعاله وتسـير تحت لوائه الأقوام
فاذا تكلم فالرءوس خواضـع واذا تناهض فالصفوف قيام
نلهو ونلعب بين خضر حدائق ليست بغير خيولنا تستـام
حتى انتبهنا بعد أن ذهب الصبا ان اللذاذة والصـبا أحلام
لا تحسـبن العيش دام لمترف هيهات ليس على الزمان دوام

تأتى الشهور وتنتهى ساعاتها — لمع السراب وتنقضى الأعوام
والناس فيها بين ذلك وارد — أو صادر تجرى به الأيام
لا طائر ينجو ولا ذو مخلب — يبقى وعاقبة الحياة حمام
فادرأ هموم النفس عنك اذا اعترت — بالكأس فهى على الهموم حسام
فالعيش ليس يدوم فى ألوانه — إلا اذا دارت عليه الجام
من خمرة تذر الكبير اذا انتشى — بعد اشتعال الشيب وهو غلام
لعب الزمان بها فغادر جسمها — شبحا تهافت دونه الأوهام
حمراء دار بها الحباب فصوّرت — فلكا تحف سماءه الأجرام
لا تستقيم العين فى لمعانها — وتزل عند لقائها الأقدام
تعشو الركاب فان تبلج كأسها — ساروا وان زال الضياء أقاموا
حبست بأكناف لم يصل بفنائه — نور ولم يسرح عليه ظلام
حتى اذا اصطفقت وطار فدامها — وثبت فلم تثبت لها الأجسام
وقدت حميتها فلولا مزجها — بالماء بعد الماء شب ضرام
تسم العيون بنورها لكنها — برد على شرابها وسلام
فاصقل بها صدأ الهموم ولا تكن — غرا تطيش بلبه الآلام
واعلم بأن المرء ليس بخالد — والدهر فيه صحة وسقام
يهوى الفتى طول الحياة وانها — داء له لو يستبين عقام
فاطمح بطرفك هل ترى من أمة — خلدت وهل لابن السبيل مقام

هذي المدائن قد خلت من أهلها ... بعد النظام وهذه الأهرام

لا شيء يخلد غير أن خديعة ... في الدهر تكل دونها الأحلام

ولقد تبينت الأمور بغيرها ... وأتى على النقض والابرام

فاذا السكون تحرك واذا الخمو ... د تلهب واذا السكوت كلام

واذا الحياة ولا حياة منية ... تحيا بها الأجساد وهى رمام

هذا يحل وذاك يرحل كارها ... عنه فصلح تارة وخصام

فالنور لو بينت أمرك ظلمة ... والبدء لو فكرت فيه ختام

***

ولأبى نواس قصيدة أخرى مدح بها الخصيب بن عبد الحميد العجمى أمير مصر من طرف الرشيد، وكان قصده من بغداد :

اجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

فان كنت لاخلما ولا أنت زوجة ... فلا برحت دونى عليك ستور

وجاورت قوما لا تزاور بينهم ... ولا وصل إلا أن يكون نشور

فما أنا بالمشغوف ضربة لازب ... ولا كل سلطان على قدير

وهى قصيدة طويلة وقد نظم شاعرنا قصيدة فى وزنها ورويها، قال :

تلاهيت إلا ما يجن ضمير ... ودار يت إلا ما ينم زفير

وهل يستطيع المرء كتمان أمره ... وفى الصدر منه بارح وسعير

فياقاتل الله الهوى ما أشدّه … على المرء اذ يخلو به فيغير

تلين اليه النفس وهى أبية … و يجزع منه القلب وهو صبور

نبذت له رمحى وأغمدت صارمى … ونهنهت مهرى والمراد غزير

وأصبحت مفلول المخالب بعدما … سطوت ولى فى الخافقين زئير

فيا لسراة القوم دعوة عائذ … أما من سميع فيكم فيجير

لطال على الليل حتى مللته … وعهدى به فيما علمت قصير

ألا فرعى الله الصبا ما أبره … وحيا شبابا مر وهو نضير

اذ العيش أفواف ترف ظلاله … علينا وسلسال الوفاء نمير

واذ نحن فيما بين إخوان لذة … على شيم ما إن بهن نكير

تدور علينا الكاس بين ملاعب … بها اللهو خدن والشباب سمير

فألحاظنا بين النفوس رسائل … وريحاننا بين الكؤوس سفير

عقدنا جناحى ليلنا بنهارنا … وطرنا مع اللذات حيث تطير

وقلنا لساقينا أدرها فانما … بقاء الفتى بعد الشباب يسير

فطاف بها شمسية لهبية … لها عند الباب الرجال ثؤور

اذا ما شربناها أقمنا مكاننا … وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها … الى أن بدا للصبح فيه قتير

شغلت بها قلبى ومتعت ناظرى … ونعمت سمعى والبنان طهور

صنعت بها صنع الكريم بأهله … وجيرته والغادرون كثير

فمـا راعنا إلا حفيف حمـائم … لها بين أطراف الغصون هدير
تجاوب أترابا لهـا فى خمـائل … لهن بها بعـد الحنين صفير
نواعم لا يعرفن بؤس معيشـة … ولا دائرات الدهر كيف تدور
توسد هامات لهن وسائدا … من الريش فيـه طائل وشكير
كأن على أعطافها من حبيكها … تمـائم لم تعقـد لهن سـيور
خوارج من أيك دواخل غيره … زهاهن ظـل سـابغ وغدير
اذا غازلتها الشمس رفت كأنما … على صفحتيها سـندس وحرير
فلما رأيت الصبح قد رف جيده … ولم يبق من نسج الظلام ستور
خرجت أجر الذيل تيها وإنمـا … يتيه الفتى ان عف وهو قدير
ولى شيمة تأبى الدنايا وعزمة … ترد لهـام الجيش وهو يمـور
اذا سرت فالأرض التى نحن فوقها … مراد لمهـرى والمعاقـل دور
فـلا عجب ان لم يصرنى منزل … فليس لعقبان الهـواء وكور
همامة نفس ليس ينفى ركابها … رواح على طول المدى وبكور
معودة ان لا تكف عنانها … عن الجد إلا أن تتم أمـور
لها من وراء الغيب أذن سميعة … وعين ترى ما لا يراه بصـير
وفيت بمـا ظن الكرام فراسة … بأمرى ومثـلى بالوفاء جدير
وأصبحت محسود الجلال كأننى … على كل نفس فى الزمان أمـير
اذا صلت كف الدهر من غلوائه … وان قلت غصت بالقلوب صدور

ملكت مقاليد الكلام وحكمة ... لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى ... لباء بفضلي جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواسي لم يقل ... أجارة بيتينا أبوك غيور
وما ضرني أني تأخرت عنهم ... وفضلي بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أول ... وبز الجياد السابقات أخير

* * *

وقال النابغة الذبياني واسمه زياد يصف المتجردة زوج النعمان بأمره، ويقال أن النعمان مع ذلك لما سمع القصيدة غضب على النابغة وجفاه وظن به حتى اختفى منه ثم ظهرت براءته له وعاد الى موضعه من منادمته :

أمن آل مية رائح أو مغتد ... عجلان ذا زاد وغير مزوّد
أفد الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد
زعم الهمام بأن رحلتنا غدا ... وبذاك تنعاب الغراب الأسود
لا مرحبا بغد ولا أهلا به ... ان كان تفريق الأحبة في غد
حان الرحيل ولم تودع مهددا ... والصبح والامساء منها موعدي
في إثر غانية رمتك بسهمها ... فأصاب قلبك غير أن لم تقصد
غنيت بذلك أذهم لك جيرة ... منها بعطف رسالة وتودد
ولقد أصاب فؤاده من حبها ... عن ظهر مرنان بسهم مصرد

نظرت بمقلة شادن متربب ... أحوى أحم المقلتين مقلد

والنظم فى سلك يزين نحرها ... ذهب توقد كالشهاب الموقد

صفراء كالسيراء أكمل خلقها ... كالغصن فى غلوائه المتأود

والبطن ذو عكن لطيف طيه ... والأتب تنفجه بثدى مقعد

مخطوطة المتنين غير مفاضة ... ريا الروادف بضة المتجرد

قامت تراءى بين سجفى كلة ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درة صدفية غواصها ... بهج متى يرها يهل ويسجد

أو دمية من مرمر مرفوعة ... بنيت بآجر يشاد وقرمد

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد

نظرت اليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم الى وجوه العود

تجلو بقادمتى حمامة أيكة ... بردا أسف لثاته بالأثمد

كالأقحوان غداة غب سمائه ... جفت أعاليه وأسفله ند

زعم الهمام بأن فاها بارد ... عذب مقبله شهى المورد

زعم الهمام ولم أذقه أنه ... عذب اذا ما ذقته قلت ازدد

زعم الهمام ولم أذقه أنه ... يشفى بريا ريقها العطش الصدى

أخذ العذارى عقده فنظمنه ... من لؤلؤ متتابع متسرد

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... عبد الاله صرورة متعبد

لزنا لرؤيتها وحسن حديثها ... ونخاله رشدا وإن لم يرشد
بتكلم لو تستطيع كلامه ... لدنت له أروى الهضاب الصخد
وبفاحم رجل أثيث نبته ... كالكرم مال على الدعام المسند
وإذا لمست لمست أجثم جاثما ... متحيزا بمكانه ملء اليد
وإذا طعنت طعنت فى مستهدف ... رابى المجسة بالعبير مقرمد
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف ... نزع الحزور بالرشاء المحصد
وإذا يعض يشد من أعضائه ... عض الكبير من الرجال الأدرد
ويكاد ينزع جلد من أصلى به ... بلوافح مثل السعير الموقد
لا وارد منها يحور لمصدر ... عنها ولا صدر يحور لمورد

وقد مشى البارودى على أثر النابغة وقال على روى قصيدته ، وسلك فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب وارتياد المنابت وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء :

ظن الظنون فبات غير موسد ... حيران يكلأ مستنير الفرقد
تلوى به الذكرات حتى إنه ... ليظل ملقى بين أيدى العود
طورا يهم بأن يزل بنفسه ... سرفا وتارات يميل على اليد
فكأنما افترست بطائر حلمه ... مشمولة أو ساغ سم الأسود
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم ... خوف التفرق أن أعيش الى غد
هى مهجة ذهب الهوى بشغافها ... معمودة إن لم تمت فكأن قد

يا أهل ذا البيت الرفيع مناره أدعوكم يا قوم دعوة مقصد

انى فقدت العام بين بيوتكم قلبي فردّوه علىّ لأهتدى

أو فاستقيدونى ببعض قيانكم حتى ترد الى نفسى أو تدى

بل يا أخا السيف الطويل نجاده ان أنت لم تحم النزيل فأغمد

هذى لحاظ الغيد بين شعابكم فتكت بنا خلسا بغير مهند

من كل ناعمة الصبا بدوية ريا الشباب سليمة المتجرد

هيفاء ان خطرت سبت واذا رنت سلبت فؤاد العابد المتشدّد

يخفضن من أبصارهن تختلا للنفس فعل القانتات العبد

فاذا أصبن أخا الشباب سلبنه ورمين مهجته بطرف أصيد

واذا لحن أخا المشيب قلينه وسترن ضاحية المحاسن باليد

فلئن غدوت دريئة لعيونها فلقد أفل زعارة المتمرّد

ولقد شهدت الحرب فى إبانها ولبئس راعى الحى ان لم أشهد

تتقصف المران فى حجراتها ويعود فيها السيف مثل الأدرد

عصفت بها ريح الردى فتدفقت بدم الفوارس كالأتىّ المزبد

مازلت أطعن بينها حتى انثنت عن مثل حاشية الرداء المجسد

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره فى كل وضاح الأسرة أغيد

تجرى به الآرام بين مناهل طابت مشاربها وظل أبرد

بمضمر أرن كان سراته بعد الحميم سبيكة من عسجد

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة ... منه البياض الى وظيف أجرد

فكأنما انتزع الأصيل رداءه ... سلبا وخاض من الضحى فى مورد

زجل يردّد فى اللهات صهيله ... دفعا كزمزمة الحبي المرعد

متلفتا عن جانبيه يهزه ... مرح الصبا كالشارب المتغرّد

فاذا ثنيت له العنان وجدته ... يمطو كسيد الردهة المتورّد

واذا أطعت له العنان رأيته ... يطوى المهامه فدفدا فى فدفد

يكفيك منه اذا استحس بنبأة ... شدا كالهوب الاباء الموقد

صلب السنابك لا يمرّ بجلمد ... فى الشدّ إلا رض فيه بجلمد

نعم العتاد اذا الشفاه تقلصت ... يوم الكريهة فى العجاج الأربد

ولقد شربت الخمر بين غطارف ... شم المعاطس كالغصون الميد

يتلاعبون على الكؤوس اذا جرت ... لعبا يروح الجدّ فيه ويغتدى

لا ينطقون بغير ما أمر الهوى ... فكلامهم كالروض مصقول ندى

من كل وضاح الجبين كأنه ... قمر توسط جنح ليل أسود

بل رب غانية طرقت خباءها ... والنجم يطرف عن لواحظ أرمد

قالت وقد نظرت الى فضحتنى ... فارجع لشأنك فالرجال بمرصد

فخلبتها بالقول حتى رضتها ... وطويتها طى الحبيرة باليد

ما زلت أمنعها المنام غواية ... حتى لقد بتنا بليل الانقد

روعاء تفزع من عصافير الضحى ... ترفا وتجزع من صياح الهدهد

حتى اذا نم الصبا وتتابعت زيم الكواكب كالمها المتبدد
قالت دخلت وما أخالك بارحا إلا وقد أبقيت عار المسند
فمسحتها حتى اطمأن فؤادها ونفيت روعتها برأى محصد
وخرجت اخترق الصفوف من العدى متلثما والسيف يلمع فى يدى
فلنعم ذاك العيش لو لم ينقض ولنعم هذا العيش ان لم ينفد
يرجو الفتى فى الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد

وقال الشريف محمد الرضى يفتخر ويمدح أسلافه من أهل البيت :

لغير العلا منى القلا والتجنب ولولا العلا ما كنت فى الحب أرغب
اذا الله لم يعذرك فيما ترومه فما الناس إلا عاذل أو مؤنب
ملكت بحلمى فرصة ما استرقها من الدهر مفتول الذراعين أغلب
فان تك سنى ما تطاول باعها فلى من وراء المجد قلب مدرّب
بحسبي أنى فى الأعادى مبغض وأنى الى غر المعالى محبب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أيامى الى الحلم أقرب
يصول على الجاهلون واعتلى ويعجم فى القائلون وأعرب
يرون احتمالى غصة ويزيدهم لواعج ضغن أننى لست أغضب
وأعرض عن كأس النديم كأنها وميض غمام غائر المزن تحلب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتى ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب

ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ... ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كر القوارص شيتى ... كأن معيد الذم بالمدح مطنب
لسانى حصاة يقرع الجهل بالحجى ... اذا نال منى العاضة المتأوب
ولست براض أن تمس عزائمى ... فضالات مايعطى الزمان ويسلب
غرائب آداب حبانى بحفظها ... زمانى وصرف الدهر نعم المؤدّب
تريشنا الأيام ثم تهيضنا ... ألا نعم البادى وبئس المعقب
نهيتك عن طبع اللئام فأننى ... أرى البخل يؤبى والمكارم تطلب
تعلم فان الجود فى الناس فطنة ... تناقلها الأحرار والطبع أغلب
تضافرنى فيك الصوارم والقنا ... ويصحبنى منك العذيق المرجب
نصحت وبعض النصح للقوم هجنة ... وبعض التناجى بالعتاب تعتب
فان أنت لم تعط النصيحة حقها ... فرب جموح كل عنه المؤدّب
سقى الله أرضا جاوز القطر روضها ... اذ المزن يسقى والا باطح تشرب
ذكرت بها عهد الشباب بحسرة ... أفدت وقدفات الذى كنت أطلب
ويعجبنى منها النسيم اذا هفا ... إلا كل ماسرى عن القلب معجب
سكنتك والأيام بيض كأنها ... من الطيب فى أثوابها تتقلب
وبرق رقيق الطرّتين لحظته ... إذ الجو خوار المصابيح أكهب
نظرت وألحاظ النجوم كليلة ... وهيهات دون البرق شاو مغرب
فما الليل إلا فحمة مستشقة ... وما البرق إلا جمرة تتلهب

أمن بعد أن جلاتها ورق الدجى سراعا وأغصان الأزمة تجذب
وعدنا بها ممعوطة بنسوعها كما صافح الأرض الغراء المعقب
كأن تراجيع الحداة وراءها صفير تعاطاه اليراع المثقب
تهز ظنونى فى المآرب أربة ويجنب عزمى فى المطالب مطلب
وردنا بها ماء الظلام سواغبا ولليل جوّ بالدرارى معشب
تنفر ذود الطير عن وكراتها وكل اذا لقيته متغرّب
ونلتذ رشف الماء رنقا كأنه مع العز ثغر بارد الظلم أشنب
أذعنا لها سر الكرى من عيوننا وسر العلى بين الجوانح يحجب
حرام على المجد ابتسامى لقربه وما هزنى فيه العناء المقطب
ودهماء من ليل التمام قطعتها أغنى حداء والمراسيل تطرب
ولو شئت غنتنى حمام عشية ولكننى من ماء عينى أشرب
أقول اذا خاض السميران فى الدجى أحاديث تبدو طالعات وتغرب
ألا غنيانى بالحديث فاننى رأيت ألذ القول ما كان يطرب
غناء اذا خاض المسامع لم يكن أمينا على جلبابه المتجلبب
ونشوان من خمرّ النعاس ذعرته وطيف الكرى فى العين يطفو ويرسب
له مقلة يستنزل النوم جفنها اليه كما استرخى على النجم هيدب
سريت بخاج الأرض غفلا ومعلما تجد بها أيدى المطايا وتلعب
وما شهوتى لوم الرفيق وانما كما يلتقى فى السير ظلف ومخلب

عجبت لغيرى كيف سار نجمها وسيرى فيها يا ابنة القوم أعجب
أسير وسرجى بالنجاد مقلد وأثوى وبيتى بالعوالى مطنب
ومصقولة الأعطاف فى جنباتها مراح لأطراف الرماح وملعب
تجر على متن الطريق عجاجة يطاردها قرن من الشمس أعضب
نهار بلألاء السيوف مفضض وجو بحمراء الأنابيب مذهب
ترى اليوم محمر الحواشى كأنما على الجو غرب من دم يتصبب
صدمنا بها الأعداء والليل ضارب بأرواقه جون الملاطين أخطب
أخذنا عليهم بالصوارم والقنا وراعى نجوم الليل حيران مغرب
يراعون أسفار الصباح وإنما وراء لثام الليل يوم عصبصب
وكل ثقيل الصدر من حلب القنا خفيف الشوا والموت عجلان مقرب
يجم اذا ما استرعف الكر جهده كما جمع الغدران والماء ينضب
وما الخيل إلا كالقداح يجيلها لغنم فاما فائز أو مخيب
دعوا شرف الاحساب يا آل ظالم فلا الماء مورود ولا الترب طيب
لئن كنتم فى آل فهر كواكبا اذا غاض منها كوكب فاض كوكب
فنعتى كنعت البدر ينسب بينكم جهارا وما كل الكواكب تنسب
صحبتم خضاب الزاعبيات ناصلا ومن علق الأقران ما لا يخضب
أهذب فى مدح اللئام خواطرى فأصدق فى حسن المعانى وأكذب
وما المدح إلا فى النبى وآله يرام وبعض القول ما يتجنب

وأولى بمـدحى من أعز بفخره ولا يشـكر النعماء إلا المهـــذب
أرى الشـــعر فيهم باقيا وكأنمـا تحلق بالأشـــعار عنقاء مغرب
وقالوا عجيب عجب مثلى بنفســه وأين على الأيام مثـــل أبى أب
لعمرك ما أعجبت إلا بمدحهـم ويحسب انى بالقصـائد معجب
أعد لفخرى فى المقام محمــدا وأدعو عليـا للعـلا حين أركب

قال البارودى وترجم لهـا بقوله : « وقال يروض القول على روى قصيدة الشريف» :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويعجب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبـه ويملك سمعيـــه اليراع المثقب
ولكن أخو هـم اذا ماترجحت به سورة نحو العـلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية لها بين أطراف الأسـنة مطلب
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق اذا ما رمى عينيه والشرق مغرب
له غدوات يتبع الوحش ظلها وتغدو على آثارها الطـير تنعب
همامة نفس أصغرت كل مأرب فكلفت الأيام ما ليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيهـا محبب
اذا أنا لم أعط المكارم حقـها فـلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حملت درعى كميت طمـرة ولا دار فى كفى سـنان مذرب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة لدى يدا أغضى لها حين يغضب

فلست لأمر لم يكن متوقعا ... ولست على شيء مضى أتعتب
أسير على نهج يرى الناس غيره ... لكل امرئ فيما يحاول مذهب
وانى اذا ما الشك أظلم ليله ... وأمست به الأحلام حيرى تشعب
صدعت حفا فى طرتيه بكوكب ... من الرأى لا يخفى عليه المغيب
وبحر من الهيجاء خضت عجاجه ... ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
تظل به حمر المنايا وسودها ... حواسر فى ألوانها تتقلب
توسطته والخيل بالخيل تلتقى ... وبيض الظبى فى الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتى بين الكر موقفى ... لدى ساعة فيها العقول تغيب
لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى ... على غيهب من ساطع النقع غيهب
كذلك دأبى فى المراس وانى ... لأمرح فى غى التصابى وألعب
وفتيان لهو قد دعوت وللكرى ... خباء بأهداب الجفون مطنب
الى مربع يجرى النسيم خلاله ... بنشر الخزامى والندى يتصبب
فلم يمض أن جاءوا ملبين دعوتى ... سراعا كما وافى على الماء ربرب
بخيل كآرام الصريم وراءها ... ضوارى سلوق عاطل ومليب
من اللاء لا يأ كان زادا سوى الذى ... يضرسنه والصيد أشهى وأعذب
ترى كل محمر الحماليق فاغر ... الى الوحش لا يألو ولا يتنصب
يكاد يفوق البرق شدا اذا انبرت ... له بنت ماء أو تعرض ثعلب
فملنا الى واد كأن تلاعه ... من العصب موشى الحبائك مذهب

تراح به الآمال بعد كلالها ويصبو اليه ذو الحجى وهو أشيب
فبينا نرود الأرض بالعين اذ رأى ربيئتنا سربا فقال الا اركبوا
فقمنا الى خيل كأن متونها من الضمر خوط الضيمران المشذب
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت بزاة وجالت في المقاود أكلب
فما كان إلا لفتة الجيد ان دلت قدور وفار اللحم وانفض مأرب
وقلنا لساقينا أدرها فانما قصارى بني الأيام أن يتشعبوا
فقام الى راقود خمر كأنه اذا استقبلته العين أسود مغضب
يمج سلافا في إناء كأنه اذا ما استقلته الأنامل كوكب
فلم نأل ان دارت بنا الأرض دورة وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب
الى أن تولى اليوم إلا أقله وقد كادت الشمس المنيرة تغرب
فرحنا نجر الذيل تيها لمنزل به لأخي اللذات واللهو ملعب
مسارح سكير ومربض فاتك ومخدع أكواب به الخمر تسكب
فلما رآنا صاحب الدار أشرقت أساريره زهوا وجاء يرحب
وقال انزلوا يا بارك الله فيكمو فعندى لكم ما تشتهون وأطيب
وراح الى دن تكامل سنه وشيب فوديه من الدهر أحقب
فما زال حتى استل منه سبيكة من الخمر تطفو في الاناء وترسب
يحوم عليها الطير من كل جانب ويسرى عليها الطارق المتأوب
فيا حسن ذاك اليوم لو كان باقيا ويا طيب هذا الليل لو دام طيب

يودّ الفتى ما لا يكون طاعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الانسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتى وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجرى بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب
نظن بأنا قادرون وإننا نقاد كما قيد الجنيب ونصحب
فرحمة رب العالمين على امرئ أصاب هواه أو درى كيف يذهب

***

وقال فى منفاه :

ردّوا علىّ الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى
ماض من العيش ما لاحت مخائله فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى
سلت قلوب فقرت فى مضاجعها بعد الحنين وقلبى ليس بالسالى
لم يدر من بات مسرورا بلذته انى بنار الأسى من هجره صالى
ياغاضبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الليالى بعد إجمال
قد كنت أحسبنى منكم على ثقة حتى منيت بما لم يجر فى بالى
لم أجن فى الحب ذنبا أستحق به عتبا ولكنها تحريف أقوال
ومن أطاع رواة السوء نفره عن الصديق سماع القيل والقال
أدهى المصائب غدر قبله ثقة وأقبح الظلم صدّ بعد إقبال
لا عيب فىّ سوى حرية ملكت أعنتى عن قبول الذل بالمال

تبعت خطة آبائى فسرت بها ... على وتيرة آداب وآسال

فما يمرّ خيال الغدر فى خلدى ... ولا تلوح سمات الشر فى خالى

قلبى سليم ونفسى حرة ويدى ... مأمونة ولسانى غير ختال

لكننى فى زمان عشت مغتربا ... فى أهله حين قلت فيه أمثالى

بلوت دهرى فما أحمدت سيرته ... فى سابق من لياليه ولا تالى

حلبت شطريه من يسر ومعسرة ... وذقت طعميه من خصب وامحال

فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ... ولا فرحت بوفر بعد إقلال

عفافة نزهت نفسى فما علقت ... بلوثة من غبار الذم أذيالى

فاليوم لا رسنى طوع القياد ولا ... قلبى الى زهرة الدنيا بميال

لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه ... إلا صحابة حرّ صادق الحال

وأين أدرك ما أبغيه من وطر ... والصدق فى الدهر أعيا كل محتال

لا فى سرنديب لى إل فأجاذبه ... فضل الحديث ولا خل فيرعى لى

أبيت منفردا فى رأس شاهقة ... مثل القطامى فوق المربأ العالى

اذا تلفت لم أبصر سوى صور ... فى الذهن يرسمها نقاش آمالى

تهفو بى الريح أحيانا ويلحفنى ... برد الظلال ببرد منه أسمال

ففى السماء غيوم ذات أروقه ... وفى الفضاء سيول ذات أوشال

كأنّ قوس الغمام الغرّ قنطرة ... معقودة فوق طامى الماء سيال

اذا الشعاع تراءى خلفها نشرت بدائعا ذات ألوان وأشكال
فلو ترانى وبردى بالندى لثق لخلتنى فرخ طير بين أدغال
غال الردى أبويه فهو منقطع فى جوف عيناء لا راع ولا وال
أزيغب الرأس لم يبد الشكير به ولم يصن نفسه من كيد مغتال
كأنه كرة ملساء من أدم خفية الدرز قد علت بجريال
يظل فى نصب حران مرتقبا نقع الصدى بين أسحار وآصال
يكاد صوت البزاة القمر يقذفه من وكره بين هابى الترب جوّال
لا يستطيع انطلاقا من غيابته كأنما هو معقول بعقال
فذاك مثلى ولم أظلم وربتما فضلته بجوى حزن وإعوال
شوق، ونأى وتبريح ومعتبة ياالاحبة من غدرى وإهمال
أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه وقد أكون وضافى الدرع سربالى
ولا تكاد يدى تجرى شبا قلمى وكان طوع بنانى كل عسال
فان يكن جف عودى بعد نضرته فالدهر مصدر إدبار وإقبال
علام أجزع والأيام تشهد لى بصدق ما كان من وسمى وإغفالى
راجعت فهرس آثارى فما لمحت بصيرتى فيه ما يزرى بأعمالى
فكيف ينكر قومى فضل بادرتى وقد سرت حكمى فيهم وأمثالى
أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال

ولى من الشـــعر آيات مفصلة تلوح فى وجنـة الأيام كالخـال
ينسى لهـا الفاقد المحزون لوعته ويهتــدى بســناها كل قوّال
فانظر لقولى تجد نفسى مصوّرة فى صفحتيه فقولى خط تمثـالى
ولا تغــرّنك فى الدنيـا مشاكلة بين الأنام فليس النبع كالضـال
إن ابن آدم لولا عقــله شبح مركب من عظام ذات أوصال

الكتاب الثاني

إسماعيل صبري



الفصل الأول

صــبرى فى صــباه

لكل أرض أطيـار تغرد لهـا بين أرضها وسمـائها ، وجداولها وأشجارها ، ولكل جيـل شعراء يحملون لواءه بين شبابه وشيبه ويسـيرون بهم الى الغـايات فى أقطـار الكمال .

كان البـارودى يحمـل اللواء فى الوقت الذى كان صـبرى فيه يتعلم الرمايه . درج صبرى وشب فى أيام اسماعيل وكان يميل بفطرته الى الشعر والأدب وقد وجد فى بيئته وهو تلميذ مايساعده على تعاطى صناعة الشعر فكان من هذه الوجهة أسعد حظا من البارودى .[1]

---

(١) ولد المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفى فى الساعة نصف صباحا من ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بالغا من العمر ٦٩ سنة وشهرا ويومين . وكان دخوله فى المدرسة فى ٢١ جماد آخر سنة ١٢٨٣ هـ وخروجه من مدرسة الادارة بعد المبتديان والتجهيزية فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ أو ١١ شوال سنة ١٢٩١ أى فى الثامنة عشر من عمره وأرسل فى ١٧ مايو من السنة عينها تلميذا بالارسالية المصرية فى فرنسا حيث حصل فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٦ على شهادة الليسانس فى الحقوق من

بدأت فى ذلك العصر حركة أدبية مباركة محورها مجلة « روضة المدارس المصرية » التى أنشئت فى ١٥ محرم سنة ١٣٨٧ هـ . وكانت « تظهر فى الأسبوعين مرة واحدة » تحت ادارة رفاعة بك أوّلا ، ثم تولى شؤونها « ناظر قلم الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاعة بك » وكان آخر ظهورها فى سنة ١٢٩٤ هـ .

كانت هذه المجلة تصدر خصيصا للمدارس وكانت قبل «الوقائع المصرية» الصحيفة الأدبية الوحيدة التى تتبارى فيها أقلام الطلبة الناشئين جنبا لجنب مع أقلام فحول هذا العصر أمثال رفاعة بك ، والشيخ حسين المرصفى أستاذ البارودى والمدرّس بدار العلوم الخديوية الذى كان ينشر فى هذه المجلة دروسا فى الأدب ، وصالح مجدى ، وعبد الله فكرى ، ومحمد قدرى ، والشيخ حسين والى ،

= لمحكمة طنطا الابتدائية الأهلية فى ٣٠ ديسمبر سنة ٨٣ ، ورئيسا لمحكمة بنها الابتدائية الأهلية فى سنة ٨٥ ، ورئيسا لمحكمة اسكندرية الأهلية فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٦ ، وقاضيا بمحكمة الاستئناف الأهلية بمصر فى ٢٩ نوفبر سنة ١٨٩١ ، ونائبا عموميا من الحضرة الخديوية لدى المحاكم المذكورة فى ٢١ أبريل سنة ١٨٩٥ ، ومحافظا لثغر الأسكندرية فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ ، ووكيلا لنظارة الحقانية فى ٣ نوفبر سنة ١٨٩٩ ، واستقال من الخدمة لبلوغه المرتب الكامل لوظيفته فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧

و إسماعيل الفلكى وغيرهم فكان الشبان يجدون خير منشط لهم فى هذه المجلة التى كانت تنشر شعرهم وكانت لهم فى الوقت نفســه أستاذا يحتذون على مثاله :

نشرت « روضــة المدارس » فى عامها الأول فى عــدد غاية شوّال سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م قصــيدة «تهنئة بالعيد الأكبر لحضرة الخديوى الأعظم أدام الله علاه بقلم إسماعيل صبرى افندى» وكان عمره وقتئذ ستة عشر عاما :

سفرت فلاح لنا هلال سعود   ونمـا الغـرام بقلبى المعمود
وجلت على العشاق روض محاسن   فسقى الحياء شـقائق التوريد
قسما بنور جبينهـا وبخالهـا   وسواد شـعر واحمرار خدود
وبقوس حاجبها وسهم لحاظها   وبخصرها وقوامها والجيـــد
ليطيب لى فى حبهـا ذلى كما   فى مدح إسماعيل لذ نشــيدى

ومنهـا :

سمح تراه اذا حللت بحيـــه   أبدا يحن الى خصال الجـود

يبدو صبرى الكبير من هذا البيت كما يبدو قرن الشمس من خلل الغمام وقد بدأت تتفتق له المعانى الغريبة فيجتنيها ، وتتهادى أمامه الألفاظ العذبة فيقتنصها ، وهذه لفظة «حى» ستتنقل فى شعره من بيت الى بيت تنقل الأقمـار فى منازلهـا .

ومنها مخاطبا «آل مصر» :

هيا اجتنوا ثمر العلى من روضه وتفيأوا فى ظـله الممـدود

هذا البيت يبين لنا عن منتجع خياله ناشئا ، وقوله «يا آل مصر» يذكرنا قوله «يا آل ودى عودوا ...» والقصيدة فى مجموعها تقليد لكنه يشف عن شخصية فى طور التكون .

ونشر قصيدة أخرى فى ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١م) مطلعها :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

ونشرت «روضة المدارس المصرية» فى يوم السبت ١٥ الحجة سنة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧١ م) :

«تهنئة للحضرة الخديوية بعيد الأضحى من نظم إسماعيل افندى صبرى من تلامذة مدرسة الإدارة والألسن» :

لا والهوى العذرى والوجد عذل عذولى فيك لا يجدى

إنى مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والعهد

يا عاذلى أقصر وكن عاذرى ولا تطل لومى على سهدى

فشـعره مهـما تخيلتـه أظل أبكى فى الدجى وحدى

أفديه من حلو مليح البها تاه على الأغصان بالقـد

نشوان من خمر الكرى لحظه فى قتـلتى فاق على الحـد

ماس دلالا ورنا قائـــلا بيض الظبي والسمر من جندى

وقـــد تلـــبى وانثنى معجبـــا وقال لى كيف ترى قدى

وقال للـــورد أما تســـتحى مـــنى اذا فتحت فى خدى

تغزلى فيـــه ومدحى لمن رقى الى العليـــاء فى المهـــد

من مثل إسماعيل آراؤه باقيـــة تهـــدى الى الرشـــد

لقـــد عرتنى هزة حين وصلت الى قوله : «تاه على الأغصان بالقـــد» والى هـــذا الشطر الآخر : «وقال للورد أما تستحى» لأن كليهما ذكرنى صبرى الكبير، وانها لهزة كالتى تعرو الانسان حين يلقى رفيق صباه بعـــد طول بين واغتراب ويتفرس فى ملامحه حتى يعرفه لأيا بعد تـــوهم .

ويظهر أن صبرى بدأ من ذلك الوقت يحتل بفطنته وذكائه مكانة فى الأدب تسترعى الأنظار فقد نشرت «روضة المدارس» فى غرة شوّال سـنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٣ م . قصـــيدة أشارت اليها فى الفهرس بقولها «تهنئة عيـــدية من نظم حضرة إسماعيل صبرى افندى أحد نجباء الارساليـــة المصرية المقيمة بفرنسا لتعـــلم العلوم الادارية»، ومهدت لها فى الصحيفة التى نشرت فيها بقولهـــا : «قصيدة للتفنن فى فنون الأدب حضرة إسماعيل صـــبرى افندى» وهذا نص القسم الغزلى منها :

كلامكما ان كان مثـل سهام فقلبي كحصن لا يلين لرامى
اذا رمتما قتـلى بغـير لواحظ دعانى فدون القصد طول صدام
وان رمتما لى بالملام سـلامة أرفقكما يرضى صيال حسام
بروحى الذى لولا أغار من الصبا عليه لما أخرت عنـه سلامى
وسـقيا لدهر بالأمانى محجل أدرنا به للانس غـرة جام
فيازمنا ما خلتــه غير سـكرة مضـيك أبقى لى خمار غرام
إلام أقاسى ما أقاسى من الجوى ومن معشر هاموا بترك هيامى
وحتام يبدو ما أحب لناظرى ودون حصول القرب ألف محام
لعمرك ذا ظلم الحسين بعينـه أرى المـاء لكن لا يبل أوامى
أيا قلب كم تقوى لحمل الذى أرى ويا جفن كم تجفو لذيذ منـام
وكم يا فمى تفنى الزمان تغـزلا ومدح الخديوى فوق كل كلام

ألا تحس معى أن فى هذه الأبيات أثرا من آثار الحنين الذى يساعد على نضوج الشاعرية وأن كثرة المران جعلت شاعرنا يصيب الهدف فى هذا البيت :

فيا زمنا ما خلتــه غير سـكرة مضـيك أبقى لى خمار غرام

وفى هذا البيت الآخر :

أيا قلب كم تقوى لحمل الذى أرى ويا جفن كم تجفو لذيذ منـام

هذا ما وقفنا عليه من نشأة صبرى والذى يعنينا هو أنه كان يقول شعرا يشف عن سلامة الذوق وصفاء النزعة، وقد نشرت "الوقائع" فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٩١ م ١٣٠٨ ه قصيدة «لاسماعيل بك صبرى رئيس محكمة الاسكندرية» يهنىء بها الخديوى توفيق بعيد الجلوس مطلعها :

عش للعلا مولى وذخرا   واسطع بأفق السعد بدرا
هذا جلوسك عيده   ملأ الملا بشرا وبشرى
يوم بطالع يمنه   وجه الزمان غدا أغرا
ألبسته منا تهز   معاطف الأيام كبرا
واياب عباس كساه   جلاببا للحسن أخرى
حنت اليه تشوقا   مصر فعاد يؤم مصرا

وظهرت له حوالى هذه السنة قصيدة أخرى أذكر منها أبياتها الأولى :

لم يدر أن ملامه أغراكا   إذ لج فى بهتانه ونهاكا
ياحبذا عذل العذول لو آنه   داواك من ألم الهوى فشفاكا
قف بالديار وحىّ ربعا دارسا   لو يستطيع إجابة حياكا
وانثر دموعك فى ثراه صبابة   عل البكاء يزيل بعض جواكا

أترى تنال من البخيلة نظرة   تأسو جراحك أو تبل صداكا
مهلا أبا العباس فى طرق العلا   واستبق منها فضلة لسواكا
هل فى السماء فضيلة لم تحوها   تبغى لأجل نوالها الأفلاكا

هذا الشعر يبين عن بطء نضوج صبرى الذى بلغ سبعة وثلاثين عاما ولكنك تراه يقلد البحترى ويجرى فى غباره فى حين أن البارودى جود فى صباه ونضج قبل هذه السن ، وكان «أحمد أفندى شوقى أحد موظفى السكرتارية» فى ذلك العهد ينشر شعرا فى "الوقائع المصرية" يفضل هذا الشعر . لا أظن أن الأمر فى ذلك يرجع الى المحفوظ الذى يستمد منه بعض الشعراء قوة السبك فيسترون بها ضعف النفس الشعرى فى أوائل الشباب أو أواخر الكهولة ، أو يرجع الى الذوق الذى يقولون أن نضوجه يحتاج الى مران طويل ، واعتقد أن الأمر يتوقف من جهة على الاستعداد الفطرى ، ومن جهة أخرى على المؤثرات الخارجية فى الحياة ، وهذه عوامل قد يجهلها الشعراء أنفسهم أحيانا .

ويخيل الى أن صبرى فى هذه الشقة من العمر كان يفتح كتاب الوجود ويتلمس فيه الطريقة البكر التى لم يفترعها قبله شاعر ولكنه لم يهتد اليها إلا بعد أن حال لون النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب .

الفصل الثانى

سلامة الذوق

يجدر بنا قبل التكلم عن شعر صبرى أن نقول إن صبرى لم يلقب «بشيخ الشعراء» إلا لأنه جمع بين مزايا ثلاث : فضل السبق فى السنّ ، وفضل السبق فى قول الشعر والتبريز فيه ، وسلامة الذوق .

واذا كان لشعر صبرى وأغانيه أثر واضح فى تهذيب الأدب العصرى لغة وشعرا فقد كان لذوقه النقاد أثر لا عيب فيه إلا اختفاؤه عن أعين الجهال اختفاء الجدول العذب فى الفاف الغاب .

نشأ صبرى وهو تلميذ شاب فى وقت ارتقى فيه الذوق الأدبى وحسبنا أن نقول إن البارودى كان فى ذلك العهد قد جود فى الشعر وأن الشيخ حسين المرصفى أحد أئمة النهضة الأدبية فى مصر كان ينشر فصولا فى الأدب ما زالت منهلا صافيا يرده طلاب الأدب الى اليوم . ويظهر أن صبرى أحب شعر البحترى صغيرا لجفاء نظمه فى صباه نقى الديباجة حسن النسق يشف عن رقة فى الطبع والاحساس والذوق .

اذا أضفنا الى ذلك أنه أتم تعليمه فى أوروبا ودرس لغة الافرنج وأدبهم وأن العناصر الأولى التى ألف منها ذوقه قبل سفره كانت سليمة لا تشوبها شائبة أدركنا كيف امتاز صبرى على أهل عصره بذوقه وكان عمدة الشعراء والأدباء يأتمون برأيه .

كانوا جميعا يؤمون داره ، وكانت داره تذكرنا الأندية الأدبية فى القرن السابع عشر فى فرنسا ، تلك الأندية التى يرجع اليها الفضل فى تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة لأن السيدات كن فيها الآمرات الناهيات يحاسبن على كل لفظة ويتلطفن فى الخطاب .

أليس شوقى هو القائل :

أيام أمرح فى غبارك ناشئا نهج المهار على غبار خصاف
اتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قواف

ومطران :

أى صاحبى لقد قضى استاذنا البر الحبيب
فسرا قلادتنا وكا نت زينة الدنيا شحوب

وحافظ :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زهى وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فيما كتبه[1] :

«ولم يكن فى مصر ممن يحسن ذوق البيان و يميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وابراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعا . والبارودى يذوق بالسليقة وصبرى بالعاطفة والمويلحى بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة . وذلك شيء ركبه الله فى طبيعة صبرى ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره» .

ومما أذكره أننى عرضت عليه مرة قصيدة كنت نظمتها فى العام الهجرى ونشرتها جريدة المؤيد سنة ١٩١٢ فاستحسن منها هذين البيتين :

مضى العام مذموم الفعال مشيعا بأنة محزون ودمعة مشفق

فلا الغرب فى ساح اليقين بمهتد ولا الشرق من رق الاسار بمعتق

ثم قال لى : «أولى بك أن تنظم خمسة عشر بيتا من هذا الطراز بدلا من أربعين» ، من ذلك يتبين حب الرجل للاتقان . وكان كثير الاعجاب بشوقى ، يقول شوقى ينظم ، وحافظ يبنى ، ومطران

(١) المقتطف فى مايو سنة ١٩٢٣

يبتدع» ، ولما قال مطران قصيدته الميمية فى حرب طرابلس طرب وكاد يجن بها جنونا وكان ينشد منها هذا البيت مرارا :

يقول للعلم الخفاق فى يده فيئ من الأرض ماتختار ياعلم

وقابل مطران بعد ذلك فقال له : « لقد أسكرتنى ، أنك فت الشعراء بستمائة عام» .

ولقد كان صبرى يطالع قليلا كل مساء فى دواوين شعراء الافرنج ، وكان كلما طالع قصيدة عربية أو افرنجية استكرم ثم قطف . قرأت له ذات يوم قصيدة عينية للبحترى فأعجب أيما إعجاب بقوله :

لو أن أنواء السحاب تطيعنى لشفى الربيع غليل تلك الأربع
ما أحسن الأيام لولا أنها ياصاحبى اذا مضت لم ترجع

ومما كان يطرب له من شعر البحترى قوله :

وقفة بالعقيق اطرح ثقلا من دموعى بوقفة فى العقيق

وقوله فى الفراق :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل
قصرت مسافته على متزود منه لدهر صبابة وعويل

وقوله فى مرثية أبى سعيد :

فليهنأ الأروام بعدك إنهم
هدأوا بأطراف الدروب وناموا
امنوا وما امنوا الردى حتى انطوى
فى الترب ذاك الكر والأقدام

وقوله :

وبود العدو لو تضعف الجيـ ـش عليهم وتصرف الآراء

وكان يعجب بقول الآخر :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردى على فؤادى مثلما كانا
لابارك الله فى الدنيا اذا افترقت أسباب دنياك من أسباب دنيانا

وقول من قال :

لايهنئ الناس ما يرعون من كلأ
وما يسوقون من أهل ومن مال
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بالى

وقول ابن خفاجة :

يقابلنا الصباح ببطن حزوى فينكرنا ويعرفنا الظلام
فياظل الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام

وقول الآخر :

هات يا برق قل حديثك عن نجـ ـد حيا الإله عنى نجدا
قل وان كان ما تحدث زورا فلقد تبرد الأكاذيب وجدا

وكان اسماعيل رحمة الله عليه فى جميع حركاته وسكناته مثالا عاليا للذوق يتأنق فيها من غير كلفة وتصنع كما يتأنق الربيع فى إلباس الأرض حلة عروس .

ولا ريب أن الذوق من أكبر عوامل النهضة الأدبية واللغوية والاجتماعية لاسيما فى طور الانتقال ، وقد كان صبرى ذواقا لا يدانيه فى فن الذوق مدانى .

على أن ذوق صبرى الذى زاد صقلا ورونقا مع طول المران يتجلى فى شعر كهولته ، وهذا شعر خالد ذاع الكثير منه على كل لسان ، ومن تأمل فيه رأى دقة الصنع ، وصفاء الطبع ، وسمو الخيال .

الفصل الثالث

شعر الكهولة

بدأ شعر صبرى ينضج فى كهولته وقت أن كان البارودى فى منفاه، وكان شوقى فى صباه يجرى على الأثر « جرى المهار على غبار خصاف »، وقد نظم شوقى سنة ١٨٩١ م قصيدة فى مدح المغفور له توفيق باشا مطلعها :

مضى وليس به حراك　　　لكن يخف اذا رآك

جاء فيها :

ما همت فى روض الحمى　　　إلا وأسكرنى شذاك

والقلب مخفوض الجناح　　　يهيم فيه على جناك

جاراه صبرى بقصيدة مطلعها :

وجد يؤججه جفاك　　　ولظى تسعره نواك

ولكننى لم أعثر على هذه القصيدة و يقال أنها من شعره الجيد ولعلها أول أثر من آثار النضوج الشعرى عند اسماعيل .

وممـا يثبت نضوجه فى هذه الآونة قصيدة أخرى نشرتها له « الوقائع » فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٩٣ هنأ بها الخديوى عباسا بعيد الفطر، وكان وقتئذ «اسماعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف الأهلية» ، وهذا نص القصيدة :

بعلاك يختـال الزمان تبختـرا ... وبقدرك الأسمى يتيـه تكبرا
ومفاخر الآباء زاد جمالهـا ... كالروض حياه الربيع فنوّرا
حسب الديار ديار مصر اذا دجى ... ليل الخطوب بحسن رأيك نيرا
وكفى الرعيـة أن يقوم برعيها ... مولى يلذ بأن تنـام ويسهـرا
للملك سيف منك أحكم صقله ... وبدت بمتنيه خلالك جوهرا
شهدت سيوف الهند حين رأينه ... ان السيوف بمصر أكرم عنصرا
وعدت تقـر بأن ماضى حدّه ... قـد ردّ باترها المصمـم أبترا
عباس قد سست البلاد سياسة ... سيحدث التاريخ عنها الأعصرا
أنفذت حكمك بادها بمسائل ... دقت على الحكماء أن تتصوّرا
طربت لحكمتها الشيوخ وأذعنت ... فلو ان رسطاليس ثم لكبرا
زيفت قول المرجفين مبينـا ... للحق نهجا كاد أن يتنكرا
وبنيت سدّا من ذكائك دونهم ... فأريتنـا يأجوج والاسكندرا
ياصاحب النيل الذى جرت به ... مصر على البلدان ذيلا أخضرا (١)

(١) لا أظن القارئ بحاجة الى تنبيه الى ما فى هذا البيت من جمال التصوير .

حققت آمال البلاد وجزتها ... شأوا وما جزت الشباب الأنضرا
رامتك شبلا كى تعز عرينها ... فأبيت إلا أن تكون غضنفرا
همم اذا مدت لمفتخر يدا ... لا ترتضى إلا الأعز الأكبرا
وعزيمة ميمونة لو لامست ... صخرا لعاد الصخر روضا أزهرا
لله كيف ركضت فى طرق العلا ... فقطعتها حيث المجود قصرا
لو أن غيرك سالك هضباتها ... ورأى مجاهل سبلها لتعثرا
لكن جاشك لا يمكن منهجا ... يفضى الى العلياء أن يتوعرا
ياليت أصلا أنت خير فروعه ... يوما يرد الى الحياة لينظرا
ويراك تبنى المجد مثل بنائه ... وتذود عن حوض الجدود مظفرا
وتحير الدنيا بسيرتك التى ... قد سارها قدما فأكبرها الورى
يابن الذين سموا لأبعد غاية ... فتسنموا القنن الشوامخ والذرى
عزز بناءهم الذى قد وطدوا ... تشكر وشيده يشدلك مفخرا
وتول تذليل الصعاب فانها ... مرهونة حتى تقول وتأمرا
ان الذى جعل العزائم بعض ما ... أوتيت قدر أن تعان وتنصرا
لم يخلق الله الشهامة فى امرئ ... إلا لخير قد أراد ودبرا
ومغالب العقبات حتما غالب ... إلا اذا اطرح الثبات وأقصرا
بشرى فشهر الصوم أقبل باسما ... يهدى اليك من السلام الأعطرا
ويثيبك الأجر المضاعف راحلا ... اذ كنت أفضل من يثاب وأجدرا

شهر كما زنت الامارة ناشرا ... فينا لواء العدل زان الأشهرا
لله در نداكما فلقد جرت ... أيامه أجرا وكفك أبحرا
بشراك بالعيد السعيد فانه ... قد أم بابك راضيا مستبشرا
ورأى بناديك البهى مهابة ... كتبت على جنبات عرشك أسطرا
واهنأ فان لنا هناء طيبا ... فى أن تسر به وحظا أوفرا

هذه قصيدة بحترية صرف ، وهى من أصفى الشعر العصرى جوهرا ، ومن أراد أن ينظر كيف يحاكى الفرع الأصل فليتأمل هذه القصيدة ، وقصيدة «فرعون وقومه» ، وقصيدته التى هنأ بها المرحوم السلطان حسين حينما أسند اليه منصب السلطنة المصرية وقصيدته «الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانته جرحى الحرب البلقانية » ، وقصيدته التى قالها سنة ١٩١٤ فى « حفلة تكريم واصف بك غالى » ، وقصيدته التى قالها فى حرب طرابلس ، وقصيدته التى «عزى بها السلطان حسين بفقد والدته سنة ١٩١٧ ، وقصيدته التى هنأ بها الخديوى عباس سنة ١٩٠٨

على أن هذه القصائد ليست بحترية بأسلوبها وحده بل بالروح التى تشف عنها ، وهذا يدل على شدة تعلق صبرى بالبحترى ونسجه على منواله . وهذا البارودى قد نسج على منوال البحترى ولكنه لم يتعلق به تعلق صبرى بجاء شعره يحاكى شعر البحترى فى إحكام

الصناعة ، وصقل الديباجة ، ولكن تنقصه هذه الروح التى تطل من أوّل شطر فى قصيدة صبرى : " بعلاك يختال الزمان تبختراً " .

وأذكر مرة أن حافظ حدثنى فى الطريق عن البحترى والمتنبي فقال : «البحترى شاعر يفتح ذراعيه فى الطريق لمن يقابله و يأخذه بالحضن ، أما المتنبي فيجب أن تقف أمامه زمار وتضرب سلام» وهذا أحسن تصوير للبحترى وروحه ، وكذلك كان صبرى فى حياته وشعره .

✧ ✧ ✧

ولكن شخصية صبرى الحقيقية تتجلى فى خمس أو ست قصائد أخرى قصيرة وفى مقاطيعه التى ضرب فيها على وترين وتر الحكمة ووتر الوجدان . وقد وصف خليل مطران الطريقة التى يجرى عليها فى نظمه ، قال : «أكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها ، أو خبر ذى بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه .

ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ماتدعوه اليه فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشيا وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظة

« إيه » مستطيلة . ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر . شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى اذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه . وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش فى صدره الشعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمعة شاديين على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان ذلك هو الشعر للشعر » .

كان صبرى فى حياته ينزع كثيرا الى قول الحكمة ولكنه لم يوفق فيها كما وفق فى شعره الغنائى الذى امتاز به على جميع معاصريه بلا مراء .

ولا أعرف له فى الحكمة عدا المقاطيع إلا قصائد "الدواة" و "الساعة" و "نجم هالى" ومرثية أمين باشا فكرى : وفى هذه القصائد تنعكس الحياة وساعاتها والوجود وصوره كما تنعكس الطلول البوالى على صفحة البحيرة الصافية ، ولو أن الدنيا تمثلت شخصا لما خاطبها صبرى بأحسن من قول أبى تمام يخاطب عمورية :

ولا الخدود وان أدمين من خجل

أشهى الى ناظرى من خدك الترب

ذلك بأن صبرى شاعر جرّب الحيــاة وذاق حلوها ومرها واشتبهت عيناه فى وجوه الأمم والرجال التى حدق فيها طويلا فعلا وجهه منهــا ذلك الشحوب البادى وارتسم عليه ظل من الكا بة كانت تلطفه ابتسامة شفتيه، وهل صــور شاعر قبله الحياة بمثل قــوله :

وان تجد مــن بينها ساعة ... جعبتها من غصص خاليــة

فالله بهــا لهو الحكيم الذى ... لم ينســه حاضره ماضـــيه

وآمرح كما يمرح ذو نشــوة ... فى قلة مــن تحتها الهاوية

وهــل قال أحد فى الوجود وساكنيه مثــل قوله وهو من الأبيات الجامعة :

تعب الفيلسوف فى النــاس عصرا

وتولى السرائر الديــن عصرا

وقوله وهو من السهل الممتنع النادر :

عبر كلها الليــالى ولكــن ... أين من يفتح الكتاب ويقرا

ثم انظر كيف يخاطب نجم هالى :

هل تلقيت من لدن خاذل البا ... غى وحامى الضعيف يانجم سرا

أغدا تســتوى الأنوف فلا ينـ ... ـظر قوم قوما على الأرض شزرا

أغدا كلنا تراب ولا مـلـ ... ـك خلاف التراب برا وبحرا

أغدا يصبح الصراع عناقا ... فى الهيولى ويصبح العبد حرا
ان يكن كل مايقولون فاصدع ... بالذى قد أمرت حييت عشرا

أبيات تشف عن شغل الحكيم الشاغل فى هذه الحياة، عن ذلك المثل الأعلى للحرية والإخاء والمساواة الذى أراقت الأمم دماءها على بابه المنكود، ويريد شاعرنا أن يصل اليه من طريق الموت والعالم الأبدى .

وقد تجلى هذا الشغل الشاغل فى قصيدة " الدواة " حيث يقول :

واذا الظلم والظلام استعانا ... يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدا من الشرور مدادا ... فاجعليه من قسمة الظالمينا

وحيث يقول :

واذا كان فيك نقطة سوء ... كوّنت من خباثة تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا ... فى السياسات حرمة الأضعفينا

وحيث يقول للأتراك بعد الدستور :

الحق أبلج سلوا دون بيضته ... قبل السيوف سيوفا من براهين
لاتلبسوا ثوبه بين الأنام غدا ... ملوثا بدم القوم المساكين

ويدخل أيضا فى هذا المعنى قوله يخاطب عباس وقد صاغ

النصيحة فى قالب تقرير حقيقة واقعة وهذا غاية فى الأدب وحسن السياسة :

ياليت أصلا أنت خير فروعه يوما يرد الى الحياة لينظرا
ويراك تبنى المجد مثل بنائه وتذودعن حوض الجدود مظفرا

وقوله :

مستنجدا من بنى مصر الى شمم اذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا

ولا يفوتنا أن نقول ان فى بيت صبرى :

أغدا يصبح الصراع عناقا فى الهيولى ويصبح العبد حرا

لمشهدا من أجل المشاهد التى لا يمكن عينا أن تحيط بها . ويظهر أن شاعرنا مولع بالمشاهد الواسعة ، وهذه النزعة تتجلى فى قصيدة "فرعون وقومه" . من هذه المشاهد مايتناوله الحس كقوله :

وآزرته جماهير تسيل بها بطاح واد بماضى القوم ملآن

ومنها ما يتناوله المعنى كقوله فى وصف الاهرام :

كأنها والعوادى فى جوانبها صرعى بناء شياطين لشيطان

وقوله فيمن شادوها :

بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طى أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة فى الكون مابين أحجار وأزمان

ولعل أجود شعر قاله صبرى فى الحكمة كان شعر الحياة والموت ، قال رحمه الله يصف « راحة القبر » :

ان سئمت الحياة فارجع الى الأر ض تنم آمنا من الأوصاب

تلك أم أحنى عليك من الأ م التى خلفتك للأتعاب

لا تخف فالممات ليس بماح منك إلا ما تشتكى من عذاب

كل ميت باق وان خالف العنـ ـوان ما نص فى غضون الكتاب

وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالما للتراب

حدثنى حافظ أن هذا البيت الأخير أجود معنى قاله صبرى : ويخيل الى أن روح أبى العلاء تطل من كل بيت من هذه الأبيات ، أليس هو القائل :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ

ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

ولكن أبا العلاء ينظر الى الأرض نظرة أخرى تشف عن جوى باطن :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

ينظر اليها نظرة الشاعر الفرنسى « الفريد دى فينى » الى

الطبيعة فى قوله : «انهم يسمونك أما وما أنت إلا قبر» ، ونظرة شوقى فى قوله :

عقت بنيها ظاهرا وأظن باطنها أعقا

* * *

عند الإفرنج نوع من الشعر يدعى (Lyrique) نسبة الى (Lyre) وهى القيثارة ولا أدرى ما الذى يمنعنا من تسميته بالشعر الغنائى فان هذا الضرب من الشعر كان يغنى به فى القرون الوسطى وهو شبيه بالأغانى فى الشعر العربى .

وقد تفنن صبرى فى هذا الشعر الوجدانى ونظم فعلا للغناء أدوارا خاصة ، منها : (الفجر لاح قوموا ياتجار النوم) .

ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نغمات العود :

مذهب بياتى

قدك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهر
دا الحب كله أشجان يا قلب حاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر

دور

يا قلب أدنت حبيت	ورجعت تندم
وصبحت تشكى ما رأيت	لك حد يرحم
صدقت قولى ورأيت	ذل المتيم
ياما نصحتك ونهيت	لو كنت تفهم

دور

أعرض لحسنك أوراق	واكتب ودون
وأبات صريع الأشواق	واحسب واخمن
داهجر وصبابة وفراق	يا رب هون
وارحم قلوب العشاق	دا شئ يجنن

وشعره الغنائى أنواع منها النوع المتقدّم الذى جعل خصيصا للغناء، ومنها ما تتخلله نزعة دينية — وقد نظم لامرتين من هذا النوع ديوانين — مثال ذلك قول شاعرنا :

الى الله

يارب أين ترى تقام جهنم

للظالمين غدا وللأشرار

لم يبق عفوك فى السموات العلى

والأرض شبرا خاليا للنار

يارب أهلني لفضلك وا كفني
شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى
غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبي محنة
علمي بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التي تسع الورى
ألا تضيق بأعظم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل في الاستعطاف والرجاء ، وهي من أرقى الشعر الغنائي الذي يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة الى السماء كما تعلو الصلوات لله ، وما أكثر الشبه بين قوله :

ومر الوجود يشف عنك لكي ارى
غضب اللطيف ورحمة الجبار

وقول لا مرتين :

Et j'ai monté devant sa face.
et La nature m'adit passe.
Ton sort estsu blime, Il t'a vu.

«صعدت أمام وجهه الكريم ، فقالت لي الطبيعة سر في طريقك ، ما أعظم شأنك ، انه رآك» .

فأنت ترى كيف التقى الشاعران فى سمو الخيال وصفائه . على أننا اذا قلنا ان شعر صبرى الغنائى كان شبيها بالصلاة التى تذهب صعدا نحو السماء فقد كانت الطبيعة له معبدا ، وكانت المرأة فى هذا المعبد «تمثال جمال» :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده دون بعض ، واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج بين لجين ، عناء وشقاء
شدة تمضى وتأتى شدة تقتفيها شدة ، هل من رجاء
ساعفى آمال أنضاء الهوى بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلى قوم الهوى تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنته من معدات الهناء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر اذا حدثتنا ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى ، من كان هذا ثغره يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء

لا تخافى شططا من أنفس تعــثر الصبوة فيهـا بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنـا وارتضى آدابنـا صدق الولاء
فـلو امتـدّت أمانينـا الى ملك ما كدرت ذاك الصفاء
أنت روحانيـــة لا تدعى ان هذا الشكل من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للالا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيـا جنـاحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

نشرت هذه القصيدة لأول مرة فى "المجلة المصرية" فى يونيه سنة ١٩٠١ ، وهذا ما قاله خليل مطران بهذه المناسبة : « كانت الغزليات قبل الآن فيها ما يمس الآداب العمومية من ذكر القدود والنهود والفم والعناق ورقة الخصر وكثافة الردف ولقد كان هـذا من العام حتى فى قصائد المـديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الأذواق فى هذه الأيام وينكره علينا أدباء الغرب . وقد سئل صاحب السعادة المفضال اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل الى اللغة الفرنسوية وتجعل فى كتاب يؤلف الآن فى مختار الشعر العربى قديمه وحديثـه فجادت قريحتـه الوقادة بهـذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابة الوضع ولعلها أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربى والغـربى فى نظم الشعر .

يحب صبرى المرأة لأنها تمثل الجمال وهو ينظر اليها نظرة المصور الماهر الى دمية جميلة يجد فى جمالها ظلا يتزوى فيه من هجير الحياة :

ان هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء

وقد يفتن الجمال المصور أو الشاعر ويسمو به الى أعلى مراقى الخيال، فتتمثل المرأة كأنها قطعة من النور الإلهى هبطت على الأرض لتلقى عليها عزاء وسلاما. وهنا يقف الشاعر موقف العابد، وتصفو نفسه، وتعلو كقطعة من نور تلتقى بالأخرى ثم تتلاشيان تلاشى الموجتين على ساحل الفناء :

لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
فلو امتدت أمانينا الى ملك ما كدرت ذاك الصفاء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

وأعرف لصبرى أبياتا أرق من نسمات السحر، تكاد تبعث ميت الهوى، وتعيد أيام الشباب النضر، وتفجر الماء الزلال من الصخر، قال رحمه الله شاكيا مسترحما :

أبثك ما بى فان ترحمى رحمت أخا لوعة مات حبا
وأشكو النوى ما أمر النوى على هائم ان دعا الشوق لبى
وأخشى عليك هبوب النسيم وان هو من جانب الروض هبا

وأستغفر الله من برهة — من العمر لم تلقنى فيك صبا
تعالى نجدد زمان الهناء — ونهب لياليه الغر نهبا
تعالى أذق بك طعم السلام — وحسبي وحسبك ما كان حربا

أجل، كانت المرأة شغل فؤاده، وقد بلغ من تعلق شاعرنا بها أنه كان يراها فى حاضره، وكان يراها بعين الذكرى فى ماضيه، ومن ذا الذى يذكر روض الشباب ولا يذكر القمارى، فينشد :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده — حسناء مرهفة القوام فنذكر
تثب القلوب الى العيون اذا بدت — وتطل من حدق العيون وتنظر

وتارة :

أخفق فؤادى فما الذكرى بنافعة — ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا — حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

كان صبرى يرى المرأة فى صورة ملك، وقد يراها غيره فى صورة الدنيا التى قال فيها أبو نواس :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت — له عن عدو فى ثياب صديق

والتى قال فيها ابن المعتز: «وعد الدنيا الى خلف، وبعد أمانها الفجع، طواحة طراحة، آسية جراحة، كم راقد فى ظلها قد أيقظته، وواثق بها قد خانته، حتى يلفظ نفسه ويودّع دنياه» .

وكان يراها فى صورة ريحانة تحسد السماء من أجلها الأرض :

يا راحة القلب ياشغل الفؤاد صلى
متيما أنت فى الحالين دنياه
زينى الندى وسيلى فى جوانبه
لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة
من الرياحين حيانا بها الله
ان غاب ساقى الطلا أو صدّ لا حرج
هذا جمالك يغنينا محياه

أليس يخيل اليك أن هذا الشعر نغمات موسيقية هبطت علينا خلسة من السماء هبوط الندى فى ليلة من ليالى الربيع ، تلك نغمات تشف عن نفس محزونة تحن الى منازل الكمال فى ذلك العالم العلوى كما يحن غريب الدار الى الأوطان ، وهذا الحزن أكبر مميزات الشعر الغنائى ، شعر العاطفة والوجدان ، ولعل مطران أشار الى ذلك بقوله :

بلغ الحقيقة شاعر ما غره الوهم الكذوب
أوفى على عدن وما هو عن محاسنها غريب

كان شاعرنا يفتش عن الحقيقة وهى ظل الرجل فى دنياه كلما تبعها أمعنت فى الهرب ، قال من أبيات له يخاطب سيدة تدعى الكسندرا :

انثرى الدر يا سمية اسكنـ ـدر لا فض عقده فى فيك

وأميطى عن الحقيقة ما يحـ ـجب عنا جمالها من شكوك

والشاعر الغنائى أبدا يهيم فى وادى الغرائب ، ويتخذ الجمال ومظاهره فى هذه الحياة الدنيا سلما من ضياء يرقى به أسباب السماء . ذلك بأن أزاهير الأرض سريعة الذبول ، ونجومها سريعة الأفول ، وجمالها سريع الزوال كالنار لا تلبث أن تحور رمادا ، وهذا الرماد الذى يذوقه كل من أحب وجرب وعاش وشب فى حجر الجمال يحبب الى الانسان طعم العدم والفناء ، ويدفعه الى مناجاة الموت مناجاة الالف أليفه :

ياموت خذ ما أبقيت الأ يام والساعات منى

بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وقد حدثت لصبرى وهو محافظ الاسكندرية حوالى سنة ١٨٩٧ رضوض على أثر اصطدام القطار به فى طريقه الى القاهرة فظل غائبا عن الوجود خمسة عشر أو عشرين يوما . روى لى حافظ

أنه قابله بعد إبلاله فقال له صبرى مامعناه : «وددت أنى لم أفق فقد ذقت مرارة الوجود» .

على أن هذا الرجل الذى كان يحب فى الموت ذلك «المنقذ السماوى» ، كما كان يسميه لامرتين ، ما كان أشدّ جزعه كلما رأى الصراع القائم فى هذه الدنيا بين الموت والجمال ، ورأى البلى يغير على حسن الوجوه ، والفناء يدب فى مخضر الشجر .

وهل بكى شاعر حبه للطبيعة ، ووّد لو نزل منها مكان سمعها وبصرها ، وظل بين نحرها وصدرها ، حتى تواريه فى قبرها ، بمثل قوله يناجى سرحة الحى :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثلى فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك

ثم انظر كيف رثى ابنا صغيرا للشيخ على يوسف بأبيات ارتجلها يوم دفنه ، وقال عنها المؤيد انها "لصديق" من كبار الشعراء :

يامالئ العين نورا والفؤاد هوى والبيت أنسا تمهل أيها القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يا نعيمهما وفيهما اذ قضيت النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى ومن بكاء الثكالى السيل والمطر

قد كنت ريحانة فى البيت واحدة   يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ما كان عيشك فى الأحياء مختصرا   إلا كما عاش فى أكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة   فى ذمة الله بعـد القبر يا عمر

لم يجد المرحوم الشيخ على يوسف فى رثاء ابنه أفضل من نثر هذا الشعر لا سيما البيتين : « فى الحى قلبان ... وأعين أربع تبكى عليك أسى » . ذلك بأن صبرى أجاب فى بكاء هـذا الطفل داعية الجمال، وقد ذوى منه ذلك الفريع المتدلى فى دوحته .

وقصارى القول كان صبرى فى شـعره الغنائى ينشد الحب والموت والجمـال والصداقة فكان يجد فيها ريا للنفوس الظماء، وكانت الصداقة تنزل من نفسه منزلة الحب فقال :

ولما التقينا قرب الشوق جهده   شجيين فاضا لوعة وعتـابا
كأن صديقا فى خلال صديقه   تسرب أثنـاء العنـاق وغابا

ولا أرى رأى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى تعليقه على هذين البيتين : " وهذا المعنى على ابداعه فيه متداول وأصله لبشار — أظن — فى قوله :

وبتنا جميعا لو تراق زجاجة   من الخمر فيما بيننـا لم تسرب

فأبدع صبرى فى أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدعة جوهرة تتألق : على أنى لا أستحسن قوله « كأن صديقا » فما هذا بعناق الأصدقاء " .

وأرى اذا كان لا بد وأن يكون صبرى قد أخذ هذا المعنى من أحد قبله ، وهذا مالا أظن ، فقد أخذه من (Montaigne) « مونتينى » الفيلسوف الفرنسى فى القرن السادس عشر الذى قال فى موقف عناق : « وما كنت أدرى أكان هو أم أنا » (Je ne sais pas si c'est lui, si c'estmoi) يشير بذلك الى فناء الشخصين أحدهما فى الآخر .

ثم انظر الى دقة تصوير الذكرى التى تتمثل فى طيف الود وتتدخل بلطف بين الصديقين المختصمين فتكسر السهم والقوس :

اذا خاننى خل قديم وعقنى   وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى و بينه   فكسر سهمى فانثنيت ولم ارم

على أن هناك ضربا من الشعر الغنائى أجاد فيه صبرى ، ذلك هو حب الديار والأوطان ، قال الشاعر ڤرلين : « حب الوطن أول حب وآخر حب بعد حب الله » ، وقال صبرى : « أحب الحرية فى ثلاث : فى المرأة فى ظل زوجها ، وفى الرجل تحت ظل شريعته ، وفى الوطن تحت ظل الله » . وقد يكون هذا الحب

حنينا بحتا كقوله عن لسان شوقى وهو بالأندلس (وهى أبيات غير التى أرسلها شوقى اليه وقيل وقتئذ أن شوقى بعث بها الى حافظ) :

ياساكنى مصر انا لا نزال على ... عهـد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم ... شـيئا نبل به احشاء صادينـا
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما أبعـــد النيل الا عن أمانينا

وقد يكون هـذا الحب تقريعا مرا لبنى وطنه على القعود عن الذود عن حقوق البلاد ، ولكنه تقريع فى قالب هزلى تتجلى فيه تلك النكتة المصرية اللطيفة التى تشف عن دقة الملاحظة وخفة الروح[1] . أنظر الى قوله على أثر استقالة وزارة مصطفى فهمى عن لسان بعض أعضائها ، وقد نشرت هـذه المقطوعات فى أهرام ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، قال عن لسان «مصطفى» بتوقيع بنتؤور :

إننى أســـتغفر الله لكم ... آل مصر ليس فيكم من رجال

(١) نذكر بهذه المناسـبة أن المرحوم صبرى باشا نظم مقطوعات فكاهية كثيرة فى حوادث شخصية شتى منها ما نشر وعرف لوقته ومنها ما لا يعرفه إلا القليلون وذهب أكثره فى عالم النسيان . فمن النوع الأول ما قاله فى « مصفوع » :

انا نسل الأولى رفعوا بناء ... يرى للنسر فوق ذراه بيت
أريش يراعتى بمداد خبثى ... وانى لاح لى هـدف رميت
وان أحد تعرض لى بسوء ... وقفت وراء صدغى واختفيت

فل غربى ما أرى من نومكم ورضا كم بوجود الاحتلال
بح صوتى داعيا مستنهضا صارخا حتى تولانى الكلال
لم أجد فيكم فتى ذا همة إن عدا الدهر عدا أو صال صال
رحم الله وزيرا سامه قومه ما ليس يرضى فاستقال

وقال عن لسان عبانى :

ياجنود البر والبحر اشهدوا واسمعوا منى كليات فصاح
ذى يدى قد مزقتها لقم تجتنى من فوق أطراف الرماح
ذاك جسمى رسم الدهر على كل عضو منه أهوال الكفاح
انى عفت تكاليف العلى بينكم والعيش فى ظل الصفاح
رحم الله وزيرا عاملا ملئت فخرا يداه فاستراح

وقد يكون هذا الحب استنهاضا لقومه وحثا لهم على الاقتداء بمثل حى فى أمة من الأمم الحديثة الناهضة . مثل ذلك :

نشر شوقى فى " اهرام " ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨ قصيدة فى الدستور العثمانى جاء فى ختامها :

ياشعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها
نلت الذى لم ينله بالقنا أحد فاهتف لانورها وآحمد نيازيها
ما بين آمالك اللائى ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها

ثم كتبت الأهرام فى ٢١ ديسمبر سـنة ١٩٠٨ ما نصــه :

« لمـا وصل أحد أعلام الشعر عندنا الى ختام قصيدة شوقى التى نشرناها يوم الاحتفال بفتح مجلس المبعوثان جاشت قريحته وقال : لو أنصف شاعرنا الأمــير لأتم قصـيدته بعد قوله يخـاطب مجلس المبعوثان :

ما بين آمالك اللائى ظفرت بها ... وبين مصر معان أنت تدريها

بمـا أقوله على لسـانه ثم تنـاول القـلم وقال» (الأبيـات للصـبرى) :

يامصر سيرى على آثارهم وقفى ... تلك المواقف فى أسنى مجاليهـا

لا يوئسنك ما قالوا وما كتبوا ... بين البرية تضليلا وتمويها

إن يمنعوا الناس من قول فما منعوا ... أن ينطق الحق بالشكوى ويبديها

الحق أكبر من أن تستبد به ... يد وان طال فى بطل تماديها

ما ضيع الله ظلما أمة نهجت ... الى المفـاخر نهجا وهو هاديهـا

فقلدوا الأمة الكبرى وقد ركبت ... متن الفخار وكان الجد حاديها

تماسكت وهى شتى فهى واحدة ... فى القصد حين رأت كثرا أعاديها

يا آية الفخر هلا تنزلين كما ... نزلت ثم على مصر وأهليهـا

كيما نجر ذيولا منـك جرها ... من قبلنا الترك فى أوطانهم تيها

يا عابدين لأنت اليوم مصدرها ... وفى ذراك باذن الله موحيهـا

وقد يكون هذا الحب حثا لقومه على الاقتداء بأمة من الأمم الكبيرة فى الأعصر الغابرة ، وهل هنالك مثل أقرب الينا من أمة الفراعنة التى يخاطبها فرعون بقوله :

لا القوم قومى ولا الأعوان اعوانى

اذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

ولست ان لم تؤيدنى فراعنة

منكم بفرعون عالى العرش والشأن

ولست جبار ذا الوادى اذا سلمت

جباله تلك من غارات أعوانى

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا

فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

ولهذه القصيدة تاريخ لا يعرفه إلا القليلون ، ويجدر بنا أن نذكره فان خطر الموضوع لا يخفى على أحد . كان الأستاذ خليل مطران بعث بقصيدة دالية الى محمد بك مسعود بالمؤيد من سقاره على أثر زيارته لأهرامها ، جاء فى هذه القصيدة عن فرعون

شاد فأعلى و بنى فوطدا لا للعلى ولا له بل للعدا

مستعبدا أمته فى يومه مستعبدا بنيه للعادى غدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :

انى أرى عد الرمال ههنا خلائقا تكثر ان تعددا

مجتمعين أبحرا منفرعين أنهرا منحدرين صعدا

صفر الوجوه ناديا جباههم كالكلأ اليابس يعلوه الندى

أكل هذى الأنفس الهلكى غدا تبنى لفان جدثا مخلدا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التى تؤيد نظرية تخالف نظريته فنظم نونيته قائلا أن هذه البنايات لم تتم إلا على يد عمال كانوا يطلبون الاتقان الفنى إكراما للفن لا خوفا ولا طمعا . والحقيقة أن صبرى راعى فى نظريته مايسمونه «بالوجهة التاريخية الوطنية » ، أما مطران فقد نظر الى الوجهة العلمية التى يؤيدها التاريخ فان بناء الأهرام ما كان إلا سخرة أرهقت الملايين من المصريين وأثارت السخط فى البلاد مدة قرنين ، ونظر أيضا الى الوجهة الاجتماعية القديمة فان الظلم من شأنه إفساد الأخلاق التى لا تحيا الأمم بدونها .

على أن شوقى وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية فى قوله :

ولمن هيا كل قد علا البانى بها بين الثريا والثرى تتنسق

هى من بناء الظلم الا أنه — يبيض وجه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الأمم الملوك بمثلها — فخرا لهم يبقى وذكرا يعبق

وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نونية أخرى لم يسبق نشرها، وكان ذلك على أثر مشاهدته بعض الآثار ورؤية تمثال محفوظ لرمسيس الثانى فى الأقصر . وفى هذه القصيدة عاد مطران الى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره وأن الفراعنة نهضوا بمصر وان كان اعتقاد الشاعر أن ضررهم كان أكبر من نفعهم فى جانب شخصية الأمة وتكوينها الحر، قال مطران :

أكبر برمسيس ميتا لا يلم به — موت وأكبر به حيا الى الآن
لولا تماثيله الأخرى محطمة — ما جال فى ظن فان أنه فان
فى مصر عز فراعين فما بلغوا — بها مبالغه من رفعة الشان
ولم يتم لها فى غير مدته — ما تم من فضل اثراء وعمران
تخير الخطة المثلى له ولها — يعلو فتعلو به والخفض للشانى
ما زال بالقوم حتى صار بينهم — اله جند تحابيه وكهان
ورب سائمة بلهاء هائمة — تشقى وتهواه فى سر واعلان
يسومها كل خسف وهى صابرة — لا صبر عقل ولكن صبر إيمان
إن بات فى حجب باءت الى نصب — يلوح منه لها معبودها الجانى

فبجلت تحت تاج الملك مدميها وقبلت دمها فى المرمر القانى
مخلدا دون من قاموا برفعته من شوس حرب وصناع واعوان
مخالسا ذمة العلياء مضطجعا من مهد عصمتها فى مضجع الزانى
بحيث آب وكل الفخر حصته ولم يؤب غيره الا بحرمان
كم راح جمع فدى فرد وكم بذلت فى مشترى سيد أرواح عبدان

* * *

كلا وعزته فيما طغى وبغى وذل من قبل الضيزى باذعان
هم الذين على عسر بمطلبه قد اسعفوه باموال وفتيان
وهم على سفه دانوا بمن نصبوا فخولوه مدينا حق ديان
فيم الالى صنعوا انصابه درست رسومهم منذ باتوا رهن اكفان
وما لاسمائهم دون اسمه دفنت شعثا منكرة فى رمس كتمان
ليت البلاد التى اخلاقها رسبت يعلو باخلاقها تيار طغيان
النار أسوغ وردا فى مجال على من بارد العيش فى افياء فينان
اكرم بذى مطمع فى جنب مطمعه ينجو الاذلاء من خسف وخسران
يهب فيهم كاعصار فينقلهم من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطغاة إذا جلت اساءته فقد يكون به نفع لأوطان
فى كل مفخرة تسمو الشعوب بها تفنى جموع مفاداة لأحدان

كم فى سنى الكوكب الوهاج مهلكة
فى كل لمح لاضواء وألوان
لم ترق فى حقبة مصر كما رقيت
فى عصره بين أمصار وبلدان
لما رمت كل نائى الشوط ممتنع
بسابقين الى الغايات شجعان
الا ترى فى بقايا الصرح كيف مضوا
باوجه باديات البشر غران
وكيف عادوا ورمسيس مقدمهم
الى الربوع باوساق وغلمان

كلا الشاعرين فى قصيدته يستنبط عبر التاريخ وينظمها درسا نافعا لامته ، وكلاهما يجيب داعية الوطنية و ينتصر للحق والعدل وان اختلفت وجهتا نظرهما ، وهما متفقان فى جوهر الموضوع ، فى الاشادة بذكر عظمة مصر الغابرة ، وعظمة الفراعنة ، وتنبيه الخلف الى مجد السلف .



قلنا ان صبرى انفرد بالشعر الغنائى بين معاصريه ونزيد الى ذلك أن الفضل الاكبر فى ارتقائه الى هذا المنصب العالى فى الأدب

يرجع الى مقاطيعه التى حلق بها فى أعلى سماء، وتمتاز هذه المقاطيع بالروح التى تشف عنها، لا بالمعانى الغريبة أو الجديدة التى لا يفهم بعض الناس الشعر بدونها، تمتاز بتصوير العاطفة والوجدان تصويرا صادقا لا يشوبه تعمل، تصويرا يخاطب القلب قبل العقل ويرد الشعر الى نبعه الصافى الأول، وهل كان الشعر الا شعورا ؟ وهل كانت تقاطيع الأعاريض الا غناء .

وقد قال صبرى الشعر فتغنى به الناس، وكانت اذنه كما قال حافظ « تحس نبو الوتر » فارضى بذلك ذوقه، وارضى سجيته، وأرضى الشعر، وسيبقى شعره خالدا ما بقى فى مصر قلب يخفق وشعب يسمو الى العلياء .

الفصل الرابع

مختارات

فرعون وقومه

"لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى   اذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

ولست ان لم تؤيدنى فراعنة   منكم بفرعون عالى العرش والشان

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا   فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

ردوا المجرة كدا دون مورده   أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن

وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو   لا تتركوا بعدكم فخرا لانسان

أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم   لا يثن مستمعا عن طاعة ثانى

فالملك أمر وطاعات تسابقه   جنبا لجنب الى غايات احسان

لا تتركوا مستحيلا فى استحالته   حتى يميط لكم عن وجه امكان"

* * *

مقالة قد هوت من عرش قائلها   على مناكب أبطال وشجعان

مادت لها الأرض من ذعر ودان لها   ما فى المقطم من صخر وصوان

لو غير فرعون ألقاها على ملا   فى غير مصر لعدت حلم يقظان

لكن فرعون ان نادى بها جبلا ... لبت حجارته فى قبضة البانى
وآزرته جماهير تسيل بها ... بطاح واد بماضى القوم ملآن
يبنون ما تقف الأجيال حائرة ... أمامه بين إعجاب واذعان
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت ... على نظائره فى الكون عينان
ويشبهون اذا طاروا الى عمل ... جنا تطير بأمر من سليمان
برا بذى الأمر لاخوفا ولا طمعا ... لكنهم خلقوا طلاب اتقان

* * *

أهرامهم تلك حى الفن متخذا ... من الصخور بروجا فوق كيوان
قد مر دهر عليها وهى ساخرة ... بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ... ما يأخذ النمل من أركان ثهلان
كأنها — والعوادى فى جوانبها ... صرعى — بناء شياطين لشيطان
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة ... تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانى
فصغرت كل موجود ضخامتها ... وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا ... يثنى على القوم فى سر واعلان
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة ... بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وان فرعون فى حول ومقدرة ... وقوم فرعون فى الاقدام كفؤان
اذا أقام عليهم شاهدا حجر ... فى هيكل قامت الأخرى ببرهان
كأنما هى والأقوام خاشعة ... أمامها صحف من عالم ثانى

تستقبل العين فى أثنائها صور فصيحة الرمز دارت حول جدران
لو أنها أعطيت صوتا لكان له صدى يروع صم الانس والجان

* * *

أين الألى سجلوا فى الصخر سيرتهم وصغروا كل ذى ملك وسلطان
بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طى أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة فى الكون ما بين أحجار وأزمان
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهم العلم ذاك الجاهل الجانى
ويل له هتك الأستار مقتحما جلال أكرم آثار وأعيان
للجهل أرجح منه فى جهالته اذا هما وزنا يوما بميزان

* * *

وقال يرثى صديقه المرحوم أمين فكرى باشا :

وهبتك يا دهر من تطلب أبعد أمين أخ يصحب
طويت المودّة فى شخصه فأى وداد امرئ أخطب
وأى بديل له ارتضى وأى شمائله أندب
أمين انشد فى النوى وارعنى فبينى وبينك ما يوجب
أتذكر إذ أنت منى النياط من القلب أو أنت لى أقرب
وإذ نحن هذا لهذا أخ وهذا لذا ابن وهذا أب
ومن قال عنا من الناظر ين نديمى جذيمة لا يكذب

حسبت بأنك لى خالد فكان الذى لم أكن أحسب
أفى ذا الشباب وهذا الاها ب يموت الفتى الطاهر الطيب
ويودى الذكاء ويقضى الوفا ء وتردى الفضيلة أو تعطب
عجيب من الموت أفعاله وعتبى على فعله أعجب
بذا حكم الله فى خلقه لكل امرئ أجل يكتب
وجدت الحياة طريق المما ت وكل الى حتفه يسرب
ويعثر فيه الفتى بالشبا ب ويدلف بالعلة الأشيب
ويتعب بالزاد فيه الفقير وأهل الغنى بالغنى أتعب
ويشقى أخو الجهل فى جهله ويحرج بالعالم المذهب
موارد مشروعة للحيا ة فأى مواردها الأعذب
أتعلم عين الردى من تصيد ب وتدرى يد الموت من تضرب
ألما تكامل نور الأمين ن وتاه به الشرق والمغرب
وأوفى المكارم ما أملت وأعطى الفضائل ما تطلب
ودان له أمل فى الحياة وتم له فى العلى مأرب
طواه الردى علما فانطوى به أمل مقبل نرقب
فيا نائيا والهوى ما نأى وذكراه فى البال لا تعزب
هنيئا لدار تيممتها لقد زارها الملك الأطيب
وجاورها كوثر من خلا لك حلو مع الخلد مستعذب

تنعمت فيها وخلفتنى لدى منزل برقه خاب
وداد الصديق به حول وقلب الصديق به قلب
وصعب على الحرّ فيه المقا م ولكن هجرانه أصعب
ويا تربة حل فيها الأمين لأنت الفراديس أو أخصب
حسبت على رحمات الرحيم وجادك رضوانه الصيب
ولا زالت السحب منهلة وأنت لأذيالها تسحب
وروتك منى دموع تسيل تخامرها مهج تسكب

الساعة

كم ساعة آلمنى مسها وأزعجتنى يدها القاسيه
فتشت فيها جاهدا لم أجد هنيهة واحدة صافيه
وكم سقتنى المر أخت لها فرحت أشكوها الى التاليه
فأسلمتنى هذه عنوة لساعة أخرى وبى ما بيه
ويحك يامسكين هل تشتكى جارحة الظفر الى ضاريه
حاذر من الساعات ويل لمن يأمن تلك الفئة الطاغية
وان تجد من بينها ساعة جعبتها من غصص خاليه
فاله بها لهو الحكيم الذى لم ينسه حاضره ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة فى قلة من تحتها الهاوية
فهى وان بشت وان داعبت محتالة ختالة عاديه

عناقها خنق وتقبيلها كما تعض الحية الباغيه
هذا هو العيش فقل للذى تجرحه الساعة والثانيه
يا شاكى الساعات أسمع عسى تجيك منها الساعة القاضيه

الدواة

يا دواة اجعلى مدادك وردا لوفود الأقلام حينا فحينا
وليكن كالزمان حالا وحالا تارة آسنا وأخرى معينا
أكرمى العلم وامنحى خادميه ماءك الغالى النفيس الثمينا
وابذلى الصافى المطهر منه لهداة السرائر المرشدينا
واذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدا من الشرور مدادا فاجعليه من قسمه الظالمينا
واقذفى النقطة التى بات فيها غضب القاهر المذل كمينا
ليراع امرئ اذا خط سطرا نبذ الحق وارتضى المين دينا
واذا كان فيك نقطة سوء كونت من خباثة تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا فى السياسات حرمة الأضعفينا
واذا خفت أن يكون من الصحف ـر جلاميد ترجم السامعينا
فابخلى بالمداد بخلا وان أعـ ـطيت فيه المثين ثم المثينا
فاذا أعوز المداد طبيبا يصف الداء دائبا مستعينا
فامنحيه المراد منا وعرفا واستطيبى معونة المحسنينا

واذا مهجة الحمائم أسدت ... نقطة سترها الزكى المصونا
فاجعلها على المودّات وقفا ... وهبها رسائل الشيقينا
فاذا لم يكن بقلبك إلا ... ما أعدّ الاخلاص للخلصينا
فاجعليه حظى لأكتب منه ... شرح حالى لسيد المرسلينا

الفزع الأكبر

غاض ماء الحياء من كل وجه ... فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق فى الناس حتى ... كاد ردّ السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الأجدا ... ث وردا إن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلا ولو أدر ... ن ما فى الحشا لما قلن خيرا
عمرك الله هل إسلام وداد ... ذاك أم حاول المسلم أمرا
عميت عن طريقها أم تعامت ... أمم فى مفاوز الجهل حيرى
غرها سعدها ومن عادة السعـ ... ـد يواتى يوما ويخذل دهرا
فتجنت على الشعوب وشنت ... غارة فى البلاد من بعد أخرى
نسيت فى الصعود يوم التدلى ... والتدلى بصاعد الجد مغرى
تعب الفيلسوف فى الناس عصرا ... وتولى السرائر الدين عصرا
والورى طارد إزاء طريد ... وعقاب يمسى يطارد صقرا
وجيوش يفل من بعضها البعض ... وهضب كبرى تناطح صغرى
حاذرى ياذئاب صولة أسد ... منك أقوى نابا وأنفذ ظفرا

لا تنامى يا أسد إن ذئابا لم تنم من روابض الغيل أضرى
عبر كلها الليالى ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا
أنت نعم النذير يا نجم "هالى" زلزل السهل والرواسى ذعرا
ظن قوم فيك الظنون وقالوا آية أرسلت الى الأرض كبرى
إن يكن فى يمينك الموت فاقذفـ ـه شواظا على الخلائق طرا
هل تلقيت من لدن خاذل البا غى وحامى الضعيف يانجم سرا
أمحيط بكل شىء ومرد كل حى وتارك السهل وعرا
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر قوم قوما على الأرض شزرا
أغدا كلنا تراب ولا مُلـ ـك خلاف التراب برا وبحرا
أغدا يصبح الصراع عناقا فى الهيولى ويصبح العبد حرا
إن يكن كل مايقولون فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا

وقال يهنئ المرحوم السلطان حسين حينما أسند اليه منصب السلطنة المصرية :

اليوم آن لشاكر أن يجهرا بالشكر مرتفع العقيرة فى الورى
ان الامارة لم تزل فى أهلها شماء عالية القواعد والذرى
والتاج متصور عليهم يتقى منهم كبيرا للعلاء فأكبرا
والعرش إن أخلاه منهم ماجد ذكر الأماجد بينهم وتخيرا
أحسين حبك فى القلوب محقق قد أظهر الاخلاص منه المضمرا

فاحرص عليـه فهو ملك آخر إن شئت ملكا جنب ملك أنضرا

والملك آل اليـك يحذو خطوة شـوقا اليـك وان أتى متأخرا

لم يعـد فى مافات بابك ناسـيا بل وانيـا حتى يشب ويكبرا

عزى عن العبـاس أنك عمـه وأجل من ساس الأمور ودبرا

وأزال لوعة كل قلب بعـده ان الدواء لمـا به بك قـدرا

يا ناظر المـاضى وشاكر عهده والحال بين يديه أجمـل منظرا

هذى الحقائق باهرات فانتبه لا يلهينك طيف ماض فى الكرى

هـذا ابن إسماعيـل نجم طالع لهداية السارى فحى على السرى

الملك من يمناه فى يد حازم ان أورد الأقوام وردا أصدرا

والنيل لم يبرح على العهد الذى أخذته قبـل عليه ناضرة القرى

متهاديا بين البقـاع مناجيـا أرجاءها بالخصب يكتنف الثرى

والشرع بين الناس ناه آمر ما زال حكم الله فيـه موقرا

والبيت بيت محمـد قد شاده لبنيه لم يستثن منهم معشرا

والعم أكبر حكمـة ودراية بالأمر لو أن المكابر فكرا

حال اذا نظر الأديب جمالهـا شكر الاله وحقـه أن يشكرا

الشـعر الارتجـالى

أبى الجهل إلا أن يهز أريكة تقيهـا يد لله أن تتزعزعا

فمـا هز إلا كل قلب مروع يجاور قلبـا فى الربوع مروعا

يكاد إذ الأنبـاء رابتـه مرة | يسيل بوادى النيل كالنيل أدمعا
ومن كاد للعباس كيدا فانمـا | يكيـد الى مصر وأحبابها معا
ومن يسع فى مصباح نور لأمة | ير الله حول النور والناس أجمعا

* * *

قصيدة وجهها الى سمو الخـديوى عباس يوم عيـد جلوسه سنة ١٩٠٨ مهنئا إياه بالعيد وشاكرا له نعمة العفو عن المسجونين فى دنشواى ، وقد جاراه شوقى بقصيدة مطلعها :

أما العتاب فبالأحبـة أخلق | والحب يصلح بالعتاب و يصدق

وجاراه حافظ بقصيدة مطلعها :

سكن الظلام و بات قلبك يخفق | وسـطا على جنبيك هم مقلق

ونشرت مجـلة "فتاة الشرق" فى ذلك العهـد فصـلا لأحد الأدباء وازن فيه بين القصائد الثلاث .

وهذه قصيدة صبرى :

لو أن أطلال المنـازل تنطق | ما ارتد حران الجوانح شـيق
هل عند ذاك السرب أنا بعده | فى الحى من آماقنا نتـدفق
أو أن أضلعنا على ما استودعت | يوم الفـراق من الجوى تتحرق
أمنازل الأقمـار أهلك أسرفوا | فى النأى إسراف الغنى وأغرقوا
لو أنهـم قد أنصفوك منـازلا | ماحازهم فى الكون بعدك مشرق

*
* *

عيد الفداء الا سعدت ببلدة أمسى يحيط بها الجلال ويحدق
هلا رأيت بعابدين مع الملا ملكا خلائقه تضوع وتعبق
وجمعت من تلك الشمائل طاقة تزدان أياما بها وتخلق
ورجعت من نور الأمير مزودا حتى تعود وأنت زاه مشرق

*
* *

أحرزت يا عباس كل فضيلة وبلغت شاوا فى العلا لا يلحق
من ذا يجارى أخمصيك الى مدى وهواك سباق وعزمك أسبق
ان يرتجل عرف فأنت الى الذى لم يرتجله المالكون موفق
سدد سهام الرأى بالشورى يحط بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وافتح به ما شئت من باب أمامك يغلق
عوذت مجدك أن تنام وفى الحمى أمل عقيم أو رجاء مخفق
ولرب محل فى النهى متحكم قد كاد يخترم النفوس ويوبق
أرسلت فيه نظرة ضمن الحجى والعلم نصرتها وقلب مشفق
وأخذت رأى أولى النهى مستوثقا مستوزرا وكذا الحكيم يدقق
حتى اهتديت الى الصواب ولم يزل بين الصواب وبين رأيك موثق
وأهبت فابتكر النضار سحائبا تهمى وتفتقد المحيل وتغدق
ان أمرعت تلك الموات وأورقت فيها الرياض فانما لك تورق

*
* *

وأقامت عثرة قرية حكم الهوى | فى أهلها وقضى قضاء أخرق
ان أن فيها بائس مما به | وأرن جاو به هناك مطوّق
وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا | وقضاتهم ما ذاقهم أن يتقوا
ما زال يقذى كل عين ما رأوا | فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية | للناس طى صحيفة تتألق
نزلت ترفرف حول كاتب نصها | زمرا ملائكة الرضى وتحلق
شكرتك مصر على سلامة بعضها | شكرا يغرب فى الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل | ترمى الى أمر أجل وترمق
قانون دنشاواى ذاك صحيفة | تتلى فترتاع القلوب وتخفق
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر | والموت حول نصوصها يترقرق
ومضاجع القوم النيام أواهل | بمعذب يردى وآخر يرهق
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا | مادام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه | فالحلم أجمل والمكارم أليق

*
* *

لك مصر ماضيها وحاضرها معا | ولك الغد المتحتم المتحقق
والله عونك ان ركبت الى العلا | طرقا تضل بها الهداة وتفرق
والأمر أمرك لا يشاب بريبة | والحكم حكمك والإله مصدق

ياليل الصب

نشرت مجلة "الزهور" أبياتا ارتجلها أمير الشعر شوقى يعارض فيها الأبيات المشهورة التى مطلعها :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

وهى لأبى الحسن الحصرى الضرير المولود فى القيروان والمتوفى فى الأندلس سنة ٤٨٨ هجرية . فقال المرحوم صبرى باشا من الوزن والروى ، وهى أبيات نظمت للغناء :

أقريب من دنف غده فالليل تمرد أسوده
والتفت تحت عجاجته بيض فى الحى تؤيده
حرب عندى لمسعرها شوق ما زلت أردده
هل من راق لصريع هوى هل من آس يتعهده
حتى م يساوره كمد يبلى الأحشاء تجدده
والى م يصارعه ألم ان هم يقوم ويقعده
فى القصر غزال تكبره غزلان الرمل وتحسده
صفرت كفى منه ومضى وقد امتلأت منى يده
كم صغت التبر له شركا وقضيت الليل أنضده
وأشاور شوقى بل أدبى هل أقصر أم أتصيده
مولاى أعيذك من ضرم لا يرحم قلبا موقده

أدرك بحياتك من رمق ... ما بات هواك يهدده
قد بان الحب لذى عينين ... وهذا الشوق يؤكده
«شوقى» جودفى الشعروقل ... آمنت بأنك أوحده

* * *

وقال يرثى اسماعيل بك ماهر القاضى بالمحكمة المختلطة بالاسكندرية الذى توفى فى صيف سنة ١٩١٠ وكان رفيق صبرى فى المدرسة وعشير صباه :

أماهر كنت فيما مر أنسى ... فمن لى فى الليالى الباقيات
برغمى أن تقلص منك ظل ... وقانى حقبة لفح الحياة
وان نضبت خلال كنت منها ... أعب لديك فى عذب فرات
وان صفرت يمينى من وداد ... غنيت به ليالى خاليات
أخى ما حيلتى إلا سلام ... يزورك فى المساء وفى الغداة

* * *

دمعة على بطرس غالى فى أبريل سنة ١٩١٠

لهف الرياسات على راحل ... قد كان ملء العين والمسمع
لهف العلا قدعطلت من سنا ... بدر هوى من أوجها الأرفع
تبكى المروءات على بطرس ... ذاك الهمام الماجد الأروع
فتشت لما لم أجد مقلتى ... كفؤا عن الفضل ليبكى معى

فقيل لى قد سار فى إثره يوم دفناه ولم يرجع
يا مجريا دمع الملا أبحرا أدركهمو يا مرقئ الأدمع
يا نازلا بين وفود البلا آنستهم يا موحش الأربع
عينى فيك اليوم قبطية تروى الأسى عن مسلم موجع
يهيم من وجد ومن لوعة فى الجانب الأيسر من أضلعى
ويحفظ العهد كما شاءه أحمد سمحا واسع المشرع
يا من سقانى الجم من وده هذا ودادى كله فاكرع
يا حامل القلب الكبير الذى لم ينقض الميثاق قم واسمع

* * *

حرب طرابلس

بعض هذا الجفاء والعدوان راقبى الله أمة الطليان
قد ملأت الفضاء غدرا وجهلا وتسنمت غارب الطغيان
وبعثت السفين ترمى طرابلس بحرب مشبوبة النيران
تخرق البحر والمواثيق والعهد جهارا وذمة الجيران
سيرتها أضغان قوم لقوم سلموا من دناءة الأضغان
من رآها تجرى توهم أن القوم هبوا للثأر للأوطان
لا ورب الأسطول ما حمل الأسطول جيشا الى حمى الحبشان
ان قوم الطليان أحرص من أن يفضحوا مرتين فى ميدان

ليست الحرب للعدوّ الذى با ... ت عزيزا بالرجل والفرسان
إنما الحرب للأولى حفظوا العهـ ... ـد فنامت جيرانهم فى أمان
وأباحوا أبوابهم حاتميات ... لمن آمهم من الضيفان
وانالوهمو حقوق بنيهم ... فعل أهل المعروف باللهفان
ويجيهم ما اصطنعهم أبطر القو ... م فعقوا ما كان من احسان
ولماذا تمخض السلم عن حرب ... لظاها يشوى الوجوه عوانى
منتج قد بذرن فى شر أيد ... كن مذ كن منبت الكفران
هكذا قلتك المروءات فى عصـ ... ـر البهاليل من بنى الرومان
لايثق بعضنا ببعض وهذا ... ما أعد الانسان للانسان
ان تسلم على القريب فسلم ... فى ظلال السيوف والمران
ربما أصبح العناق صراعا ... فى زمان الآداب والعرفان

⁂

قصيدة ألقيت فى ٤ يونيو سنة ١٩١٤ فى فندق شبرد فى حفلة تكريم واصف بك بطرس غالى لما قام به من ترجمة الشعر العربى الى اللغة الفرنسية ترجمة صادقة لكتاب دعاه "روض الأزهار" .

وكانت حفلة التكريم تحت رعاية حضرة صاحب السمو الخديوى السابق عباس حلمى الثانى ، وأناب عنه فى الحضور رئيس الديوان العالى الملكى صاحب السعادة عثمان باشا مرتضى وكانت

الحفلة برئاسة الفقيد اسماعيل باشا صبرى بصفته رئيسا لزعماء الأدب :

أى صـوت حيتـه بالأمـ ـس باريس مقر العلوم والعلماء
من ترى ذلك الذى جملتـه حكمة الشيب فى ربيع الفتاء
ذلك الأسمر الذى بهر البيـ ـض مطلا من منبر الخطباء
وأماط اللثام عن أدب العر ب كرام الآباء والأبناء
بلسان ما اعتاد من قبل أن يخـ ـضع إلا لأهله من إباء

* * *

يا سجل الخلود افسح مجالا لاسمـه فى صحيفة الفضـلاء
وأر الأعصر الأواتى أن الـ ـذكر عمر مجمل الآناء
ذاك صوت ابن بطرس قد عرفناه بما هاجه من الأصداء
ألق بالسمع تستخفك منـه نغمة لم تكن لغير الوفاء
ذاك نجـم أطاعته يامصـ ـر فقـرى بنجمك الوضاء
وأحليه حيث تفتقد البـدر عيـون السراة فى الظلماء
كم له دون بيضة الشرق من غضبة حر وكم له من بلاء
كم له من مواقف هز عطف الـ ـحق فيها بالحجة البيضاء

* * *

ايه ياابن الأمجاد قمت بأعبا ء كبار والمجـد ذو أعبـاء

وأريت الأنام برذوى القـر بى ورأى الكريم فى الكرماء
فاستمع مايقال حولك ياواصـ ـف ذااليوم من ضروب الثناء
أن من طيب الثنـاء لزهرا تجتنيه مسامـع الأكفاء

* * *

وقال يرثى إسماعيل بك نجيب نجل صديقه المرحوم إبراهيم باشا نجيب .

الا ياتجار العصر هل فيكم امرؤ يبيع على صرعى الهموم عزاء
اذا دلنى منكم على مثـله فتى خلعت عليـــه مايشاء جزاء
ففى الحى قوم عاكفون على لظى تذيبهم البـلوى صـباح مساء
يخالهم الرائى سكارى من الأسى فيبكى عليهـــم رحمـــة ووفاء
لو انقلوب الناس طوع ارادتى قلبت الأسى فى بعضهن هناء
ولو طاوعتنى كل عين قريحـــة لمـا ذاب بعض الثاكلين بكاء
وعالجت ابراهيم ممـا أصابه وداهمـــــه حتى ينـال شـفاء
مصابك اسماعيل زعزع شامخا وضعضع طودا راسـيا وأساء
واودى بأمال كبار تصرمت برغم ذويك البائسين هباء
على قبرك المطــور منى تحيـة فقــد ضم غصـنا ناضرا وفتاء

* * *

بين الجد والفكاهة

استقالت وزارة مصطفى فهمى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وتألفت فى اليوم التالى وزارة بطرس غالى وأعضاؤها سعد بالمعارف ، ورشدى بالحقانية ، وسعيد بالداخلية ، وسرى بالأشغال والحربية والبحرية ، وحشمت بالمالية بدلا من نخرى . وعين خليل باشا حماد وزيرا للأوقاف . وقد نشر اسماعيل باشا صبرى على أثر ذلك بامضاء بنتاؤور مقطوعات كثيرة رسم فيها صورة لكل وزير قديم أو جديد ونشرتها جريدة الأهرام فى أيام مختلفة وإنا نختار منها ما يأتى :

وكالة الداخلية

ماهر السلطة فى مصرها صورة تسبى البرايا زاهيه
فاز بالأولى سعيد اذ جرى وتباطأت فحزت التاليه
لو تسرعت ووسعت الخطى نلت أولاها ونال الثانيه

النيابة العمومية

قد ألفت عصب اللصوص محاكما فى كل قسم
ورموك «ثروت» بالنباهة كلها وبكل علم
والعلم فى الحكام عند الجاهلين أجل جرم

فاحذرهم ان سرت فيهم سيرة اليقظ الأشم
عوفيت من قوم اذا قدروا خلوا من كل حلم

فى جوف الحيتان

أين صبرى من يذكر اليوم صبرى بعد أعوام عزله وشهوده
اسألوا الشعر فهو أعلم هلا أكلته الأسماك طى بحوره

فى المعاش

قلت ياصالح الق دلوك فى جملة الدلا
قال دعنى كما أشا أحكم اليوم فى الملا

مارتين باشا

ألا فاعذرونى ان قنعت من الورى بما حزت من فخر وما نلت من رتب
فما عن قلى فارقت سعدا وانما تفرغت بين الناس للعلم والأدب

شكور باشا

أين شكور هل العليياء فى جب نفته
أكلته البحيرة اليوم ترى أم شربته

سابا باشا

أين سابا أين سابا ياترى أين سابا ذو المزايا الباهره
قال لى قوم ثقات أنهم لمحوه فى مياه القاهره

اسكندر باشا فهمى

أصلب أنت قل لى حار أمرى ... اذا فكرت فيك وضاع حدسى

خرجت من الشريط ولم تهشم ... كأنك خارج من بيت عرس

* * *

الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانته بجرحى الحرب البلقانية :

لك الامارة والأقوام ما برحت ... بكل عالى الذرى فى الكون تأتمر

لو لم ترثها لما ألقت أعنتها ... إلا اليك خلال كلها غرر

ياابن الأولى لو أطلوا من مضاجعهم ... يوما عليك لقالو : ايه ياعمر

أعدت أيامهم فى مصر ثانية ... حتى توهم قوم أنهم نشروا

وسرت سيرتهم حتى كأنهم ... اذا خطرت بأرض مرة خطروا

لله درك كم نبهت من همم ... تثنى على أهلها الآصال والبكر

وكم تعهدت جرحى من أسود وغى ... ان يكشر الدهر عن احداثه كشروا

مستنجدا من بنى مصر الى شمم ... اذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا

مستهميا هاميا والنيل فى وجل ... من أن تجود به ايمانكم حذر

حتى تفاهمت الأرواح وادكرت ... ما بينها الأهل والخلان والأسر

وآذن البر بالسقيا وما فتئت ... منهم ومنك صنوف البر تنتظر

وحركت كل كف بالندى يقة ... حتى تعجبت الأنهار والغدر

والناس ان قام يستسق الكريم لهم سحائب الفضل بشرهم فقدمطروا
يأبى علاء سعيد أن يشابهه إلا ابن دوحته ان قام يفتخر
ما زال يحمده رائيك مدكرا والأصل بالفرع ان حاكاه يذكر

ذكرى الشباب

تمسى تذكرنا الشباب وعهده حسناء مرهفة القوام فنذكر
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما أوفى على قدر الكفاية يسكر
تثب القلوب الى الرؤوس اذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد فاذا دنت من نحرها تستغفر
ويزيد فى فمها اللآلى قيمة حتى يسود كبيرهن الأصغر

ساعة الوداع

أترى ، أنت خاذلى ساعة التو ديع يا قلب فى غد أم نصيرى
ويك ، قل لى متى أراك بجنبي راضيا عن مكانك المهجور
ساعة البين قطعة أنت قدّت للمحبين من عذاب السعير
لاتحينى روحى الفداء لماحيك غدا فى صحيفة المقدور

عبد بلا ثمن

يا من أقام فؤادى إذ تملكه ما بين نارين من شوق ومن شجن
تفديك أعين قوم حولك ازدحمت عطشى الى نهلة من وجهك الحسن

جردت كل مليح من ملاحته ... لم نتق الله فى ظبى ولا غصن

فاستبق للبدر بين الشهب رتبته ... تملكه فى أوجه عبدا بلا ثمن

* * *

وقال رحمه الله حين بعث شوقى بك الى الكاتب الكبير الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام بيتين وطلب اليه عرضهما على الفقيد ليبدى رأيه فيهما، فلما عرضهما عليه جادت قريحته بثلاثة أبيات فى معنى بيتى شوقى بك ثم بتحية منه .

بيتا شوقى بك

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويرمى عن مآقينا

ترقرق الماء فى دمع السماء دما ... غاض الأسى فخضبنا الأرض باكينا



جواب صبرى باشا

ياوامض البرق كم نبهت من شجن ... فى أضلع ذهلت عن دائها حينا

فالماء فى مقل والنار فى مهج ... قد حار بينهما أمر المحبينا

لولا تذكر أيام لنا سلفت ... ما بات يبكى دما فى الحى باكينا

يا آل ودى عودوا لا عدمتكم ... وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا ... أزهار أندلس هبى بوادينا

بين صبرى والشريف الرضى

سمع صبرى بيتى الشريف الرضى وهما :

أرى بعد ورد الماء فى القلب غلة إليك على أنى من الماء نافع
وإنى لأقوى ما أكون طماعة إذا كذبت فيك المنى والمطامع

فقال رحمه الله مجاراة له :

يا موردا كنت أغنى ما أكون به عن كل صاف إذا ما بات يروينى
عندى لمائك والأقداح طوع يدى ملأى من الماء شوق كاد يردينى

* * *

وقال فى الذكرى :

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

وكتب على صورة أنور ابن سليم سركيس :

هذا شبابك ياسليم تزينه تلك الخلال الغر والأخلاق
حاكاك أنور مثلما حاكيته فيما مضى فتبارك الخلاق
أنت الذى علمته نقل الخطى وأريته أن الحياة سباق

الكتابُ الثّالث

تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليا



مقدمة

رسالة من نابغة الأدب الأستاذ خليل بك مطران :

ناط بى الأستاذ محمد صبرى نخر تقديم محاضرته الشائقة التى أسماها بموضوعها وهو " تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا " للذين سيطالعونها مجموعة بين دفتى هذا الكتاب ، وهى تلك المحاضرة التى ألقاها على قسمين فى الجامعة المصرية فى يوم ١٠ و ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ ونشرتها على الأثر جريدة الاستقلال الغراء . فتلقيت دعوته بالاجابة عن رضى ، وليست الاجابة عن رضى شأنى فى كثير من مثل هذا التكليف لكننى كنت قد طالعت المحاضرة وإن فاتنى التمتع بسماعها فأعجبت بها ولهذا لم أخش سأما ولا تعبا من كتابة المقدمة .

الأستاذ صبرى — ويعرفه الجمهور المصرى حق المعرفة — خريج السربون أكبر معهد علمى أدبى فى فرنسا بل فى أوروبا ، وهو أيضا صاحب كتاب " الثورة المصرية " الذى صدر فى مجلدين بالفرنساوية وهذا السفر قد أتيحت لى مطالعته فوجدت فيه مصداق الأماديح المتنوعة التى تلقته بها جرائد فرنسوية متعددة وأدباء فرنساويون من علية القوم وجلة ذوى المكانة فى عالم

البيان والتفكير، على أن فيه داعيين آخرين للثناء على المؤلف : ذلك أن الأستاذ، بتبيينه للأجانب حقائق ما جرى فى تلك الأيام العظيمة بمصر قد خدم أمته فى وقت من أحرج أوقاتها خدمة لاتقوم بثمن، وانه بقوّة وطنيته المتدفقة فى كل نقطة وفى كل جملة من سفره تدفق السيل بباعث لا يواقفه شيء يعترض طريقه هو الاخلاص، كان قدوة ونعمت القدوة لمن فهم من فتيان قومه بكل جوارحه أن لا أمة عزيزة بلا وطن عزيز .

على أنه ليس هنا مكان التقريظ للأستاذ صبرى بأكثر من الالماع الى ماله من المنزلة التى كسبها بواسع عرفانه وصدق وطنيته معا ؛ وإنما أحب قبل الشروع فى الكلام على محاضرته، التى أجده حين يحرّرها مؤرّخا مدققا صافى الذهن شامل النظر للحوادث عجيب الفطنة للتماثلات منها جوهرا وان تخالفت عرضا، أن أعيد على ذهن من يقرأ هذه السطور شيئا من نفثات قلمه أديبا محض أديب .

وهنالك آية أخرى من آيات الذكاء المخدوم بالتحصيل المتدارك بالتهذيب، قال من مقال سبق نشره فى الأهرام الغرّاء سنة ١٩١٣ تحت عنوان "دقات الساعة" مايغنى تصفحه عن التعرّض لوصفه وقد ينقص الوصف أبلغ مايكون أشياء من معانى الموصوف قال :

«تنصف الليل ومر بعد وهنه ساعتان كما خبرتنا "ناعية الزمن"
فتذكرت قول مدرّس العربية منـذ ستة أعوام تجرمت وترادفت
ترادف الموج فى محيط السنين والأيام أن من أقسام المفعول المطلق
ما يكون بيانا لعدده نحو دقت الساعة دقتين .

«أجل ، كرر الأستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له وكم
دقت الساعة فى ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقاتها فى أذنى
كتغريدة الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع فى خمائل الشباب
النضر وما الشباب عندى إلا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد
ميدان الكفاح ولم نذق صاب الحياة ولا علقمها .

«وإنى لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية
وأنا كالدائرة التى مركزها الغرض وما الغـرض إلا القلب وسهامه
دقات الساعة يرسلها فتطيش وتحلو رنة القوس وهى تطلقها .

«أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعـد السعد
وشبنا من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان وجاء
زمن اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهما من
جعبة الآلام لا يشذ عن الرمية حتى إذا تبينت الخيط الأبيض من
الخيط الأسود ودرج الليـل فى أكفان الصباح أحسست بأن

فى فؤادى اثنى عشر سهما فوهبت الى نسمات الصبح زفراتى والى نداه عبراتى» الخ .

هذا مثال من بيانه الشائق فلنجل الآن الطرف قليلا فى المحاضرة ، أوجز الأستاذ صبرى تاريخ الحركة الاستقلالية الايطالية ايجازا قضيت له عجبا لأنه أوّل ماشاهدته من نوعه بلساننا العربى الشريف . من المتصدين للكتابة فيمن عرفت مجرم بلا عمد يقتل الموضوع بتلخيصه إياه ومنهم نصف بصير يبقى من الموضوع رمقا فى جزء أو أجزاء مما اتفق له تصوّره حق تصوّره . أولئك اتخذوا من التلخيص مطية لاركاب جهلهم أمام الجمهور مركبا علميا . وما لمثل هذه المهانة خلق التلخيص الذى هو كنه الأمر ولباب البلاغة . إنما التلخيص أو الايجاز أو التحصيل عمل القادرين المحيطين بالشيء يقتلونه علما لا جهلا ويدركون كلياته وجزئياته وينظرون على هدى أيا كان الجانب الذى ينظرون اليه منه فاذا وسع ذهنهم غرضا بكل مشتملاته واعتقدوا الفائدة فى تحصيله لحسن تمثيله صوّروه لك من عال فوجد المطالع فيه كل شيء ولكن مصغرا ولم يفقد الباحث عن جوهره شيئا مهما قل من ذلك الجوهر وأخذ منه كل على قدر قريحته وفهمه ، كذلك فعل صبرى فى تحصيله للحركة الاستقلالية الايطالية ووفق ما شاء حسن الأداء

تحصيلا . صاحب هذه المحاضرة إنما وضعها خدمة لمصر فيما يفهم بالبداهة لأنه ليس ايطاليا ولا يعنيه أن يجعل أسماء أعلامها الأحرار وأبطالها الكبار فى نظر المصريين يتغنون بها لغــير ما طائل يحلى به سوى تمجيد قوم غرباء عنهم ولكن من كياســة صبرى أنه لم يمتن على أمتــه بنيته هــذه بل كد وجد ودارس وراجع وحرر كتابا قيما ممتعا مشوقا الى الاســتقلال الصحيح مغريا بعظائم الأخطار مهوّنا على النفوس تحمــل المشاق مهما طال بها الأمد دون الوصــول الى الضالة المنشودة ، حرره ليأخذ منه كل مصرى بلا سأم من امتداد المطالعــة ولا غرق فى البحر الخضم من الأخبار التى لا تهمــه كل ماينفعه الالمــام به ويكون له مرشدا ومسعدا فى طريقه الى غايته الوطنية المصرية دون سواها وبهذا قد أحسن صبرى احسانا ثانيا .

حشر صبرى جلائل الحوادث فى سلسلة متصلة محكمة الربطة ولكنه لم يفته التفصيل حيث للتفصيل قيمة الأمر الكلى بل رب جزئيــة فاقت أعظم الكليات ونزلت من عهد تاريخى بتمامه منزلة اللفظة الخاصة التى يهبط بها الالهام من عامة الكلام وههنا سأضرب مثلا بنقلى سيرة يجدر بها أن تقدّم فى سير الأبرار بأوطانهم ، قال يذكر واقعة جرت لشابين ايطاليين كانا فى البحرية النمســوية أوائل أيام الثورة فى بلادهمــا وإبان النهضة التى نهضها مازينى بتلك البلاد .

«وقد حدث أنه فى عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان فى البحرية النمسوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازينى وجمعيته وكانا يعتقدان أن ايطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فآليا على نفسهما أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الآبنين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضدّ القوة الغاشمة .

«وعبثا حاول مازينى أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما، وما عتما أن اتجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلاغها سرا الى حكومة نابولى التى أخذت أهبتها .

«وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « فلتحى ايطاليا ! »، وقد كان لهذا الهتاف صدى ردّدته ايطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء الوطن» .

أما لغة المحاضرة فقد جعلت كما هى فى السطور الآنفة سهلة قريبة التناول شفافة الظواهر عن أبعد البواطن يتبين القارئ من خلالها المقاصد بلا إعمال روية ويتأثر بمؤثرات المحرر كأن احساسهما بالبداهة مشترك وتلك غاية فى البلاغة وما البلاغة إلا مطابقة الكلام لمقتضى المقام ».

مصر فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٢ خليل مطران

الباب الأول

عصر النهضة والثورات

١٨١٥ — ١٨٤٨

ابتدأت الحركة الاستقلالية الكبرى فى ايطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر وبلغت غايتها فى سنة ١٨٧٠ ، وهذه الغاية كانت تنحصر فى تحقيق وحدة ايطاليا وطرد دولة النمسا المحتلة .

أما الطرق فكانت ثلاثة : الثورة ، والحرب ، والسياسة .

والأسباب التى ساعدت على تحقيقها :

(١) انتشار مبادئ الثورة الفرنسية .

(٢) وجود ما يمكن تسميته بالوحدة الروحية التى هى مادة الشعور القومى : فاللغة واحدة ، والدين واحد ، والعوائد واحدة ، وذكرى الماضى العظيم الذى يحن اليه واحدة .

(٣) وجود ولاية كبيرة مستقلة تحكمها أسرة قديمة وطنية

مستقلة هى ولاية سردانية المكونة من : بيمون ، وسافواى ، ونيس وجزيرة سردانية .

(٤) وجود زعماء كبار فى ميدان الفكر وفى ميدان العمل .

فى ميدان الفكر : دانت ، الفييرى ، دازجليو ، روسيتى ، مانزونى ، جيوبرتى .

فى ميدان العمل : مازينى ، كافور ، جاريبلدى ، فكتور عمانويل .

(٥) وجود محالفات أجنبية وأهمها محالفة نابليون الثالث .
ويمكن تقسيم الطريق الذى قطعته الحركة الاستقلالية الايطالية الى مرحلتين :

الأولى منهما بين ١٨١٥ — ١٨٤٨ ، تغذت فيها الحركة بالنهضة الفكرية الشعرية الجديدة التى كانت تبعث ميت الأمل فى ظلمة اليأس ، وبالحركات الثورية فى أنحاء ايطاليا المختلفة وما صحبها من سفك دم ، من نفى وسجن وتعذيب ، ولقد كان مازينى فى هذا الطور الأول ، طور شباب الحركة ، الزعيم الأكبر الذى يشخص ويلخص الوجهة الفكرية الوجدانية الخيالية (Romantique) من الحركة والوجهة الثورية منها .

أما المرحلة الثانيــة بين ١٨٤٨ — ١٨٧٠ فقد تغذت فيهــا الحركة بالاصلاحات النافعة وبالحروب النظامية .

وقد كان كافور فى هــذا الطور الثانى ، طور كهولة الحركة ونضوجها ، الزعيم الأكبر والسائس المحنك الذى يشخص الثورة العملية المنظمة التى تخــدع أعين الرقباء وتمشى خفية فى طــريق الاصلاحات والتعمير ثم تخرج منه بجأة فى صورة حرب .

الفصل الأول

ايطاليا لغاية مؤتمر فينا

كانت إيطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر كألمانيا مقسمة إلى ولايات نتجت من تفكك الامبراطورية الرومانية فى القرون الوسطى، وكان معظم الولايات فى الشمال وفى الوسط فى قبضة النمسا : لومبارديا، وبارم، ومودين، وتوسكانه، وكان لها فوق ذلك حماية مستترة فى بعض الولايات الأخرى ، وأكبر حكومة وطنية مستقلة فى ذلك الوقت حكومة سردانية وأهم أجزائها بيمون .

بيمون واقعة فى الشمال الغربى من إيطاليا تحت سفح جبال الالب، أهلها أشداء كسكان الجبال يحبون العيشة الخشنة بين ممارسة الحروب، فهم جند مدربون، وبين تعهد أشجار الكرم والتوت .

وكان عدد سكان مملكة سردانية يربو على الثلاثة ملايين وعاصمتها تورينو من أجمل العواصم، وكان الملك يختار حاشيته وكبار الوزراء والموظفين والضباط من الأشراف فكانوا طوع بنانه .

وكان الكهنة والقساوسة أصحاب الثروة الآمرين الناهين مع الأشراف فى بيمون ، لهم اليد العليا على المدارس والتعليم ، ولهم محاكم خاصة مستقلة تفصل فى كل الأمور المتعلقة بالزواج والمسائل الدينية ، وقد بلغ عددهم فى بيمون وحدها ٢٠,٠٠٠ قسيسا ، و ١٢,٠٠٠ راهب وراهبة ، وكانت فى ايطاليا حكومات أخرى مستقلة غير حكومة سردينية ولكنها لم تكن حكومات قومية ، مثل ذلك :

حكومة البابا فى الولايات المسماة "ولايات الكنيسة" وهى مارش ، والرومانية ، والابروز فى شرق وسط ايطاليا ومركزها روما ، وكان البابا رئيسا دينيا عاما للكاثوليك الطليان والنمسويين والفرنسيين وغيرهم على السواء فكان يتأثر بارادة حكوماتهم جميعا ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد فانه لم يكتف بالسلطة الروحية بل وضع يده على السلطة المدنية وجعل الحكومة دينية بحتة فى جميع مظاهرها فكان جميع الوزراء والحكام والموظفين من رجال الدين ، حكومة هذا شأنها موزعة بين مسائل الدين ومسائل الادارة ما كانت لتعنى بترقية الشعب بل أكبر همها الاستئثار بالسلطة والمحافظة عليها وجباية الأموال فانتشر الفساد خصوصا فى روما وامتلأت الطرقات بآلاف الشحاذين والكسالى والعاطلين .

فلا عجب ان رأينا بيمون فى الشمال — بفضل وجود حكومة قومية فيها ووجود طبقة من الشعب نشيطة بين الأشراف والفقراء تشتغل بالزراعة والصناعة والتجارة وتعطى أفضل الجند — قد أصبحت محور الحركة الوطنية فى المبدأ والنهاية، بينما كانت حكومة روما حتى آخر لحظة العقبة الكأداء التى تعوق الحركة عن اتمام دورتها .

أما فى الجنوب فقد كانت ولاية نابولى وصقلية أكبر ولاية مستقلة ولكن الأسرة الحاكمة كانت أجنبية اسبانية . وزيادة على ذلك فان أرضها كانت أقل خصبا من أرض بيمون الشمالية وأهلها أقل جلدا على الحروب ودراية بها، وأقل علما ونبوغا .

تلك مجمل حالة ايطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر قبيل الثورة الفرنسية، كانت ايطاليا فى مجموعها كمعظم دول أوروبا فى ذاك الوقت ساكنة خامدة كأنها فى ذهول، والصفة الوحيدة التى امتازت بها هى كما يقول المؤرخ بيترأورسى : « الولع بالتمثيل والفنون والآداب ولا سيما الموسيقى »، وقد استخدم الفييرى (١٧٤٩ — ١٧٠٣) وهو من نبغاء بيمون الروايات التمثيلية ليوقظ شعور الطليان بقوميتهم بين عظمة الماضى البائدة وعظمة المستقبل المأمول .

*
* *

وبينما كانت ايطاليا على تلك الحال مكسالا ترتع بين الدين والجهل غافلة تلهو بالشعر والناى إذا بالثورة الفرنسية تعلن على ملأ العالم حقوق الانسان وحقوق الشعوب، ولا شك فى أن أثرها كان عظيما فى الحركة الايطالية، وكذلك أثر غزوات نابليون (١٧٩٦ — ١٨٠١) والاحتلال الفرنسى الذى انتهى فى سنة ١٨١٤ وتلك هى أهم أسباب ونتائج الانقلاب الذى أحدثه فى ايطاليا الثورة والاحتلال :

(١) كثرة الحروب بين نابليون والنمسويين وما صحبها من انتصارات وهزائم أحدثت هزة عامة نبهت الشعور القومى لاسيما وان الفرنسيين أثناء حروبهم كانوا يعدون الطليان بالحرية والاستقلال، وقد تكونت وقتئذ فى ايطاليا أحزاب صغيرة ثورية فى ولايات مختلفة ضد الحكومات المحلية، طالبة قسطا من الحرية والاصلاحات، معتمدة على مساعدة الجنود الفرنسية لها كما حصل فى روما سنة ١٧٩٧ حيث أعلنت "الجمهورية الرومانية".

(٢) ا — ضم الولايات الآتية للامبراطورية الفرنسية : بيمون التى كانت مستقلة — وقد هربت الاسرة الوطنية الحاكمة فى جزيرة سردانية — وجنوى، وتوسكانة، وبارم، وروما.

(ب) تكوين مملكة فى شمال ايطاليا من فنيسيا ، ولومبارديا ومودين ، والرومانيـة ، ومارش دعيت "مملكة ايطاليا" وعين أوجين بوهارنيه زوج ابنة نابليون حاكما لها .

ويلاحظ أن الموظفين فى جميع الولايات التى ضمت لفرنسا كانوا فرنسيين ، أما فى «مملكة ايطاليا» فكانوا وطنيين ، لا ريب أن اندماج خمس ولايات فى هذه المملكة الجديدة ووضعها لأول مرة تحت نظام ادارة عامة موحدة مستقلة بالفعل أكبر مثل محسوس مشجع للحركة الايطالية على تحقيق الوحدة والاستقلال .

(٣) تغيير مظاهر الحياة الاجتماعية ونظمها بفضل :

(أ) الغاء امتيازات الأشراف والقساوسة وتقرير مبدأ المساواة .

(ب) حلول مجموعة القوانين المدنية الفرنسية محل آلاف القوانين والعوائد المتناقضة فى البلد الواحد وفى البلدان المتفرقة .

(ج) وضع نظام واضح للضرائب .

(د) تنظيم الادارة وتوحيدها .

(هـ) انشاء الطرق والجسور وغير ذلك من الأعمال.

المـادّية الكبرى الحديثة التى ساعدت على إنماء الرفاهية والثروة .

(و) الاهتمام بالتعليم ونشر المدارس واخراجها من يد القساوسة وتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة .

ولكن فداحة الضرائب التى كان يجبيها الفرنسيون وموت عشرات الآلاف من الطليـان الذين حاربوا قسرا فى صفوفهـم فى بلاد بعيدة وماتوا ضحية قضية لا يهمهم أمرها — قتـل منهم نحو ٦٠,٠٠٠ فى حروب روسيا واسبانيا — ولّدا فى نفوس جميع الطبقات من قسس وأشراف وفقراء وغيرهم كراهية الحكم الفرنسى .

على أنه من العدل أن نقرر أن هذا الحكم قد أتى بالخير العميم ، وحسبه أنه ساعد على تكوين « حياة قومية » جديدة باعتراف المؤرخ المعاصر سيزار بلبـاؤ إذ قال : « إنه مذ ذاك العهـد بدأ النـاس ينطقون بحب وفخار أكثر من ذى قبل اسم ايطاليـا » ، و باعتراف مازينى إذ قرر «أن النهضة الفكرية ونماء الرفاهية الوطنية والشـعور بالاخوة الذى تولد من المحاربة جنبا لجنب ، كل هـذه حقائق أصبحت متجلية خصوصا بين سنة ١٨٠٥ و١٨١٣ ، ورغما من تبعيتنا للامبراطورية الفرنسـية وخضوعنا للاستبداد السياسى والحروب القاسية فان شعورنا بقوميتنا الذى تمثل فى جيشنا الباسل

تقوى عزائمنا ورسم لنا على البعد وحدة ايطاليا التى هى غاية الجميع فى جهادهم » .

ظهور هذه الحياة القومية يعدّ أكبر ثمرة للاحتلال الفرنسى فى إيطاليا ، وقد انتهى فى سنة ١٨١٤ ، وكان الحلفاء وقت محاربتهم لنابليون يعدون الطليان بالحرية والاستقلال فلما ابتسم لهم الدهر ونفى نابليون فى جزيرة إلبه قلبوا لهم ظهر المجن فما كان من أحرار الطليان إلا أن اتصلوا بنابليون فى منفاه طالبين إليه العودة لبناء وحدتهم بسيفه ، ولما هرب نابليون من منفاه جازف مورات وهو حاكم نابولى ومن أشهر قواد نابليون ، فألقى دلوه فى الدلاء وسار بجيشه إلى الشمال لمحاربة النمسا ونادى فى طريقه باستقلال ايطاليا ولكنه لقى الهزيمة والموت .

مؤتمر فينا — بعد عودة نابليون حدثت موقعة واترلو الشهيرة ونفى نابليون ثانية فى جزيرة سانت هيلين فاجتمعت دول النمسا وانجلترا والروسيا وبروسيا وفرنسا فى مؤتمر فينا لتقرير المصير فى خريطة أوروبا التى كانت الثورة الفرنسية وحروب نابليون سببا فى تحويرها وتبديلها .

وكان ممثل النمسا الوزير الأول مترنخ من أكبر أعداء الثورة وأنصار النظام فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والمراد

بالنظام بقاء البلاد على ماهى عليه من ظلم واستبداد لا سيما فى الولايات التى تتكوّن منها النمسا .

وكان غرض مؤتمر فينا الأساسى فيما يختص بايطاليا هدم نتائج الثورة الفرنسية وارجاع الحال إلى ما كانت عليه قبل الثورة (Restauration) فاقتضى ذلك تجزئة ايطاليا ثانية وتوزيع ولاياتها بين أسرتى الهابسبورج النمسوية و البوربون الاسبانية ووضعها ثانية تحت سلطان الأمراء والأشراف والاكليروس والبوليس ، وهذه أهم نتائج المؤتمر :

(١) استردت بيمونت استقلالها لأنها كانت عونا للحلفاء فى حربهم ضدّ نابليون .

(٢) كسبت النمسا :

(أ) امتلاك ولاية لومبارديا وحل مملكة ايطاليا .

(ب) نشر نفوذها بواسطة أمراء نمسويين فى توسكانة ، مودوين ، و بارم .

(ج) تعهد فرديناند — وهو من أسرة البوربون وحاكم نابولى الجديد — بأن لا يمنح شعبه حرية أكثر من الحرية التى تتمتع بها ولاية لومبارديا النمسوية .

وبالاجمال بسطت النمسا نفوذها من جديد على ايطاليا .

ولكن المؤتمر ارتكب غلطة كبرى إذ اتبع رأى مترنخ الذى كان يعد ايطاليا « شكلا جغرافيا » ولم يقم وزنا لمبدأ القومية الذى أعلنته الثورة الفرنسية وبدأ يتأصل فى الأمم كافة وفى الطليان .

وارتكب الملوك والأمراء الذين رد المؤتمر اليهم عروشهم التى ثلتها الثورة الفرنسية والاحتلال الغلطة عينها فلم يحسبوا حسابا لتطور السكان، وكان أكبر همهم هدم ماشاده الفرنسيون من عمل نافع والرجوع بالبلاد إلى الوراء . بلغ من حنقهم على الفرنسيين أن دمرت "حديقة النبات" فى تورينو لأنها من صنع الاحتلال الأجنبي، واضطر المجلس البلدى الى بناء كنيسة فوق الجسر الممتد على نهر البو حتى لايكون نصيبه الهدم وهدمت فى روما مصابيح الاضاءة لنفس السبب .

ولم يكن من الطليان بعد أن ذاقوا بعض ثمار الحرية إلا التفكير فى أمرين :

(أولها) طرد الغاصب النمسوى الذى ينشر بينهم العيون ويحكمهم بالبوليس والقوة الغاشمة .

(ثانيهما) التخلص من ظلم الأمراء الأجانب أو الوطنيين الذين يحولون بينهم وبين التمتع بالحرية الفردية والاجتماعية ويقفون أمامهم سدّا فى طريق الاصلاحات . ولأجل تحقيق هـذه الغاية اضطر الطليـان الى تكوين الجمعيات السرية وبدأت فكرة الثورة تختمر فى رؤوسهم وتتمخض عن حركات ثورية متفـرّقة الى أن حان الزمن وظهرت فى أجلى مظهر لهـا عام ١٨٤٨ حيث ثارت معظم شعوب إيطاليا .

قلنا إن الثورة الفرنسية أرادت تحرير الفرد وتحرير الشعوب المظلومة وقد بذرت بذورهـا فى أوروبا فكانت تنمو ببطء أو على عجل حسب استعداد البلدان وتهيؤ الظروف ، وكانت لها مظاهر ثلاثة :

(المظهر الأوّل) قيام الشعوب ضـدّ ملوكهم المستبدّين ومطالبتهم بالحرية والدستور كما حدث فى فرنسا واسبانيا والنمسا .

(المظهر الثانى) قيام الشعوب المظلومة ضـدّ الدول الأجنبية المحتلة لها وتكوين وحدتها كما حدث فى ايطاليا .

(المظهر الثالث) قيام شعوب لتحقيق وحدتها فقط كما حدث فى ألمـانيا .

ولأجل مقاومة مظاهر الثورة والعمل على قتلها تحالفت الدول الكبرى وكان عميدها مترنخ عدو الثورة اللدود الذى صرح بأن « السياسة العصرية فى أوروبا يجب أن يكون أساسها الراحة » ومعنى الراحة الجمود وعرقلة التقدّم .

وقد كانت نتيجة المؤتمر فى أوروبا تعطيل سير الحركات الوطنية أو القومية الحرة وتحويلها الى حركات ثوروية عنيفة كما حصل فى اسبانيا سنة ١٨٢٠ وفى فرنسا سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ وقد كان لهذه الثورات الأجنبية صدى فى ايطاليا اذ قامت هناك حركات ثوروية استفاد منها « مترنخ » وجعل الدول تقرّر مبدأ « التدخل المسلح » فى الممالك التى تحدث فيها اضطرابات ضدّ النظام والتعاون بواسطة جيوشها على قتل كل حركة .

الفصل الثانى

الحـــركات الثـــورية

قام بالحركات الثورية فى ايطاليا بين سـنة ١٨٢٠ و ١٨٣٠، جمعيـة الكربونارى، وبين سـنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ماتجى وجمعيته « ايطاليـا الفتـاة »، ثم دخلت الثـورة فى طور نظـامى عملى فى صورة حرب .

جمعيـــة الكـــربونارى — إن النظام الجديد فى ايطاليا بين سنة ١٨١٥ و ١٨٢٠ وما اشتمل عليه من مساوئ — كاستئثار القساوسة بالتعليم ووضع حقوق جمركية تعرقل التجارة بين الولايات وارجاع الامتيـازات — أغضب الأحرار الذين كانوا عقدوا آمالهم على نابليون لتحرير بلادهم، وقد أدّى ذلك الى تقوية جمعية الكربونارى وانضمام الكثيرين اليها حتى أصبحت كحزب وطنى .

وكان الكربونارى منذ سنة ١٨٠٧ منتشرين فى جنوب ايطاليا، ومعظمهـم من فحـامى الكلابر (Charbonniers)، هربا من يوسف بونابرت الذى كان يضطهدهم ومن الاحتـلال الفرنسى، وكانت غايتهم من حيث استقلال البلاد مبهمة، وذلك لأن الفكرة

الاستقلالية عندهم كانت متولدة من كراهيــة الظلم على أن كراهية الظلم عندهم لم تكن وليدة التربية السياسية أو التربية الوطنيــة بل كانت وليدة التربية الدينية والمبادئ الروحيــة (Mysticisme) التى كانت خليطا بين المـاسونية وفلسفة القرن الثامن عشر، ومن مأثور أقوالهم : « إن المسيح أوّل فريسة للظالمين » فكان الصليب منصوبا فى جميع ألواجهم، وكان نظامهم أشبه بنظام المـاسونية يشرف اللوج الأعظم فى روما على ألواجهم العديدة .

وقد انتشر نفوذ الكربونارى شيئا فشيئا فى بلاد الشمال حيث تكون حزب اصلاحى تحت رئاســة كونفالونييرى : أوجد هــذا الحزب المراكب التجارية وأدخل آلات النسيج والجاز وغيرها من طرق الاصلاح، وأنشأ فى سنة ١٨١٩ مجلة "كونسلياتورى" وهى لسان حال النهضة الأدبية الجديدة "الرومانتيزم" التى بها يتحرّر الفرد من قيود المـاضى وتبرز شخصيته، ولكن السلطة النمسوية لم تحتمل وجودها وصادرتها فاضطر الحزب الى العمل فى الخفـاء واضرام نار الثورة والاتصال بالكربونارى جنوبا .

ثــورات ســنة ١٨٢٠ و ١٨٢١ — كان فرديـناند ملك نابولى مســتبدا مكروها من جميــع الطبقات لاسيما الجيش حيث وجد الكربونارى معظم أنصارهم .

ما كادت تحدث فى اسبانيا الثورة العسكرية للمطالبة بالحرية والدستور وتصل أنباؤها الى نابولى — و بينهما روابط قديمة متينة — حتى هب الضابطان موريللى وسلفاتى على رأس فرقة من الفرسان يطلبان ملكا وطنيا ودستورا (٢ يوليه سنة ١٨٢٠) : فى أقل من ثلاثة أيام امتدت الثورة على مسافة عظيمة بين كابتيناتا و بازيليكاتا وكان فى أفيلينو وحدها ١٢٠٠٠ جندى دستورى، خلاف ٥٠٠٠ جندى آخر تحت قيادة بيب (Pepe) ، عضو الكربونارى، وكانت هذه الجنود قبل الثورة مخصصة لمقاومة قطاع الطرق واللصوص .

رأى الملك فرديناند الخطر المحدق به فقبل منح الدستور وتنازل عن الحكم لولى العهد، ثم تألفت وزارة جديدة لم يكن فيها من حزب الثورة إلا القائد بيب فنتج نزاع مستمر بين الوزارة والكربونارى ستستفيد منه النمسا .

وفى يوم ١٤ يوليه ثارت جزيرة صقلية التابعة لنابولى مطالبة بالانفصال عنها و بالدستور، ولكن هذه الثورة كانت حربا مدنية أكثر منها قومية نظرا لانقسام أهل صقلية على أنفسهم .

وفى أثناء ذلك كان عدو الثورة والحرية مترنخ يرغى و يزبد و يدعو الدول الى الاجتماع والتدخل لتوطيد دعائم النظام بينما كان

أهل نابولى فى شغل شاغل من أمورهم الداخلية التى ارتبكت للأسباب الآتية :

(١) عدم الثقة بالملك الأجنبي .

(٢) استبداد حزب الثورة الكربونارى ورغبته فى الحلول محل البرلمان .

(٣) وجود أعضاء كثيرين فى البرلمان تطن فى رؤوسهم مشاريع الاصلاحات ولكن تنقصهم التجارب .

(٤) وجود وزراء غير أكفاء يبتعدون عن الشعب ويتقرّبون الى الملك ومترنخ خوفا من الثورة فى الداخل والغزوة من الخارج أما الشعب فكان من جهته مترددا بين الثورة ضد الملك وضد النمسا والتعرّض لخطر الغزو وبين السكوت والتعرّض لخطر ضياع الدستور .

وسرعان ما اجتمعت الدول بناء على دعوة مترنخ فى ليباخ وقررت إرسال جيش فى نابولى قضى على الثورة والدستور (٢٣ مارس سنة ١٨٢١) .

ولكن فى نفس الوقت الذى انطفأت فيه ثورة نابولى فى الجنوب قامت ثورة أخرى فى الشمال فى بيمون حيث انتشر الكربونارى

خصوصا بين طبقات الجيش وكان اتصالهم بالأمير شارل ألبير ولى العهد مشجعا لهم .

وأول شبوب الثورة فى الاسكندرية فتورينو، وأهم مطالبها دستور كالدستور الاسبانى وتكوين « مملكة ايطاليا » التى كان أنشأها نابليون بحيث تمتد على جميع أنحاء ايطاليا ، وكان زعيم الثورة الجرىء سانتاروزا .

أجاب الملك على ذلك بأن تنازل عن الملك لأخيه شارل فيلكس الذى كان غائبا فى مودين ، وفى أثناء غيابه عين الأمير شارل البير صديق الكربونارى وصيا فانتهز هذه الفرصة ومنح الدستور وحلف اليمين ، ولكن الملك شارل فليكس استنكر الدستور عند عودته وطلب إلى اسكندر ملك روسيا أن يمده بجيش لمقاومة الحركة فأعلن وزير الحربية فى العهد الجديد سانتاروزا زعيم الثوار أن الملك أسير النمسويين وسار بالجيش والطلبة المتطوعين للقاء الجيوش الأجنبية .

ولسوء الحظ هزمه النمسويون فى نوفار فهرب الزعماء فى جنوى والخارج ، وحكم بالاعدام على ٢٠٠ نفس ورفت ٢٢٠ ضابطا وأغلقت جامعتا جنوى وتورينو لأن أساتذتهما وشبيبتهما لعبوا دورا كبيرا فى الحركة ، وأخذت النمسا تبث الارصاد فى جميع أنحاء ايطاليا وتشدد الرقابة على الصحف والكتب والأغانى حيث كانت تمحى كلمة

«الحرية» (Liberte) وتستبدل بها كلمة الطاعة (Loyaute) ، ثم عملت على إقامة الدعاوى السياسية وتسميم الجو أملا فى قتل الحركة خصوصا فى لومبارديا وفينيسيا وحكم بالاعدام على كثيرين من الزعماء الوطنيين فى البلدان المختلفة بحجة التآمر ، وبلغ من تدخل النمسويين فى جميع شؤون الولايات الايطالية فى ذلك الوقت أن قال أحدهم : « أن الطليان يأكلون من النمسا حتى فى خبزهم »

ولكن هذه الاجراءات الاستبدادية كانت خير سماد تنبت فيه الحركة نباتا طيبا .

وقد نقل الكربونارى بعد فشل ثورة نابولى مركزهم من الجنوب وجعلوا لوجهم الأعظم فى باريس ومن هناك اشتغلوا على بعد .

وكان مترنخ بين سنة ١٨٢١ — ١٨٣٠ يطغى ويستبد بحجة الدفاع عن العروش فى ايطاليا فترتب على ذلك أن الملوك والأمراء بدأوا لا يطيقونه واتصلوا سرا بالكربونارى للتخلص من الحكم النمسوى ، وبدأت الحركة تنتشر ثانية فى الرومانية والولايات التابعة للكنيسة التى كانت بعيدة عن الثورة ، وما كاد يحل عام ١٨٣٠ حتى كان الكربونارى ، وهم فى باريس ، قد أعدّوا حركة ثورية منظمة فى شمال ايطاليا ووسطها .

ثـــورة ســـنة ١٨٣١ ـــ كانت الحركة السياسية فى ايطاليا بين سنة ١٨٢٠و١٨٣٠ ضعيفة تئن تحت مظاهر الضغط والاستبداد وكان الكربونارى طريدين مشردين فى كل مكان فلجأ منهم عدد كبير الى الولايات التى لم تحدث فيها الثورة : وهى مودين وبارم وولايات الكنيسة فى وســط ايطاليا وأسسوا فيها جمعيات ســـرية .

ولمـا حدثت ثورة سنة ١٨٣٠ انتهزت هذه الجمعيات فرصة موت البابا بيوس الثامن فى السنة عينها واتفقت على القيام بالثورة وتنصيب ملك مكان البـابا فى روما فأحس بذلك حاكم مودين وأمر بالقاء القبض على المتآمرين فى مملكته وعلى زعيمهم مينوتى فثار جميع المتآمرين الآخرين فى ولايات الكنيسة ونجحوا فى تكوين حكومات جديدة بموظفين مدنيين حلوا محـل القساوسة ، واشترك الجيش وكثيرون من الموظفين فى الحركة فعمت فى مدّة لا تتجاوز الثلاثة أسابيع الولايات الشرقية : وقد أعلنت الحكومة المؤقتة فى بولونيا عاصمة مودين التى كانت منبع الحركة بفضل جامعتها انتهـاء سلطة البابا المدنية وإجراء انتخابات عامة فانتخبت جمعية وطنية قصدها نوّاب من جميع ولايات الكنيسة ـــ مما دل على قومية الحـركة ـــ اجتمعوا وأعلنـوا أنفسهم " جمعية نوّاب

المقاطعات الحرّة بايطاليا " ولقبوا المقاطعات الثائرة المجتمعة "بمقاطعات ايطاليا الموحدة"، وسرعان ما تدخلت النمسا و بدّدت شمل هذه الولايات وأرجعت الحال الى ما كانت عليه واكتفت الدول التي اجتمعت وقتئذ بارسال مذكرة الى البابا تنصحه باحداث اصلاحات منعا للثورة ، ولكن البابا لم يعمل بنصيحتها واستأجر فرقتين من العساكر السويسرية وأعدّ جيشا من المتطوّعين لمحاربة جميع مظاهر الحرية والتقدّم، و بلغ به الأمر أنه كان يعدّ التلغرافات والسكك الحديدية و جميع مستحدثات القرن التاسع عشر أعمالا عدائية ضدّ الكنيسة .

ذلك مجمل الحركات الثوروية فى سنى ١٨٢٠ ، و١٨٢١، و ١٨٣١ و يلاحظ :

(١) أن هذه الحركات الثلاث كانت تسير على نهج الثورات الأجنبية فى اسبانيا وفرنسا فلم يكن لها طابع وطنى أو قومى جلى .

(٢) أن الحركتين الأوليتين فى نابولى و بيمونت كانتا عسكريتين أكثر منهما شعبيتين، أما الثالثة التى حدثت فى ولايات الكنيسة بالوسط فكانت سلمية بحتة ، وقد امتدّت الحركات

الثلاث على أقاليم واسعة من ايطاليا ولكن امتدادها كان سـطحيا غير عميق .

(٣) أن الفكرة الاستقلالية لم تنضج بعـد والفكرة الدستورية أيضا ، ورغما من ذلك فان فكرة الوحدة القومية بدأت تتجلى بطريقة جزئية محسوسـة تبشر بالمستقبل سواء كان ذلك فى الشمال حيث كانت أمنية الغالبية من الطليان تكوين "مملكة ايطاليا" من جديد، أو فى الوسط حيث ثارت ولايات الكنيسة وانضم بعضها الى بعض تحت اسم "مقاطعات ايطاليا الموحدة" .

ولكن النمسا القوية صاحبة النفوذ والسلطان حالت دون تحقيق هـذه الفكرة ، خصوصا وان عدم وجود برنامج وطنى محدود للكربونارى لم يكن من شأنه تقوية الحركة وتعميمها بطريقة جدّية شـعبية ، أضف الى ذلك عدم وجـود زعيم وطنى بالمعنى الصحيح .

كانت الخلافات حول البرنامج الوطنى كثيرة هذه أهمها :

(١) هل ستكـون ايطاليا مملكة واحدة تندمج فيهـا بجميع الولايات الايطالية أو مملكتين مثلا إحداهما فى الشمال والأخرى فى الوسط، أو هل ستكون ايطاليا مجموعة ولايات متحدة ؟

(٢) هل ستكون حكومة ايطاليا المقبلة ملكية أو جمهورية ؟

(٣) هل سيعتمد الطليان على أنفسهم أو على مساعدة أجنبية من الخارج ؟

كل هذه مسائل كانت تجول فى نفوس الطليان المفكرين قبل ان ينزل مازينى وجمعيته فى الميدان .

الفصل الثالث

ما زيني

ولد مازيني فى عام ١٨٠٥ فى مدينة جنوى وكان زمن الدراسة مولعا بالآداب الوجدانية الخيالية (Romantique) وكان محبا لبلاده بكل ما وهبه الله من قوة وعافية فاندمج صغيرا فى الكربونارى وسرعان ما قبض عليه بحجة التآمر وألقى فى السجن، وهناك أخذ يفكر مليا فى الحركة وكان واقفا على دخائلها فساقه ذلك الى التنبه الى أسباب ضعفها التى تنحصر فى عدم ارتكازها على الشعب الذى هو عمود كل حركة قومية، وعدم وجود غاية واحدة وطنية بحتة تحل محل صيغ الكربونارى المبهمة، وقد رأى انه لن تستمدّ الحركة قوتها من الشعب، إلا اذا بدئ بتعليمه وغرس العقيدة الوطنية فى فؤاده .

قضى مازيني ستة أشهر فى السجن ثم نفى الى مرسليا وهناك شرع مع بعض قرنائه من الشبان المنفيين فى تأسيس جمعية " ايطاليا الفتاة " .

فى أثناء ذلك تولى شارل البير صديق الكربونارى فى صباه الملك فى بيمون فشخصت اليه جميع الأبصار ولا سيما الأحرار، فاغتنم مازينى هذه الفرصة وأرسل اليه كتابا ينم عن شجاعته ووطنيته العالية يبلغ العشرين صفحة طبع خلسة وتداولته الأيدى فى جميع أنحاء إيطاليا، وكان يشتمل على برنامج الجمعية الجديدة و إننا نجتزئ منه بما يأتى :

« لم يعد الشعب يقنع بالقليل من المنح ، وإنما يريد أن يعترف بحقوقه الانسانية التى حيل بينه و بين التمتع بها زمنا طويلا، إنه يريد الحرية والقانون والاستقلال والوحدة، وهو اليوم مقسم منقسم مظلوم، ولقد يعز عليه و يؤلمه أن يسمع الزائر الأجنبى يدعو أرضه أرض أموات، ولئن تجرع كأس العبودية الى آخر نقطة فقد آلى على نفسه أن لا يحملها ثانية إلى شفتيه فليكن الملك ذلكم البطل المحامى عن قضيتنا فى بيمون وفى ايطاليا جميعها .

مولاى :

«إذا لم تكن لك يوم القيت اليك مقاليد الحكم من غاية سوى البقاء فى دائرة من الذلة والمسكنة ، دائرة الملوك الذين تقدموك فظل مكانك وطأطئ الرأس تحت عصا العدو .

« أما إذا سمعت فى نفسك صوتا يناديك أنك ولدت لغاية كبرى فاتبع ذلك الصوت، فانه صوت النبوغ والالهام، صوت ايطاليا من أقصاها إلى أقصاها .

مـــولاى :

«إن إيطاليا جميعها تنتظر كلمة منك، كلمة واحدة لتهب نفسها لك، فانطق بهذه الكلمة وكن على رأس هذه الأمة، وليكن شعارك وشعارها : الوحدة والحرية والاستقلال، ثم أعلن حرية الفكر وصرح بأنك المطالب بحقوق الشعب المنادى بها، الباعث إيطاليا من لحدها، وشيد المستقبل واجعل اسمك يتلألأ فى جبين عصر جديد، وليكن يومك فاتحة ذلك العصر وما عليك إلا أن تسلك السبيل التى تتفق مع إرادة الأمة وأن تثبت وتصبر فالنصر لا بدّ لاقيك .

مـــولاى :

«اذا فعلت ذلك التففنا حولك وفديناك بأرواحنا وسقنا تحت لوائك الولايات الايطالية، وبينا لاخواننا ومواطنينا مزايا الوحدة وسعينا فى فتح اكتتاب عام، وعلت فى كل ناد تلك الصيحة التى تخلق الجيوش .

ضم شتاتنا، يامولاى، وابن وحدتنا فاننا لا شك غالبون »»

ذلك هو النداء الذى صم الملك أذنيه عن سماعه، ولكن الشعب أصاخ له وجرى الناس للاندماج فى جمعية "ايطاليا الفتاة" التى كان هذا النداء بيانا عاما لخطتها .

أما البرنامج المرسوم فيتلخص فى النقط الآتية :

الغاية — تحرير إيطاليا من الاستبداد الخارجى والداخلى وتكوين وحدتها فى ظل حكومة جمهورية .

الوسائل — نشر التعليم والثورة فى وقت واحد بواسطة حرب العصابات المسلحة (Guerilla) اذا اقتضت الضرورة .

الشعار — الله والشعب .

الراية — فى جهة منها : الوحدة والاستقلال، وفى الجهة الأخرى : حرية، إخاء، مساواة .

هذا برنامج الجمعية ، أما الصلة الحقيقية التى كانت تربط أعضاءها بعضهم ببعض فهى صلة العقيدة الوطنية ، تلك العقيدة الايجابية التى كانت تدفعهم إلى تحقيق مطمح سام هو وحدة إيطاليا واستقلالها ، فلم تكن سلبية كعقيدة الكربونارى التى تعمل على تقويض دعائم الظلم القائم ولا تفكر فيما يجب عمله بعد ذلك .

وكان مازيني يعتقد فى فائدة الحركات الثورية — وان كانت فى الظاهر غير منتجة — ويقول : « إننى صوت يصيح العمل » ولكنه أمام قوى النمسا المنظمة لم يستطع القيام إلا بمؤامرات وحركات عديمة الجدوى فى مجموعها .

على أننا لا يجوز أن ننسى أنه نجح فى نشر المبادئ الوطنية وتعميمها بين طبقات الشعب بقوة الشجاعة والعقيدة والاخلاص التى كان يحبها الشعب ويخضع لسلطانها .

وقد أنشأ حوالى سنة ١٨٣٢ جريدة لنشر الدعوة لمبادئه وجمعيته كانت تهرب وتوزع سرا فى إيطاليا فلم يمض زمن طويل حتى تكونت فروع كثيرة للجمعية فى جنوى ولغورن وسواهما من مدن إيطاليا الكبرى ، وكان ذلك كما يقول مازيني «انتصار المبادئ فان هذه الحقيقة المجردة — وهى أنه فى مدة ما كان أقلها قامت جماعة صغيرة من الفتيان لا تملك شيئا فوجدت نفسها على رأس جمعية قوية تطاردها سبع حكومات — دليل على أن اللواء الذى تحمله هو لواء الحق» .

وفى أغسطس سنة ١٨٣٢ طلبت حكومة بيمون نفى مازيني من فرنسا فاختفى عاما فى مرسيليا وغادرها سنة ١٨٣٣ الى سويسرا وفى سنة ١٨٣٦ نفى من سويسرا فقصد انجلترا التى كان يعدها وطنا

ثانيا وذاق فيها صنوف الآلام ، وكان وهو فى فقره المدقع يرسل الكتب والرسائل الى خلانه واتباعه فى إيطاليا ويدير الحركة من بعيد .

ولكنه والحق يقال لم يبلغ النجح الذى كان عمله خليقا به لأسباب عديدة أهمها :

(١) بعد مازينى عن مركز الحركة .

(٢) عدم حسابه حسابا كافيا للحقائق فكان يخيل اليه أحيانا فى سورة غضبه انه فى إمكانه أن يسير شعب إيطاليا تحت لواء الثورة ما بين غمضة عين وانتباهتها .

(٣) التجاؤه الى المؤامرات التى كان يبغضها الكثيرون والتى اضطر اليها اضطرارا .

(٤) صعوبة إيجاد حركة عامة فى وقت واحد بسبب تيقظ النمسا وتفرق الولايات وعدم وجود «مركز قيادة عام» .

كل هذه العوامل جعلت الجمعية بصفتها قوة عاملة منظمة ضعيفة النفوذ ولكنها كانت كبيرة بصفتها مبدأ ساميا اعتنقته النفوس ، بل لقد كان ضعف هذه الجمعية فى معظم الأحايين سببا فى تعزيز المبدأ الذى تمثله وتقويته قال مازينى : « إن الطريق الوحيد الى الانتصار هو طريق التضحية والثبات فى التضحية» .

وقد حدث أنه فى عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان فى البحرية النمسوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازيني وجمعيته وكانا يعتقدان أن إيطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فآليا على نفسهما أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الأبينين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضد القوة الغاشمة .

وعبثا حاول مازيني أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما ، وما عتما أن اتجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلاغها سرا الى حكومة نابولى التى أخذت أهبتها .

وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « فلتحيا إيطاليا ! » .

وكان لهذا الهتاف صدى ردّدته إيطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء للوطن ، على أن إخفاقهما وموتهما تلك الميتة العاجلة الشنيعة أحدثا ردّ فعل فى النفوس أضر بسمعة مازيني وجمعيته التى أخذت تضمحل خصوصا فى ذلك الوقت الذى بدأ الطليان يشعرون فيه بضرورة الالتجاء الى وسائل أخرى غير وسائل التآمر أو الحركات الثورية الانفرادية التى كانت تكلف كثيرا وتنتج قليلا .

ويمكننا أن نقول إنه منذ سنة ١٨٤٣ بدأ نجم مازيني في الأفول وأخذ المعتدلون من مفكرين وساسة أمثال جيوبرتي وبالبو وكافور يمسكون بزمام الحركة الوطنيـة فدخلت بفضلهم في طور تحقيق واصلاحات سادت فيه السياسة العملية الحكيمة الى الغاية .

على أننا اذا ذكرنا المعتدلين وفضلهم على الحركة فان ذلك لا ينسينا فضل مازيني ، وكما أنهم مدينون له فانه مدين للكربوناري فالكربوناري أوّل من حارب الظلم باسم العدل السماوي ومازيني أوّل زعيم كبير قام في وجه الغاصب النمسوي ، الذي يشخص الظلم ، باسم الوطنية الصحيحة ، باسم المبدأ الذي غرسه في نفوس الطليان وحوله الى عقيدة ثابتة عند شبانهم وشيوخهم متطرفيهم ومعتدليهم على السواء ، فلا عجب اذا لقبوه « بنبي الوطنية » .

وقد أعطى مازيني لأمتـه المثل الأعلى للاخلاص والتضحية فانه رغمـا من كونه جمهوريا صميما كان متسامحا مع خصومه وقد أبت نفسه أن ترغم النـاس على اتباع مذهبه تاركا اختيار شـكل الحكومة النهائي الى ما بعد الوحدة التي هي الغاية الكبرى ، يقول مازيني : «أننا سنطأطئ الرؤوس ونقبل أي شكل للحكومة يختاره الشعب بتصويت عام لأنه من واجب الرأي الفردي أن يخلي السبيل أمام رأي الأمة » .

بهذه الحكمة الوطنية العالية صان مازيني الوحدة التي كان يسعى في تحقيقها والتي كانت لا تقوم إلا على أساس من وحدة القلوب ومنع الانقسام أن يمتد اليها .

وهو أوّل من سعى لجعل فكرة الوحدة والاعتماد على النفس جزءا جوهريا أساسيا من الحركة الاستقلالية ، ومن كلامه : « إن طرد النمسويين المكروهين أوّل غرض لنا فلا مناص اذن في القريب العاجل من حرب دموية لا رحمة فيها .

« ولا يجوز لنا أن نعتمد على الحكومات الأجنبية أو على مجهودات السياسة ، ويجب أن نطرح جانبا جميع الآراء المتعلقة باتحاد الولايات (Fédéralisme) أو بالاستقلال بدون الوحدة فان غاية " ايطاليا الفتاة " تحقيق الوحدة ، ولا يصح أن يلتف الطليان إلا حول راية واحدة ، راية ايطاليا جميعها » .

وكل ما يعاب عليه مازيني هو أنه كان خياليا أكثر منه عمليا وكانت تعاليمه الوطنية في معظم الأحايين تلبس الألفاظ الدينية والأخلاقية المتداولة ، مثل ذلك تعريفه لجمعية ايطاليا الفتاة : «أنها رابطة اخاء بين الطليان الذين يعتقدون في نظام من الواجب والتقدم ، والذين يعتقدون كل الاعتقاد أن ايطاليا ستصبح أمة ،

والذين سيعملون جهدهم لبناء ايطاليا من جديد أمة مستقلة ذات سيادة يتمتع بنوها بالحرية والمساواة» ولعل هذه الألوان الدينية التى طليت بها مبادئ مازينى هى أثر من آثار تعاليم الكربونارى والآداب الوجدانية الخيالية التى ولع بها صغيرا .

ومهما كان من الأمر فقد صرح مازينى بأن المسألة مسألة دينية وكان لا بد أن تكون كذلك فى ذلك العصر الذى كانت فيه الروح المادّية «المكيافيلية» متسلطة على النفوس قاتلة لكل عاطفة شريفة وكل تعلق بالمبادئ العالية التى هى منبع الحياة والتجدّد عند الأمم اذ كانت ايطاليا مجموعة أفراد وولايات يسعى كل منها فى سبيل مصلحته الخاصة الضئيلة .

ولا شك فى أن مازينى أدّى الى أمته أصدق الخدمات بالصبغة الدينية التى ظهرت فيها معظم مبادئه فقد أكسبها ذلك قوّة وساعد على تعميمها وغرسها فى نفس الشعب لاسيما فى وقت كانت فيه الحركة فى طور الشباب، طور الحماسة والحمية، طور الهتاف باسم الوطن، ولكن الذى يمكن أن ينتقد عليه هو أنه لم يتطوّر مع الحركة التى تطوّرت ونضجت، ولم يغير أساليب العمل فظل الى آخر حياته يعمل على خلق الحركات الثورية والمؤامرات، وأصبح ثائرا بل متآمرا بعد ان كان فى البداية زعيما وطنيا .

فطن كافور للأمر من زمن فكان يعتقد سنة ١٨٣٠ أن ايطاليا لم تنضج بعد للثورة فقام للعمل حوالى سنة ١٨٤٣ هو وجماعة من المعتدلين متفقين مع مازينى فى المبدأ الذى ساعد على تأصله فى النفوس مختلفين معه فى الوسائل .

وكان جل غرضهم وهم مفكرون معتدلون وساسة عمليون بعيدو النظر أن يدخلوا الثورة فى طريق اعتدال واصلاحات علما بأن هذا الطريق وحده هو الذى يوصل الى الثورة الصحيحة المنظمة التى لا تقهر .

الفصل الرابع

المعتدلون (١٨٤٣ – ١٨٤٨)

هيمنت جمعيــة الكربونارى على الحركة الاسـتقلالية بين سـنة ١٨١٥ و ١٨٣٢ وجمعيــة إيطاليا الفتاة بين سـنة ١٨٣٢ و١٨٤٣ ، ثم اضمحلت هـذه الجمعية الأخيرة وحل مكانها بين سنة ١٨٤٣ و١٨٤٨ جماعة المعتدلين أو المصلحين وعلى رأسهم زعماء ثلاثة : جيوبرتى ، دازجليو ، بالبو ، وجميعهم من رجال الفكر والعمل فأصبح بفضلهم للمعتــدلين الذين كانوا منتشرين فى إيطاليا من زمن شخصية محترمة ورأى يعتد به وصاروا أشبه بحزب يسير الناس تحت لوائه .

كانت الحركة فى هذا العهد تتنازعها قوى ثلاث : الاصلاحيون ، والرجعيون ، والمزينيون .

كان الحـزب الرجعى مكونا من الأشراف واليسوعيين فى الولايات المختلفة ، وكانوا هم الأيدى التى تستعملها النمسا فى الخفاء لمحاربة الحركة وقتلها ولذلك أطلق عليهم اسم "الحزب النمسوى".

أما المزينيون فقد كانت الحركات الثورية الفردية التى بدا الناس يميلون عنها سببا فى إضعاف شأنهم وتقوية حزب المعتدلين، ذلك لأن العدو كان يستفيد منها فيحتل البلاد بحجة النظام ويسفك الدماء ويشدد الرقابة ، وكانت هذه الحركات فى جملتها مظهرا من مظاهر الشجاعة التى لا يصحبها الرأى الحازم .

أما المعتدلون أو المصلحون فكانوا متفقين مع المتطرفين فى مبدأ الاستقلال، لا الوحدة ، لأنهم ما كانوا يعتقدون فى امكانها وجل مطمحهم تكوين « ولايات متحدة مستقلة »، وكانوا متفقين مع المزينيين فى مبدأ الاعتماد على النفس لا المحالفات الأجنبية (Italia fara dâse)

ولكن الوسائل تختلف اختلافا بينا فالمعتدلون يعملون فى دائرة القانون على التوفيق بين الأمراء والشعب باللين والرفق وحضهما على السير معا فى طريق الاصلاحات فباتحادهما فى العمل تقوى الحركة، ويهيأ الشعب أحسن تهيئة للقيام فى وجه العدو، وتحل الثورة الشعبية الموحدة الغاية محل الثورات المحلية العديمة الجدوى التى تنسى الغاية القومية الكبرى .

وكان المعتدلون متشبعين بمبادئ مازينى الوطنية التى تركت أثرا واضحا فى كتاباتهم، وهم قوم عمليون يستغلون كل نتيجة يصلون اليها بالحيلة والطرق السلمية المشروعة .

واليهم يرجع الفضل فى التجاء الأمة الى الوسائل السلمية العلنية كالصحافة والمظاهرات والمؤتمرات العلمية التى انتشرت فى هذه الآونة وكانت من أكبر العوامل التى عممت الحركة بعد أن كادت تختنق فى كهوف المؤامرات السرية ومغاراتها ونشرتها بعد أن كانت مطوية طريدة الأمراء الوطنيين والنمسويين على السواء فجعلتها تتطور تطورا لم يسبق له مثيل فى مدة لا تتجاوز الأربعة أعوام بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ سنة الحرب الثورية القومية .

وكانت معظم المؤتمرات العلمية تحت رعاية الأمراء يؤمها الطليان من كل جانب للبحث فى أحسن الطرق لترقية الشئون الزراعية والعلمية والاجتماعية ، ولكن البحث كثيرا ما تطرق الى الأمور السياسية العامة فانقلبت المؤتمرات الى برلمانات قومية بالمعنى الصحيح (١) .

ومن بين الاصلاحات التى كانت الشغل الشاغل فى ذلك العصر مد السكك الحديدية لربط الولايات بعضها ببعض نظرا لأهميتها المادية والسياسية من حيث انماء الرفاهية وتكوين الوحدة .

---

(١) عقد مؤتمرات فى بيز سنة ١٨٣٩ ؛ وتورينو سنة ١٨٤٠ ؛ وفلورانس سنة ١٨٤١ ؛ وبادو سنة ١٨٤٢ ؛ ولبك سنة ١٨٤٣ ؛ وميلانو سنة ١٨٤٤ ؛ ونابولى سنة ١٨٤٥ ؛ وجنوى سنة ١٨٤٦ ؛ وفينيسيا سنة ١٨٤٨

وكان حزب المعتدلين الاصلاحيين حوالى سنة ١٨٤٣ ينقسم الى شعبتين : الشعبة الأولى وعلى رأسها الفيلسوف جيوبرتى كانت تولى وجهها شطر روما والبابا ، والشعبة الثانيــة وعلى رأسها بالبو وآزجليو كانت تولى وجهها شطر ملك بيمون شارل ألبير .

وكانت الشعبتان تعملان معا لاكتساب عطف البابا والأمراء وأشراكهم فى الحركة الاصلاحيــة .

جيـــوبرتى (١٨٠١ — ١٨٥٢) — كان جيوبرتى رئيس القساوســة الأحرار فى صغره من أتبــاع مازينى وكان يكتب فى مجلة "إيطاليا الفتاة" . نفى من تورينو سنة١٨٣٣ فقصد بروكسل وألف فيها كتبا قيمة كان لهــا أثر عظيم فى تطور الحركة ، ففى سنة ١٨٤٣ ظهر له كتاب انتشر بين جميع الطبقات عنوانه "أولية الطليان الخلقية والمدنية" ، فكرته الأساسية التوفيق بين الدين والمدنية الحديثة ، وقد امتدح المؤلف فيــه البابا ورجاه أن يكون زعيم الحركة الاصلاحية ، ومن أقواله : «بالارادة وصادق العزيمة يمكننا أن نصبح من غير هزات وثورات فى طليعة شعوب العالم» وكان يقول كمازينى : «انه لمن العــار أن ييأس المرء من عشرين مليون رجل» وبالجمــلة أراد جيوبرتى أن يؤلف بين النظريات الثورية والحقائق الكائنة .

سيزار بالبو — أحد أتباع جيوبرتى ألف فى السنة عينها (١٨٤٣) كتابا اسمه : "آمال إيطاليا" ولكنه لم يضع آماله فى روما بل فى تورينو، ومن أقواله : «لا حياة بغير الاستقلال القومى وأن بقاء الغاصب الأجنبى فى ولاية واحدة كاف للقضاء على كرامة الولايات الأخرى وإفساد أخلاق الأمة جميعها » وكان بالبو لا ييأس ويقول كمازينى وجيوبرتى: «ان أمة مكوّنة من عشرين مليون نفس أمة لا تقهر اذا اتحدت وكان لها أخلاق» .

أزجليو — روائى شهير من بيمون ومن أكبر أنصار ملكها شارل ألبير ذهب الى الرومانية فى سنة ١٨٤٥ ودعا الناس الى الالتفاف حوله وترك الحركات الثورية السرية والمطالبة الجهرية بالاصلاحات ، وقد وضع رسالة شهيرة عن "حوادث الرومانية الأخيرة" ذكر فيها الحوادث الثورية العنيفة التى حدثت بعد مغادرته تلك الولاية والقمع الاستبدادى الذى صحبها .

وفى هذه الرسالة ندد أزجليو بحكومة البابا وحكومة النمسا ونصح الشعب أن يلجأ فى كل فرصة الى الاحتجاجات العلنية السلمية فان التآمر فى وضح النهار أنفع وأفضل لكسب الرأى العام الذى ما اتحد فى المطالبة بشىء إلا وناله ، وعلى هذا الرأى العام وحده يجب على حكومة البابا أن ترتكز اذا أرادت البقاء» . وكان

لكتابات أزجليو أثر كبير فى تكوين « الرأى العـام » وفى صـقله وتهذيبـه .

ولمـا مات البـابا جريجوار السـادس عشر انتخب فيراتى أو بيوس التـاسع بدلا من لامبريشينى الذى كان يرشحه الحزب النمسوى فعم السرور فى كل مكان وظن الناس أن البابا المصلح الذى كان يحلم به جيوبرتى هبط ايطاليا خصوصا وأنه بدأ حكمه بالعفو العام فرجع الى وطنهم ٧٠٠ من الأحرار المنفيين والمسجونين تلهج له ألسنتهم بالدعاء، ومهما كان من الأمر فمن الثابت أن البابا الجديد لعب فى الحركة الاستقلالية بين يونيه سنة ١٨٤٦ وديسمبر سـنة ١٨٤٧ دورا كبيرا فكان لا يكاد يمر يوم بدون مظاهرات وهتاف للبابا ، وانتعشت النهضة الإصلاحية فى الولايات المختلفة فأعلنت مشاريع إصلاحات كبيرة فى بيمون واكتتب أهل الرومانية من ولايات الكنيسة بمبالغ عظيمة لفتح المدارس وتشجيع التعليم فانزعجت النمسا وهددتها بالاحتلال ، وكان اشتراك البابا فى الحركة ، نظرا لمركزه الدينى فى العالم وفى ايطاليا ، أكبر مشجع للملك شارل ألبير على الدخول فى زمرة المجاهدين واتباع سياسة قومية إصلاحية أتت بالخير العميم فى بيمون ، وقد سار ليوبلد الثانى أمير توسكانة

على نفس النهج وحقق مطالب شعبه وأهمها حرية الصحافة وإصلاح الادارة .

في أثناء ذلك كان مترنخ يرسل المذكرات التهديدية وما عتم أن احتل فيرارى بجنوده فاحتج الطليان في جميع الولايات على هذا العمل الذى كان لطمة لكرامتهم القومية ، ولما عقد المؤتمر الزراعى في سنة ١٨٤١ تلا الكونت كاستاجنيتو في الجلسة الأخيرة كتابا جاءه من الملك شارل البير يقول فيه : « اذا منّ الله علينا بحرب استقلالية كنت وحدى على رأس جيشها ، وما أجمل ذلك اليوم الذى ترن فيه صيحة الحرب في سبيل استقلال البلاد » فردّ عليه المؤتمر وطلب اليه أن يضع نفسه على رأس الحركة وأن يستل في الحال سيف الاستقلال من غمده .

وفي ذلك الوقت — أى في سنة ١٨٤٧ — تطوّرت الحركة وانقلبت من حركة إصلاحية إلى حركة دستورية ، ولذلك أسباب ثلاثة :

(١) ان المعتدلين كانوا في مبدأ الأمر مستسلمين طوعا أو كرها أملا في كسب الأمراء ، ثم حلت الجرأة محل الاستسلام وهى نتيجة التطوّر الطبيعى .

(٢) ان حزب الرجعيين وخصوصا الموظفين منهم في روما

والولايات الأخرى كانوا يعرقلون تنفيذ القوانين الاصلاحية فكانت تظل معظمها فى الدائرة النظرية بدون تطبيق ، ومن ثمة كانت الحاجة الى برلمان يراقب السلطة التنفيذية .

(٣) ان الإصلاحات التى عملت لم تكن كافية فكان لا بد من وجود برلمان للقيام بجميع أنواع الاصلاحات الضرورية .

وقد أسس كافور فى سنة ١٨٤٧ ، وكان عمره وقتئذ ٣٧ عاما ، بالاشتراك مع بالبو وسانتاروزا وكاستيلى وغيرهم فى تورينو جريدة البعث (Risorgimento) وكانت لسان حال النهضة الحديثة التى تنحصر أغراضها فى إظهار مزايا النظم الدستورية والمطالبة بها لتهيئة البلاد للانقلاب المنتظر ، فى استقلال إيطاليا ، والتوفيق بين الأمراء والشعوب ، والتحالف بين الولايات الايطالية .

فى سبتمبر سنة ١٨٤٧ ثار الأحرار فى رجيو ومسينى بجزيرة صقلية التابعة لولاية نابولى صائحين : « ليحيي بيوس التاسع ليحيي الدستور » وسرعان ما امتدت الثورة واضطر فرديناند إلى منح الدستور .

ولما عقد الصحفيون فى جنوى فى أوائل سنة ١٨٤٨ اجتماعا حضره عدد كبير من رجال السياسة لتعضيد مطالب أهل جنوى المتعلقة بالحرس الوطنى وطرد اليسوعيين قام كافور بكل

بجرأة وقال : ان «الذى يجب عليكم أن تطلبوه قبل كل شيء هو الدستور فالدستور وحده هو الذى يوطد دعائم السلطة باعطائه إياها قاعدة جديدة تتفق مع روح العصر» وايد جميع الاصلاحيين كافور ولكن شارل البير تردد زمنا ثم منح الدستور فى ٤ مارس وعين بالبو زعيم المعتدلين وصديق كافور رئيسا لأول وزارة دستورية .

وفى توسكانة قام الشعب بمظاهرات كبيرة للمطالبة بالدستور فمنحه ليوبولد الثانى فى ١١ فبراير سنة ١٨٤٨ ، وقامت المظاهرات فى روما أيضا وأرسل سكان ولايات الكنيسة من متطرفين ومعتدلين آلاف الامضاءات للمطالبة بالدستور متبعين فى ذلك خطة الزعيم الارلندى أوكونل الذى كان يستند الى العرائض والمظاهرات السلمية والرأى العام ، وأخيرا منح البابا الدستور فى ١٥ مارس .

والخلاصة أن الحزب الاصلاحى نجحت سياسته فى بيمونت وتوسكانه وروما حيث قامت حكوماتها على قواعد دستورية وبدأت السلطة المدنية تحل محل السلطة الدينية التى كانت تعرقل الاصلاحات .

وكان لهذه الحركة الاصلاحية صدى كبير فى الولايات الخاضعة للنمسا لاسيما لومبارديا حيث كان زعيم المعارضة فى ميلانو الجمهورى الكبير مانان رجلا عمليا يحب النظام ويعتقد أنه لا يمكن

القيام فى وجه النمسا إلا فى حالة شبوب حرب أوربية وأن المعارضة السلمية المنظمة تربى الشعب وتضمن احترام أوروبا لايطاليا وكان «وهو قانونى واقف على أسرار القانون ودقائقه يريد أن يثير النفوس بالطرق القانونية وأن يسوقها بحركة نظامية مستمرة الى نقطة تمكن فيها الحماسة المتولدة من الظروف من خلق الثورة» .

وكان رادتسكى قائد جيوش الاحتلال فى ايطاليا وقتئذ يتمنى أن يلجأ الطليان الى وسائل العنف ليتخذ منها ذريعة لسحقهم وهو القائل : «أن ثلاثة أيام دموية تريحنا ثلاثين عاما» .

وقد اجتهد أهل ميلانو انتقاما لأنفسهم من الظلم النمسوى فى تقليد أهل بوستون وطريقة مقاطعتهم للبضائع الانجليزية ، فصمموا على مقاطعة الدخان فى رأس السنة الجديدة لضرب المالية النمسوية ضربة جدية وإعطاء مثل عال من التضحية لأن الطليان كانوا جميعا مولعين بتدخين السيجار .

ولما جاء اليوم المضروب خلت الشوارع من المدخنين فوزعت السلطة النمسوية على جنودها كميات وافرة جدا من السيجار وأمرتهم بالسير فى الشوارع ونفخ الدخان بكثرة فى وجوه المارة ، فلما أعيتهم هذه الحيلة أعملوا الحراب فى العمال وهم عائدون الى منازلهم وأطلقوا الرصاص على عزل من السلاح ، وتكررت هذه

المناظر الوحشية فى مدن أخرى كبافى و پادو وسجن الزعيم مانان وكثيرون من الأحرار فاستمرت مظاهرات الاحتجاج ليل نهار ضدّ الحكومة واستقال عدد كبير من الموظفين وعبثا حاولت الحكومة أن تجد آثار مؤامرة «انها كانت، كما يقول أزجليو، مؤامرة شعب بأسره» .

وبالجملة كانت الولايات الايطالية على العموم قبل حرب سنة ١٨٤٨ الاستقلالية فى حالة ثورة، وكان الرأى العام قد اشتد ساعده للطالبة بالدستور والحرية والاستقلال .

فى فبراير سنة ١٨٤٨ حصلت الثورة الباريسية وخلع لويس فيليب الذى اشتهر هو ووزيره جيزو باتباع سياسة الجمود، سياسة عدوّ العصر مترنخ، فكان لاعلان الجمهورية الثانية ونجاح الثورة أثر كبير فى تحريك الثورات الكامنة فى نواحى أوروبا .

وفى ١٧ مارس، ثار الشعب فى فينا "حصن الاستبداد" ووصلت الأنباء مساء الى فينسيا فهاج الشعب وأخرج مانان من السجن وكوّن حرسا وطنيا للمحافظة على النظام، وثارت فى اليوم نفسه ميلانو وأقيمت المتاريس فى كل مكان، ونشبت بين لومبارديا جميعها وبين النمسويين حرب عنيفة اضطرتهم الى التقهقر الى خط المنسيو .

وفى ٢٢ مارس نادى مانان زعيم الثوار فى فينسيا بانتهاء الاحتلال الأجنبي واعلان الجمهورية .

وقد تحمس أهالى بيمون من أول ساعة لنصرة اخوانهم فى لومبارديا وفينيسيا فكتب كافور فى جريدة البعث يقول : « أمام حوادث لومبارديا وفينيسا لا يجوز أن نتردد لحظة واحدة ، واننا نحن أصحاب الذكاء الهادئ الذين تعودنا العمل بمشورة العقل لا بدافع الأهواء والعواطف نرى من واجبنا أن نصرح مطمئنين أنه لم تبق إلا سبيل واحدة للأمة ، للملك : تلك سبيل الحرب العاجلة » .

وفى يوم ٢٩ مارس وضع شارل البير نفسه على رأس الحرب الثورية وأصدر بيانا الى شعوب لومبارديا وفينيسيا يقول فيه : « لنا الثقة بالله الذى وهب لايطاليا بيوس التاسع والذى أيقظها وجعلها تعتمد على نفسها » .

وسرعان ما سالت سهول لومبارديا الشمالية بآلاف المتطوعين يأتون أفواجا من الولايات المختلفة ، وقد أرسل أمير توسكانه بلاغا الى جنوده يقول فيه : « أيها الجنود : إن قضية استقلال ايطاليا المقدسة سيفصل فيها فى سهول لومبارديا ، وقد اشترى أهل ميلانو حريتهم بدمائهم ، وهاهى جنود بيمون تسير تحت لواء مليكها ، وان أبناء ايطاليا وورثة عظمة السلف من العار عليهم أن يظلوا

فى منازلهم فى هذه الساعة العصيبة ، فامضوا سراعا وضموا صفوفكم الى صفوف المتطوعين تحت راية واحدة » .

وقد بادرت ولايات لومبارديا وفينيسيا وپارم ومودين وأعلنت بتصويت عام انضمامها الى ولاية بيمون .

ولكن مما يؤسف له أن الشقاق دب فى صفوف الأمة وتسربت روحه الى الجيش لأن أنصار مازينى من جمهوريين وديموقراطيين كانوا فى ميلانو مثلا يحرّضون السكان على التصويت ضدّ الانضمام الى بيمون ومليكها وجروا على سياستهم تلك حتى بعد التصويت والعدوّ واقف على الأبواب ، وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ ، فان البابا ظل على الحياد ، وأخّر أمير نابولى إرسال الجيش الذى وعد به ، وحل البرلمان فى ١٥ مايو سنة ١٨٤٨ وكان أوّل من خان الثورة .

وفى ٥ أغسطس سنة ١٨٤٨ هزم شارل البير تحت أسوار ميلانو فأرادت المدينة تجديد ثورة مارس ولكن القوّاد أجمعوا رأيهم ضدّ الحرب فعقد ملك بيمون الهدنة وأخذت صحف الديموقراطيين والمتطرفين ترميه بالخيانة وتطعن عليه فأصدر الملك بيانا جاء فيه : «انى لا أجهل التهم التى يريد البعض أن يدنس اسمى بها ولكننى أترك الحكم للتاريخ العادل ، ولطالما خفق قلبى

لاستقلال ايطاليا ولكن ايطاليا لم تثبت للآن أن في مقدورها أن تعتمد على نفسها . أى شعوب ايطاليا ! كونوا أقوياء فى هذه النكبة الأولى واستغلوا النظم النيابية الحديثة العهد ، وثقوا بملككم فإن قضية الاستقلال لا تزال قائمة» .

حدثت بعد ذلك حركات ثورية فى روما حيث فر البابا هاربا الى مدينة جيت بولاية نابولى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ فأجريت فى غيابه انتخابات لاختيار شكل الحكومة الجديد بواسطة جمعية وطنية ، وفى ٥ فبراير سنة ١٨٤٩ انعقدت الجمعية وكانت الغلبة فيها للمتطرفين الذين قرروا إعلان الجمهورية .

وكان الطليان عموما وخصوصا الجمهوريون فى الولايات وفى بيمون يلحون صباح مساء فى استئناف الحرب فأعلنت فى ٣٠ مارس سنة ١٨٤٩ وهزم القائد النمساوى رادتسكى الملك شارل البير شر هزيمة فى نوفار فما كان من الملك إلا أن ترك صولجانه لفكتور عمانويل الثانى الذى ستتحقق ايطاليا على يديه وحدتها واستقلالها .

وبعد نكبة نوفار أراد البرلمان الرومانى تقوية الحكومة فسلم مقاليد السلطة التنفيذية الى مازينى ، وسافى ، وأرميلينى ، ولكن البابا استنجد بنابليون الثالث رئيس الجمهورية الفرنسية الذى كان

فى هـذا الوقت يعمل على كسب ثقة الجيش والقساوسة ليعاونوه على هـدم الجمهورية فجاء أودينو على رأس جيش فرنسى واحتل روما بعد أن دافع جاريبالدى عنها دفاعا مجيدا (٣ يوليه سنة ٤٩).

وظلت فينيسيا وحدها تقاوم النمسا حتى النهـاية مقاومة خلد التاريخ لها ولزعيمها الأكبر مانان أجمل الذكر .

ونتلخص أسباب فشل ثورة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ فيما يأتى :

(١) ان إيطاليا دخلت الحرب القومية قبل أن تتم الاصلاحات وقبل أن يتيسر للبرلمانات الجديدة أن تصلح الحكومة وتخرج منها جميع الموظفين الرجعيين الذين كانوا ألد أعداء الثورة والإصلاح.

(٢) ان بقاء البابا على الحياد بعـد أن كان معقد آمال الجميع وبعد أن هتف باسمه الأمراء والشعب قبل الحرب وفى أولها كان ضربة قاسية لها .

(٣) ان ايطاليا التى دخلت الحرب لم تكن ايطاليا الكهلة الناضجة بنت التجارب والسياسة ، بل كانت ايطاليا الفتاة التى تمكن خيالها السامى من فؤادها فغلبها على أمرها .

وسرعان ماعجلت النمسا بعد انتصارها ببسط نفوذها على البلاد حتى خيـل للبعض أن ايطاليا فى سـنة ١٨٤٨ ما زالت فى موقف

سـنة ١٨١٥ ، والحقيقة أن ايطاليا فى أواخر القرن الثـامن عشر كانت بفضل شعرائها وأدبائها الوطنيين و بفضل المبادئ التى أعلنتها الثورة الفرنسية على ملأ العالم كالجنين وسط الظلام ، ولكنها فى نهاية الاحتلال الفرنسى سنة ١٨١٤ وجدت حياة قومية جديدة فنزلت هذه الطفلة الى الوجود فتجاهل مترنخ فى مؤتمر فينا سـنة ١٨١٥ وجودها ، ثم ثارت فى سنة ١٨٢٠ وفى سنة ١٨٢١ وفى سنة ١٨٣١ تحت لواء الكربونارى فأثبتت أنهـا تريد أن يعترف بوجودها ، ثم جاء مازينى وغرس فى فؤادها المبـدأ وحوله الى عقيدة ثابتـة فعملت "ايطاليا الفتاة" على تحقيق خيالها السامى وتقلدت سيفها فى أخريات شبابها سنة ١٨٤٨ فهزمها النمسوى ولكن هذه الهزيمة كانت تجربة كبرى وكانت نتائج هذه التجربة ثلاث :

(١) ان مبدأ الاعتماد على النفس الذى أعلنه مازينى واعتنقه شارل البير كان لا بد وأن يسير جنبا لجنب مع مبدأ الاعتماد على محالفة أجنبيـة — وهو ماسيسعى فى تحقيقه كافور بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩

(٢) ان مبدأ الاستقلال قبل الوحدة ، الروحية على الأقل ، لا يصلح ، ولا بد من ترك فكرة النظام الاتحادى .

(٣) أصبحت بيمون بحكم الفعل بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩ الولاية الوحيـدة المستقلة الدستورية فبينما كانت الحركة الرجعية تطارد

الأحرار والحرية فى كل ولاية كانت بيمون ملجأ لعشرات الآلاف من أبطال الثورة المنفيين(يقال إنهم كانوا خمس سكان مدن بيمون) وكان برلمان بيمون خير ضمان للتقدّم والرقى : كل ذلك جعل الأسس التى ستقوم عليها ايطاليا الحرة متينة فى بيمون .

(٤) ظهر عدم صلاحية فكرة مازينى الأصلية القائلة بثورة ٢٠ مليون إيطالى بواسطة حرب العصابات ، لأن ثورة سنة ٤٨ التى قام بها الشعب بأسره وبلغ عدد الجيش فيها من نظاميين ومتطوّعين ٨٠٠٠٠ لم تنجح ، وكان عدم وجود نظام متين يحل محل النظام الذى ترتجله الوطنية من أكبر عوامل الهزيمة ، فوجب من ذلك الوقت العمل على تنظيم الجيش بعدد وعديد وإدخال الثورة فى طريق الوحدة المتماسكة ، فى طريق العمل الصامت الذى لا يعلن عن نفسه ، فى طريق السياسة التى تحتال ، فى طريق الاصلاحات الاقتصادية التى هى دعائم الاستقلال السياسى ، حتى تخرج منه الثورة فى صورة حرب منظمة أداتها جيش منظم .

الباب الثاني

عصر الحروب والاصلاحات

قطعت الحركة الاستقلالية مرحلتها الثانية بين سنة ١٨٤٨ و ١٨٧٠ : فى العشر سنوات الأولى بين ١٨٤٨ و ١٨٥٩ نضجت الحركة ودخلت بفضل مساعدة نابليون الثالث فى طور تحقيق .

الفصل الأول

القوى الرئيسية فى الحركة

لأجل تفهم المرحلة الثانية نبتدئ بكلمة اجمالية عن القوى الفكرية الرئيسية فى الحركة : هذه القوى يمثلها مازيني وجيوبرتى ، وفكتور عمانويل ، وكافور ، ومانان ، ولافارينا ، وجاريبلدى ونابليون .

مازيني — أصبح مازيني بعد سنة ١٨٤٨ صعب الاحتمال صعب القياد لأنه لا يتطور فبينما كان الطليان يعقدون آمالهم على

بيمون وجيشها ظل مازيني متعنتا فى التمسك بوسائله الثورية وعدم الانتظار هو وأنصاره الذين ما فتئوا يرمون ملوك بيمون بالخيانة والتهاون فى حقوق البلاد ، والواقع القول أن نفوذ مازيني قضى عليه بعد ثورة ٤٨

جيوبرتى — تطوّر جيوبرتى بعد ثورة ٤٨ ووضع فى سنة ١٨٥١ كتابا جديدا فى "النهضة" (Riuomovamento) فيه تركه لسياسته السابقة التى كانت ترمى الى جعل البابا زعيم الحركة واعتنق مبدأ سيادة مملكة سردانية بصفتها الأساس الذى لابد منه للاستقلال الايطالى ، وكان لهذا الكتاب أثر كبير فى السياسة العامة .

فكتور عمانويل — هو الذى أمضى صلح سنة ١٨٤٩ ؛ وقال فى أثناء مفاوضته مع رادتسكى : «إننى بدلا من قبول هذه الشروط أفضل ضياع ألف تاج ، إن اليمين التى حلفها أبى لا بد أن أحافظ عليها ، وإن بيتى ليعرف طريق المنفى لا طريق العار» هذا هو خلق الرجل الذى كان من أكبر بناة الوحدة والاستقلال أما سياسته فقد أعلنها فى أوّل بيان أصدره الى شعبه : «كل مجهوداتنا يجب أن توجه الى تضميد الجروح

التى أصابت بلادنا وتقوية دعائم النظم النيابية » ، وقد نجح فى توطيد المملكة وانتشال التاج من الوهدة التى كان فيها .

كافـــــور — يكاد يكون كافور أكبر ساسة القرن التاسع عشر، سياسته عملية تغتنم كل فرصة وتتجنب بواسطة الاصلاحات الثورة فى الداخل، وتعمل فى الوقت نفسه على تهيئة الثورة الصحيحة ضد الأجنبى المحتل تحت ستار السلم والنظام، وهو الذى كوّن مملكة ايطاليا الشمالية سنة ١٨٥٩ بمساعدة فرنسا، وإليه يرجع الفضل الأكبر فى بناء وحدة إيطاليا .

مانان — مانان من أكبر رجال ثورة ٤٨ اشتهر فيها بدفاعه الخالد الذكر عن فينسيا ، وكان جمهوريا صميما من أنصار الثـورة فى دائرة القانون والحكمة . نفى فى باريس بعد سـنة ٤٩ فعاش فيها وذاق أنواع الفقر، وهو أول من وضـع برنامجا مرسوما للحركة فصرح للصحافة فى ١٩ مارس سنة ١٨٥٤ « بأن استقلال إيطاليا ووحدتها غير منفصل أحدهما عن الآخر يكفلان لها راحتها وطمأنينة أوروبا » .

وكان مانان سنة ٤٩ يريد جمهورية مكوّنة من ولايات متحدة مستقلة ولكنه وهو رجل عملى يضحى بآرائه الشخصية فى سبيل

الصالح العام تطوّر ولما بلغه أن نابليون يرغب فى تعيين ابنا لميرات ملكا على نابولى كتب الى الصحف فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٥٥ يقول :

«إذا كانت ايطاليا الجديدة لا بدّ أن يكون لها ملك فيجب أن يكون ملك بيمون» .

فمانان هو رافع لواء الوحدة لتندمج تحته جميع الأحزاب فى حزب قومى واحد، واليه يرجع الفضل فى إقناع كافور فى سنة ١٨٥٦ باتباع برنامجه الوطنى المحدود الذى يتلخص فى هاتين الكلمتين : «ايطاليا وفكتور عمانويل» .

وقد أسست تحت رعايته وهو فى منفاه فى سنة ١٨٥٧ "الجمعية الوطنية" (Sociête-Natioule) التى لعبت دورا كبيرا فى الحركة زمنا طويلا .

لا فارينا — كان لافارينا من رجال ثورة صقلية فى سنة ٤٨ وكان رأيه المقاومة الى النهاية فنفى فى ٢٣ أبريل سنة ١٨٤٩، وألف فى سنة ١٨٥٦ — بمناسبة دسائس نابليون فى نابولى رسالة عنوانها "ميرات والوحدة الايطالية" أيد فيها — بالرغم من كونه جمهوريا — برنامج مانان، برنامج الوحدة والاستقلال قبل كل شىء .

ولافارينا من أكبر الرجال المتحركين العاملين فهو الذى لم شتات حزب مازان فى "الجمعية الوطنية" التى كان هو سكرتيرها ، و بفضل نشاطه صار للجمعية لجان فرعية فى أنحاء إيطاليا المختلفة وأمكنها أن تمسك بزمام الحركة .

جاريبالدى — كان وطنيا مخلصا من أنصار حرية الشعوب وهو رجل السيف الذى ضم جنوب ايطاليا الى شمالها .

نابليون — لعب نابليون الثالث رئيس جمهورية فرنسا وامبراطورها دورا كبيرا فى الحركة الايطالية مدّة ٢٠ عاما . كانت سياسته مملوءة بالمتناقضات خليطا بين الخياليات والعمليات وهو من أكبر الرجال الذين عملوا على تطبيق مبدأ القومية فى أوروبا وخصوصا فى ايطاليا ولكنه شوّه هذا المبدأ بوقوفه فى طريق وحدة إيطاليا — أقول الوحدة لا الاستقلال — لتكون الدولة المجاورة لفرنسا ضعيفة مقسمة ، وبوضع يده على نيس وسافواى ثمنا لمساعدته .

وقد لعبت بيمون بعد ثورة ١٨٤٨ أكبر دور فى الحركة ، وتاريخها فى العشر سنوات الأولى هو تاريخ الحركة التى رفع لواءها هؤلاء الزعماء وأوّلهم كافور .

الفصل الثانى

كافور (١٨١٠ — ١٨٦١)

ولد كافور فى تورينو حاضرة بيمون فى ١٠ أغسطس سنة ١٨١٠ واشتغل بالسياسة حوالى سنة ١٨٣٩ ، وقد اعتقد من وقت حدوث ثورة يوليه الباريسية فى مزايا الملكية الدستورية التى هى وسط بين حكومة مستبدة وحكومة جمهورية؛ ودرس فى شبابه المسائل الاقتصادية والزراعية فى فرنسا وانجلترا وعاد سنة ١٨٤٧ الى تورينو حيث انضم الى المعتدلين الاصلاحيين وأسس جريدة البعث للمطالبة بالدستور الذى كان هو أكبر عامل على ايجاده وتوطيد دعائمه .

وبالرغم من فشل ثورة ٤٨ — ٤٩ فانه لم ييأس وكان يقول : « إن مستقبل ايطاليا مكفول ما بقى الدستور فى بيمون » وانتخب عضوا فى أول برلمان وكان أكبر همه تأييد وزارة أزجليو فى سياستها الاصلاحية ، واشتهر فى سنة ١٨٥٠ بخطبته البرلمانية المتعلقة بقوانين « سيكاردى » وهذه القوانين هى بدء النزاع الكبير الذى دام عشرين عاما بين ملك بيمون زعيم السلطة المدنية وبين البابا زعيم السلطة الدينية .

أما سبب النزاع القائم فيتلخص فى افتئات السلطة الثانية على الأولى فان البابا كانت له ولايات فى ايطاليا هو الآمر الناهى فيها وكانت روما، بسبب استئثار القساوسة واليسوعيين بالسلطة المدنية ومحاربتهم الاصلاحات ، بؤرة الحركة الرجعية ، وفوق ذلك كان القساوسة والرهبان فى جميع الولايات الأخرى حكومة داخل الحكومة ،ففى بيمون مثلا كان عددهم يبلغ ١٨٠٠٠ ،وكان للكنيسة وحدها الحق فى تطبيق القانون عليهم فى محاكمها الخاصة وحق مراقبة التعليم وما شاكل ذلك من الامتيازات المعرقلة للاصلاح ، وكان دخلها $\frac{١}{١٥}$ من دخل الحكومة مما دعا الى تذمر الأهالى وكان لا بد من وضع حدّ لتلك الحال : أرسل فكتور عمانويل الكونت سكاردى الى البابا فأبى أن يحدث أقل تغيير فى العلاقات بين الكنيسة والحكومة فى بيمون فما كان من الحكومة إلا أن ألغت أكبر محكمة للكهنوت وكثيرا من الامتيازات ، وألقى كافور تأييدا لهذه السياسة فى ٧ مارس سنة ١٨٥٠ خطبته الشهيرة التى جاء فيها :

«اذا أردتم أن تتجنبوا الثورة فاعملوا الإصلاحات فى ميعادها ، ولا تظنوا أنها تزعزع العرش الدستورى فالأمر على الضدّ ، إنها تقويه وتمكنه فى أرض الوطن حتى اذا هددتنا الثورة ثانية كان

العرش الدستورى هاديها والتفت حوله جميع القوات الحية فى ايطاليا وسار على رأس هذه الأمة الى الغاية الكبرى » .

وفى أكتوبر سنة ١٨٥٠ عين كافور وزيرا للزراعة والتجارة مكان سانتا روزا فعمل على تنفيذ إصلاحات كبيرة لإنماء رفاهية البلاد واعلاء شأنها ونظم الجيش والأسطول ، ومد السكك الحديدية ، وعقد معاهدات تجارية مع فرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا كانت عاملا كبيرا فى تنشيط التجارة وزيادة الثروة وكانت أول خطوة فى سبيل المحالفات السياسية .

وفى سنة ١٨٥٢ عين كافور بعد استقالة أولى تبعتها سياحة فى الخارج وزير بيمون الأول فرسم برنامجه فى خطبة له : «على بيمون أن تبدأ بترقية نفسها فتهيئ لها فى أوربا وفى ايطاليا مكانة رفيعة تتناسب مع مطامعها ، ولتكن سياستنا المقبلة واحدة فى غايتها مرنة متنوعة فى وسائلها فيما يتعلق بنظام الجيش والسياسة الدولية والمسائل الدينية» .

ولأجل تحقيق هذه السياسة كان كافور يسعى فى :

(١) نشر عوامل التقدم والنهضة فى بيمون تحت ظل الحرية والدستور والنظام .

(٢) عدم الظهور فى أوروبا بمظهر زعيم ثورى لأن أوروبا كانت تكره الثورة خصوصا وان النمسا كانت تدعى أن بيمون ملجأ مشعلى النار فى أوروبا .

كان كافور فى داخل ايطاليا يحارب فكرة الثورات المحلية الانفرادية التى تفتح الأعين ولا تأتى بثمرة تذكر ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يعمل على الاستفادة منها سياسيا فى الخارج فيتهم النمسا بأن سياستها الخرقاء تهدد السلم فى ايطاليا وتولد الثورة فيها .

(٣) العمل على جعل تورينو مركز الحركة فى ايطاليا جميعها فكان فى خطبه يذكر ايطاليا كلما ذكر بيمون ، وكان يظهر فى صورة المحامى عن الطليان المظلومين فى الولايات المختلفة ، وكان يسهل لآلاف المنفيين فى بيمون طرق المعيشة سواء كان ذلك باعطائهم كراسى فى الجامعة أو وظائف فى الحكومة ، وكان فى الوقت نفسه متصلا فى السر بجميع قوى الثورة المنظمة فى ايطاليا ويشجعها ويدير حركاتها فى الخفاء .

(٤) التقرب من الدول والتحالف مع فرنسا لمساعدة بيمون على طرد النمسا من شمال ايطاليا .

وكانت مسألة المحالفة أساسية فى سياسة كافور ليضمن النجاح

أمام النمسا الكثيرة العدد والعدد، فلما حدثت الحرب الشرقية في القرم وأرادت انجلترا وفرنسا محاربة الروسيا سعتا في إشراك بيمون معها ووعدتها انجلترا باقراضها مليون جنيه فقبل كافور بشرط أن تكون بيمون ممثلة في جميع المؤتمرات التي تعقد بسبب الحرب وبشرط أن تعتبر بيمون حليفة لا مأجورة ، ولم يتمكن كافور من انفاذ خطته الجريئة الا بفضل وقوف فكتور عمانويل بجانبه ضدّ المعارضة التي كانت تعدّ عمله جنونا ، وقد أرسل كافور لامرمور منظم الجيش الى القرم ومعه ١٧٠٠٠ جندي أبلوا بلاء حسنا فيه شرف وفخار لبلادهم .

وفي سنة ١٨٥٦ عقد "مؤتمر باريس" ومثل فيه كافور بيمون فاحتل فيه بفضل سياسته الحكيمة المتفوّقة مكانة أعلى من المكانة التي تتناسب مع ولايته الصغيرة ، ورسم للمؤتمر أثناء انعقاده صورة الظلم السائد في ولايات البابا وفي ولاية نابولي وصرح «بأن السبب الأساسي هو النمسا عدوّة استقلال ايطاليا والخطر الذي يهدّد كيان الأمة الوحيدة الحرة فيها ، تلك الأمة التي لي الشرف بتمثيلها» .

ورغما من تأييد النمسا وانجلترا لكافور أبي ممثل النمسا أن يعد باجراء أي اصلاح في ايطاليا .

وبعد انفضاض المؤتمر قدم كافور مذكرة الى ممثلى فرنسا وانجلترا الكونت فالفسكى واللورد كلارندن ألقى فيها كل المسؤولية على النمسا المتعنتة التى تعمل بسياستها على خلق الثورة فى ايطاليا .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن النمسا بين سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٥٦ كانت مهيمنة على جميع ايطاليا وقد عقدت مع أمراء ولايات الوسط معاهدات تخول لها حق التدخل بالقوة عند حصول ثورة من السكان وحق احتلال البلاد فى حالة حرب .

حاول نابليون الثالث أثناء انعقاد المؤتمر مساعدة كافور على الخروج منه بمكسب مادى كضم بعض البلاد الايطالية الى پيمون فلم يفلح ، على أن هذا المؤتمر يعتبر ، رغما من ذلك ، نقطة أساسية جديدة فى تاريخ پيمون ارتكزت عليها المسألة الايطالية فى الأفق الأوربى ، واعترفت الدول عمليا بوجودها ، فصححت پيمون مركزها ، بصفتها صاحبة الحق فى الدفاع عن الطليان الذين هضمت النمسا حقوقهم ، وتقرر مبدأ شرعية الثورة التى لجأ وسيلجأ اليها الطليان ثانية تحت لواء پيمون لهدم الظلم القائم .

لما عاد كافور الى پيمون خطب فى مايو سنة ١٨٥٦ خطبة قال فيها : «ان القضية الايطالية أصبحت الآن أمام محكمة الرأى

العام» فاحتجت النمسا ضد ادّعاء كافور التكلم باسم ايطاليا واتهمت الوزير الجسور بالتحريض على الثورة .

وقد كان لعمل كافور فى المؤتمر أثر عظيم فى نفوس الأحرار فى ولايات ايطاليا فأرسلت اليه ولاية البابا مدالية ذهبية مكتوبا عليها بيت شعر لبترارك معناه : «ما تصنع هنا هذه السيوف الأجنبية العديدة ؟» .

وكانت النمسا فى آخر سنة ١٨٥١ أرادت تغيير سياستها فأرسلت الى مملكة لومبارديا وفنيسيا ماكسمليان حاكما عليها لإجراء بعض الاصلاحات ولكن ذلك ما كان ليهدئ ثائرة الأحرار الذين قال بلسانهم مانان وهو فى منفاه فى باريس : «إننا لا نطالب النمسا أن تكون أكثر رحمة بنا من ذى قبل وانما نطلب اليها أن تجلو عن ديارنا» .

استمر كافور بعد عودته من المؤتمر فى تنفيذ سياسته فبنيت حصون جديدة فى الاسكندرية ، ودعت جريدة وطنية فى تورينو الى فتح اكتتاب عام لشراء ألف مدفع توضع فى حصونها فوردت مبالغ جسيمة من الطليان فى جميع أنحاء العالم ، وفتح سرداب مون سينى وهو أجل الأعمال النافعة ، وأصلحت أرصفة ميناء جنوى فتجددت رفاهيتها ، وبلغ ما مد من السكك الحديدية

بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٨ — ٩٩٠ كيلوم ، ونظم الجيش والأسطول .

كان مانان زعيم فينيسيا فى باريس يقول : « إن فى ايطاليا قوتين حيتين : جيش بيمون والرأى العام » ولا شك فى أن سياسة كافور كانت تدور حول هاتين النقطتين اذ بينما كان يعد الجيش فى بيمون و يزيده عمل جهده ليحوطه بقوة الرأى العام الايطالى ، هذه القوة الأدبية التى لا بد منها لتحقيق الغاية .

ولكن لأجل كسب الرأى العام كانت الحاجة شديدة الى قوة منظمة روحها العقيدة والالهام : كانت هذه القوة ممثلة أحسن تمثيل فى مانان وفى "الجمعية الوطنية" التى انشئت فى تورينو تحت رعايته وكان كافور اطلع على سرها عند تأسيسها بواسطة لافارينا ، شعار هذه الجمعية : «الاستقلال والوحدة ، طرد النمسويين والبابا» وكان كافور يرى كل صباح قبل طلوع الفجر لافارينا و يتفق معه على خطة السير .

وفى سنة ١٨٥٧ عين بالافيسينو صديق مانان وناشر مبادئه فى ايطاليا رئيسا للجمعية وجاريبالدى وكيلا لها ، فأكسبها اسم بطل مونتفيديو قوة وحياة بين طبقات الشعب .

وفى يناير سنة ١٨٥٨ جرت حادثة "أورسينى" الذى حاول أن يقتل نابليون الثالث فى طريقه الى الأوبرا زاعما أن خلاص ايطاليا متوقف على موت ذلك الرجل المستبدّ ، ويظهر أن هذا الحادث أثر فى نفس الامبراطور فاعتزم أن العمل ودعا كافور للقائه سرا فى بلومبيير بجبال القوج فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٥٨ واتفق معه شفويا على مساعدة بيمون بجيش قدره ٢٠٠٠٠٠ ضدّ النمسا بشرط ألاّ تكون الحرب لخدمة فكرة ثورية إذ لا بدّ من مبرر سياسى فى أعين الدول ، وبشرط أن تضم سافواى ونيس الى فرنسا .

من ذلك الوقت استخدم كافور "الجمعية الوطنية" لنشر الدعوة لبيمون وجمع المتطوّعين من جميع أنحاء ايطاليا استعدادا للحرب المقبلة ، وأشار كافور على الجمعية منعا لكل خلاف بابدال شعار الاستقلال بالوحده ولعل هذا التغيير كان فى الظاهر ، وفى سنة ١٨٥٨ قدّم لافارينا جاريبلدى الى كافور ليكون واقفا على مايحدث وليأخذ أشبته .

وكان الأحرار فى الولايات وخصوصا فى لومبارديا تغتلى فيهم الوطنية ويترقبون بفارغ الصبر حرب الحرّية والاستقلال .

وفى أثناء استقبالات رأس سنة ١٨٥٩ أظهر الامبراطور لسفير النمسا فى باريس أسفه لأن العلائق بين البلدين ليست

حسنة كما كانت من قبل فكان لهــذا التصريح فى الدوائر السياسية مغزى كبير .

وفى ١٠ يناير ألقى الملك خطبة أعدّها له كافور بمناسبة افتتاح البرلمـان جاء فيها : «إن الحالة ليست خالية من الأخطار وإننا وإن كنا نحترم المعاهــدات ولكننا لا يمكننا أن نصم آذاننا عن صيحة الألم (Grido di Dolore) التى تصــعد الينا مــن بلاد بعيدة فى ايطاليا .

« أقوياء فى بلادنا ، واثقين بعــدالة قضيتنا ، ها نحن أولاء نترقب بالحكمة وصادق العزم أمر الله سبحانه » .

كانــ لهاتين الكلمتين "صيحة الألم" صدى ردّدته ايطاليا واهتز له الرأى العام من كل جانب .

ولكن نابليــون بدأ يتردّد تحت تأثير الدول وطلب الى كافور المجىء للقائه فى باريس (٢٦ مارس) ورجاه أن لا يعجل بالحرب فخشى كافور أن تفلت الفرصــة من يده وهــدّده بخوض غمــار الحرب وحده وبافشاء أسراره ومما قاله له : « عنــدنا اليوم قوّة أدبية تعدل جيشا ، اذا فقدناها لم نجد من يردها الينا » ، هذه القوّة الأدبية التى يعنيها كافور هى قوّة الرأى العام .

ومن ثمة كان شغل كافور الشاغل إيجاد "المبرر السياسي" الذي اشترطه نابليون، وكأنما أرادت النمسا أن تتكفل هي بخلقه إذ طلبت الى بيمونت إيقاف التسليح فأخذ كافور في مراوغتها ومضايقتها بأساليبه السياسية الدقيقة حتى ضاق ذرعها وأرسلت في ٢٣ أبريل الى حكومة بيمون بلاغا تتقدم اليها فيه بنزع السلاح في الحال والرد في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام .

كان هذا البلاغ بمثابة إعلان حرب وغلطة سياسية كبرى حملت النمسا وزرها ، روى أن كافور قال عند استلامه البلاغ لبعض أصدقائه : «قضى الأمر وكتبت لنا صحيفة في التاريخ ، فلنمض الى العشاء» .

وفي ١٣ مايو تقابل الملك في جنوى مع الامبراطور الذي جاء «ليحرر إيطاليا من جبل الالب الى الادرياتيك» ، وفي ٤ يونيه انتصر الحلفاء على النمسا في ماجنتا ودخلوا ميلانو في الثامن منه ، وفي يوم ٢٤ انتصروا انتصارا كبيرا في سولفرينو وسان مارتينو ، وهنا وقفت رحى الحرب فجأة وذهب نابليون على غرة للقاء الامبراطور فرنسوا جوزيف في «فيلا فرانكا» حيث عقدت بينهما هدنة تقرر بمقتضاها ضم لومبارديا الى بيمون وترك فينيسيا للنمسا .

آلم هذا النبأ الغير المنتظر جميع أحرار الطليان في فينيسيا ومودين

وتوسكانه وعدّ كافور هذا العمل من الامبراطور خيانة وحاول أن يقنع الملك بعدم الموافقة على شروط الهدنة فلم يفلح فاستقال ومضى الى مزارعه فى اليرى، ويقال أن هذه أوّل مرة تغلب فيها سلطان الغضب على ذلك العقل الراجح .

ذهب كافور بعد ذلك الى سويسرا وهناك وسع برنامجه وجعله كبرنامج مانان : « إنهم يتهموننى — يقول كافور — بأننى رجل ثورى ولكن يجب قبل كل شيء أن نسير الى الأمام، وسنسير» .

ولما عاد الى وطنه وكانت "الجمعية الوطنية" قد تكوّنت من جديد — بعد انحلالها فى أوّل الحرب لترك زمام الحركة لحكومة بيمون — أخذ يعمل بواسطتها على نشر الدعوة فى إمليا وتوسكانه للانضمام الى بيمون .

وفى ٢٠ يناير سنة ١٨٦٠ دعاه الملك لرئاسة الوزارة إجابة لرغبة الرأى العام، ويمكن القول بأن كافور بعد صلح فيلافرانكا مسك بزمام الثورة صراحة وعدا بها عدوا جريئا فى طريق الوحدة والاستقلال ، عانه على ذلك تقرير نابليون فى الصلح مبدأ عدم التدخل، واحتجاج انجلترا على سياسة النمسا وسعيها فى جذب الحركة الايطالية اليها لا سيما وأن الطليان أصبحوا ساخطين على فرنسا ،

وقد عرف كافور كيف يستفيد من الخلاف بين الدولتين وأجرى فى الحال استفتاء عاما (Plebiscite) فى ولايات الوسط تأكيدا لمبدأ القومية الذى نادى به نابليون وارضاء له فأعلنت ولايات توسكانه والرومانية ومودين وبارم بواسطة جمعيات منتخبة انضمامها الى مملكة الشمال فى ظل عمانو يل .

وفى ٢٤ مارس سنة ١٨٦٠ أمضى كافور — والأسى ملء فؤاده — مع مندوب فرنسا معاهدة تعطى سافواى مهد الأسرة الحاكمة ونيس وطن جاريبلدى الى فرنسا بشرط أن يوافق سكان المقاطعتين والبرلمان الايطالى على ذلك، وفعلا تمت هذه الموافقة فى أبريل فدل الطليان بهذه التضحية على تشبعهم بالروح السياسية العالية .

كافور وجاريبلدى — أخذت أنظار الطليان بعد اندماج ولايات الشمال والوسط فى مملكة واحدة تتجه الى الجنوب، وبينما كان البابا يحشد الجند تحت قيادة لامورسيير استعدادا للطوارئ، وفرنسوا الثانى ملك نابولى يتهيأ لمساعدة البابا لاسترداد الولايات المفقودة أشعل المزينيون نار الثورة فى مدينة بالرم بجزيرة صقلية فاتفق لافارينا سرا مع كافور على إرسال حملة الى الجنوب يرأسها جاريبلدى وأمده بالمال اللازم وبعدد كبير من بنادق

الحكومة ، وقد بذل كافور جهده فى تغطية مسئولية حكومة بيمون أمام الدول المحتجة .

ويجدر بنا الآن أن نقول إن كثيرا من المزينيين كانوا يتوهمون أن كافور ليس من أنصار الوحدة الذين يعتمد عليهم ، والحقيقة أن سياســة كافور كانت عمليــة تتنوع بحسب الظروف فاذا رأى أن فى إمكانه مثلا الذهاب فى طريق الوحدة الى مدى أبعد مما كان يعتقده لم يتردد لحظة واحدة ، وكافور هو الذى قال بعــد معاهدة فيلا فرانكا : «إنهم منعونى من بناء إيطاليا بالسياســة من الشمال وسأبنيها بالثورة من الجنوب» .

وفى مساء ٥ مايو غادرت حملة جاريبلدى المسماة "حملة الألف" مدينة جنوى الى بالرم التى كانت خير عون للثــائرين ، وفى يولية امتدت الثــورة فى صقلية وقلبت حكومة البوربون فيهــا ، وأعلن جاريبلدى فيها دكتاتوريته باسم الملك فكتور عمانويل فأعلن نابليون استياءه فأوعز كافور الى الملك بإرسال كتاب رسمى الى جاريبلدى ينصحه فيه بالعدول عن عبور بوغاز مسينى ، ولكن كافور فى الوقت نفسه أرسل فى السر الى جاريبلدى بواسطة صديقه القائد برسانو كتابا يقول له فيه : «انه لا يجــوز الوقوف فى منتصف الطريق» وسرعان ما عبر جاريبلدى البوغاز فى ليلة ١٩ أغسطس .

وفى أثناء ذلك كان كافور يعمل بكل الوسائل على خلق الثورة فى مملكة نابولى مستعينا بسفير بيمون فيها ، وفعلا ثارت ولايتها واضطر ملكها فرنسوا الى الفرار فى مدينة جيت فى ٦ سبتمبر ١٨٦٠

وفى غد ذلك اليوم دخل جاريبلدى نابولى دخول الفاتحين والناس بين مهلل ومكبر .

ولما كانت الدول هائجة تحتج أرسل كافور الى جاريبلدى ينصحه بالتعجيل باعلان ضم مملكة نابولى الى بيمون لتكون الدول أمام أمر واقع فأبى جاريبلدى ، الذى كان وقتئذ ألعوبة المزينين المحيطين به ، بحجة أنه يريد إنقاذ روما أوّلا — مع علمه بوجود جيش احتلال فرنسى فيها — واسترداد نيس من فرنسا .

ولقد صدق مانزونى إذ قال : «إن الذى يعطى لسياسة كافور هذا الشأن الأوّل هو أنها جمعت بين التبصر وعدم التبصر» وهل أدل على ذلك من كون كافور لما رأى أن سياسة جاريبلدى وحزب الثورة قد تنكبت سبيل الحكمة وأصبحت تهدّد القضية قرر فى الحال — رغما من المركز الدولى الدقيق — أن تمسك حكومة بيمون نفسها بزمام الثورة لتحسن سياستها وتوصلها الى غايتها .

وفى أقل من عشرين يوما فى سبتمبر خرج جيش بيمون من

الحدود واحتل ولايتى مارش وأومبريا من ولايات الكنيسة وهزم جيش البابا ، وقد اقتنع جاريبلدى أخيرا بضرورة الضم وبعد تصويت عام فى مملكة نابولى وصقلية أعلن أهلوها الانضمام الى ملكية فكتور عمانويل فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٦٠ وقضى على حكم البوربون فيها .

وكانت انجلترا هى الدولة الوحيدة التى اغتبطت بانتصار الثورة الايطالية فبعث وزير خارجيتها الى السفير الانجليزى فى تورينو بكتاب ذكره المؤرخ بيتراورسى فى مؤلفه جاء فيه : «يجب أن نعترف بأن الثورة الايطالية سيست بروح تسامح واعتدال لا نظير لهما ، فان سقوط الحكومات القائمة لم يعقبه كالعادة انطلاق سورة غضب شعبى ، ولم تتغلب فى بلد ما آراء الديموقراطيين المتطرفة بل حال الرأى العام دون مظاهر المغالاة التى تصحب كل انتصار شعبى ، ولقد دققت حكومة جلالة الملك النظر فى مقدمات الثورة الايطالية ونتائجها فلم تجد فيها ما يبرر التأنيب الشديد الذى وجهته حكومات النمسا وفرنسا وروسيا الى أعمال ملك بيمون ، وإن حكومة جلالة الملك لتفضل أن ترى ذلك المنظر الرائع ، منظر شعب يعلى بناء حريته ويوطد دعائم استقلاله وسط عطف أوروبا ودعواتها الطيبات » .

وفى أواخر أكتوبر قصد فكتور عمانويل مدينة نابولى فذهب جاريبلدى للقائه فى طريقه ببلدة فى إقليم كازرتا ثم ذهبا معا الى نابولى ودخلاها فى ٧ نوفمبر بين الهتاف والتهليل ، وهناك أعطى ذلك الجندى العظيم مثلا عاليا للوطنية الصادقة اذ سلم القيادة الى ملك بيمون وعاد وحده للانزواء بجزيرة كابريرا .

وبعد ذلك أتم الجيش النظامى العمل الذى قام به المتطوعون فاحتل الجهات والحصون القليلة الباقية .

وفى فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع فى تورينو أول برلمان ايطالى ، وفى ١٤ مارس نودى بفكتور عمانويل "ملكا لايطاليا" فأصبح حاكما على ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس .

فينيسيا وروما — لم يبق الآن أمام الطليان لتحقيق وحدتهم واستقلالهم الكامل إلا فينيسيا وروما وهما مشكلتان صعبتان لأن الأولى منهما تستدعى حربا جديدة مع النمسا بدون نابليون الذى كان تحت تأثير الاكليروس عدو الوحدة ، والثانية وعرة الطريق نظرا لمركز البابا فى العالم الدينى ووجود جيش فرنسى فى روما .

أخذ كافور لأجل حل مشكلة فينسيا يفكر فى محالفة جديدة

وكان قد أرسل فى سنة ١٨٦١ الفونس لامرمورا الى غليوم ملك بروسيا ليخبره «بأن الطليان اعتادوا على اعتبار بروسيا حليفة طبيعية لهم» ، وزيادة على ذلك فان كافور فى تلك السـنة عينها التقى مع زعيم الثورة المجرية فى سنة ١٨٤٩ كوسوت وتحالفا على تحرير المجر وفنيسيا معا من قبضة النمسا .

أما المشكلة الثانيـة فيظهر أنه اعتمد فى حلها على السياسـة وأساليبها المرنة .

فى ١٠ أكتوبر سـنة ١٨٦٠ أعلن كافور فى البرلمـان « أن روما التى ورثت مجـد ٢٥ قرنا لابد وأن تصبح عاصمة مملكة ايطاليا » . وتناقش البرلمـان فى المسألة لغاية ٢٧ مارس فألقى كافور فى ذلك اليوم خطبته الشهيرة التى أعلن فيها مبدأ « الكنيسة الحرة فى الحكومة الحرة» وأيد البرلمـان الوزير الكبير فى خطبته .

ولكن بينما كان كافور يعمل على إتمـام البناء مرض فمـات فى ٦ يونيـه سنة ١٨٦١ مبكيا عليه من مواطنيه الذين جمع شملهم ورفع لواءهم وجعلهم أمة ، وبعد موت ذلك الرجل الذى قال عنه مازينى : « إنه وطنى فى صميم الفؤاد » ، وقال عنه سير روبرت بيل « إنه أكبر رجل قاد أمة فى طريق الحرية » سار الوزراء الذين خلفوه ـــ وما أبعد المدى ـــ على النهج الذى رسمه لهم .

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٦٤ اتفقت فرنسا مع إيطاليا على جلاء الجنود الفرنسية عن روما بشرط أن لا يتعرّض لها وأن يجعل الطليان عاصمتهم فلورانس، وقد تم ذلك سنة ١٨٦٥ وهى السنة التى احتفلت فيها إيطاليا من أقصاها الى أقصاها بالعيد المئوى السادس لميلاد دانت أوّل شاعر إيطالى كان له أثر فى الحركة الاستقلالية.

ولما كان بسمارك يريد طرد النمسا من ألمانيا سعى فى الاتفاق مع إيطاليا فتحققت بذلك فكرة كافور وأمضيت محالفة سرية بين روسيا وإيطاليا فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٦

ابتدأت الحرب فى ٢٠ يونيه فهزم الطليان فى البر والبحر ولكن انتصار بروسيا ساعدهم على الخروج من الحرب بالغنيمة ففى ١٤ أغسطس أمضيت معاهدة براج التى سلمت النمسا بمقتضاها فينيسيا الى نابليون الثالث الذى قرّر بصفته وسيطا تركها لايطاليا بشرط موافقة السكان، وقد وافقوا بالاجماع فى ٢١ و٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦

اهتم الطليان بعدئذ بحل مشكلة روما التى تعقدت منذ القانون الذى كان أصدره البابا فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ضدّ حرية الصحافة وحرية التعليم وجميع مظاهر التقدّم الحديث؛ ولما يئس الطليان من سياسة اللين ذهب جاريبلدى مع فرقة من المتطوّعين

للهجوم على روما رغماً من تهديد نابليون بالتدخل لحماية البابا فاضطرت الحكومة الى القبض عليه فتمكن من الهرب وعاد ثانية قاصداً روما والتقى بالفرنسيين فى طريقه فسالت الدماء وهزمت حملتـه واضطرت الحكومة الايطاليـة من جديد الى إرساله الى كابريرا .

وعبثا حاول الطليان اقناع نابليون بالتزحزح عن موقفـه إزاء المشكلة الرومانيـة ، صرح روهر وزير فرنسا فى ذلك الوقت بأن فرنسا « لن تتحمل أى اعتداء على شرفها وعلى الكاثوليكية وان إيطاليا ستجد فرنسا فى طريقها الى روما يوم تغزو ولايات البابا » .

فلم يكن بد من الانتظار حتى حرب السبعين وسقوط الامبراطورية ، وقد كتب فكتور عمانويل ثانيـة الى البابا يرجوه رجاء بنويا أن يتخلى عن السلطة المدنية فلم يقبل ، فعوّل الملك على الالتجاء الى القوة ، وفى ٢٠ سبتمبر كانت الجنود الايطالية فى روما نفسها ، فبادر سكان ولايات البـابا باعلان انضمامهم الى حكومة فكتور عمانويل فى ٢ أكتوبر سـنة ١٨٧٠ وزالت بذلك أكبر عقبـة فى طريق الوحدة التى كانت أسـاس الحركة الاستقلالية فى إيطاليـا .

الكتاب الرابع

الفصول

دقات الساعـــة

الآن وقـد عسعس الليل وهمس النسيم فى آذان الربى وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان طويت الكتاب طلبا للهجعة كى أصبح موفور البدن فمـا كدت أطفئ المصباح وتأخذنى سـنة من النوم حتى أرنت السـاعة الدقاقة فنابتنى رعشـة ونبا بى المضجع ونفى السهـاد أثارة من الكـرى علقت بأجفانى بعـد ما هجع الطـير والحيوان .

تنصف الليل ومر بعد وهنة ساعتان كما خبرتنا "ناعية الزمن" فتذكرت قول مدرس العربيـة منذ ستة أعوام تجرمت وترادفت ترادف الموج فى محيط السنين والأيام إن من أقسام المفعول المطلق ما يكون بيانا لعدده نحو : «دقت الساعة دقتين» .

أجل ، كرر الأستاذ مرارا هذا المثل فمـا كنت لأهتم له وكم دقت الساعة فى ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقاتها فى أذنى كتغريدة الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع فى خمائل الشـباب النضر وما الشباب عندى إلا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد ميدان الكفاح ولم نذق صاب الحياة وعلقمها .

وإنى لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعــلم الرماية وأنا كالدائرة التي مركزها الغرض، وما الغرض إلا القلب، وسهامه دقات الساعة يرسلها فتطيش وتحلو رنة القوس وهى تطلقها .

أما وقد تبدّلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد وشبنا من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان وجاء زمن اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمرّ ترسل اليه سهما من جعبة الآلام لايشذ عن الرميّة حتى اذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسـود ودرج الليل فى أكفان الصباح أحسست بأن فى فؤادى اثنى عشر سهــما فوهبت الى نسمات الصــبح زفـراتى والى نداه عبراتى .

لو لم يكن فى دقات الساعة إلا تذكرة بمــا مر من نهار الحياة وتهديد بما سنلقاه لقلت حسبي بذلك ألمــا، وما أنس لا أنس قول بعض الغــافلين : « علام تبكى المــاضى وتحنّ اليه بعد ما نفضت يديك من ترابه، ورجع المشيع، وفى الآتى كفاية » .

أجل ، رجعنــا فراغ الأيدى ملاء القــلوب ، ولو علموا أنّ المستقبل إن هو إلا جزء من المــاضى، وأننا اذا بكينا المــاضى فانما نبكى على المستقبل، وان الغد أخو اليوم، والساعة أخت الساعة

والدهر أبو الجميع، وقد تحالفت جميعا على الغدر لقالوا معنا إنا لله وإنا اليــه راجعون .

تروعني دقات الساعة وأشـعر منها بوحشة وانقباض ويخيل إلىّ أنها صدى أقدام عدوّ شـديد البأس صعب المراس خلقه الله شفافا كالهواء، كما خلق بعض الحيوان بلون الصخر والرمال، إلا أن الأمر على الضدّ فالأول يتخفى ليصيد والثـانى أجل أن لا يصاد وما نشعر إلا وقد أصمى سهمه فى الساعة الأخيرة فأجهز على البقية الباقية : ذلك هو الموت، فانا لله وإنا اليه راجعون .

الأهرام فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٣

موليـــــــير

غدا ١٤ يناير يحتفل رسميا فى السربون وفى فرنسا من أقصاها الى أقصاها بذكرى موليير الذى ولد فى ١٥ يناير سنة ١٦٢٢

وستمثل فى مرسح "الاوديون" بباريس حتى آخر هذا الشهر كل ليـلة رواية لموليير، أما باقى المراسح فى باريس والمقاطعات فستمثل على الأقل فصلا كل مساء .

وفى شهر أبريل تقام حفلات الذكرى فى أنحاء أمريكا كلها فوجب علينا ، نحن المصريين ، أن نحيي ذكراه لأنه ليس نابغـة الفرنسيين فحسب ، بل أحد النوابغ الذين يفخر بهم العالم بجميعهم ماء تحدر من غمام واحد ان افترق نسبهم ألف بينهم أدب أقاموه مقام الوالد .

وما أصدق كلمة الفيلسوف تين فى كتابه الفذ عن "لافونتين وقصصه" إذ قال : «إن موليير ولافونتين هما غير مدافع العبقريان اللذان يمثـلان أحسن تمثيل الفكرية اللاتينيـة والروح الفرنسية الأصلية» . ومعنى ذلك أنك تجد فى قصص لافونتين — التى ترجمها عثمان جلال وسماها العيون اليواقظ — وفى روايات موليير — وقد

ترجم منها الى العربية الشيخ متلوف ومدرسة النساء ومدرسة الأزواج والزواج القهـرى — أكبر علامات النبوغ اللاتينى وهى الوضوح وحسن الترتيب وأكبر مميزات الروح الفرنسية (Esprit gaulois)، وهى تشبه الروح المصرية المولعة بالمزاح، المستهترة فى الظاهر بكل شىء، الهازلة فى مواطن الجد وربما كان هزلها جدا، تلك الروح التى اذا حملتها من الحوادث أثقلها ابتسمت ففرجت عن همها وكان ذلك منها عنوان الجلد والثبات، الضاحكة أمام الموت .

وهـل أدل على نبوغ أمة من هذه النكات التى تفيض بهـا المجالس وتقع من نفوس الحضور مواقع المـاء من ذى الغـلة الصادى فلطالمـا حوت الحكمة العاليـة التى يغوص عليها الكاتب والشاعر أو الوصف الجامع البليـغ لحادث من الحوادث أو لرجل من الرجال أو لحالة من الأحوال أو لأمة من الأمم .

تلك المعـانى الجلية التى تخاطب الروح قبل الأذن هى ثمرة الذكاء الفطرى والتجارب والمشاهدة، وهـذه الصفات الثـلاث اجتمعت فى موليير فأحسن تعهدها واستثمارها فعم خيرها وحصادها فاذا أردنا أن نتفهم قليـلا سر ذلك النبوغ العظيم وجب علينا أن نستعرض عصر موليير وحياته وأعماله .

عصـــر موليـــير :

عاش موليـير فى باريس (١٦٥٨ — ١٦٧٣) فقضى فيهـا أعوام المجد الوارفة ظلاله وذاق مر العيش وحلوه فى وقت كان فيه لويس الرابع عشر يرتع فى بحبوحة الشباب وشباب الملك فلقد كان العصر الأول (١٦٦٨ — ١٦٧٥) من حكمه هادئا مطمئنا لم تكدر صفاءه ويلات الحروب وفادح الدين وما أشبهه بأوائل حكم اسماعيـــل .

كان الملك وأتباعه من حاشية وأعيان لاهين بين الناى والعود وكان الشعب على دين أمرائه يلهو بمـا يسوقون اليه من أعيـاد وأفراح، وكان موليير مقتربا من الملك فنزح مع الغواة بدلوهم وكان خير من لها ومتع بالحياة، ولكن عصارة لهوه كانت ألمـا، فانه وهو اللبيب الثاقب البصر قلب طرفه فى ذلك المجتمع فاخترق نظره تلك الحجب الكثيفة، المدهونة بالطلاء، الملوّنة بالرياء، فاذا الحية كامنة فى الرياض، واذا عامر النفوس كان خرابا، واذا المجتمع كالبغىّ قد انطوت نفسها على الحقد والبغضاء ولكنها تقبـل عليك فى أحسن حلة تضحك وتغنى .

وقد صوّر موليير ذلك المجتمع أحسن تصوير فى قالب هزلى شف عن ألم دفين، ومما ضاعف الألم أن موليير لم ينكب بحياة

المجموع الذى كان حوله ، فحسب بل فى حيـاته الفردية ، فى داره ومعاشه إذ خانته زوجه ومات له طفلان فضرب الأسى على جميع أوتار فؤاده لاسيما فى آخر العمر وقد مال ميزان النهار واشتبه الأمر .

حيـاة موليـــير :

ولد چان باتست بوكلان فى باريس فى ١٥ يناير سنة ١٦٢٢ وكان أبوه جان بوكلان تاجر أبسطة وخادما فى غرفة الملك ، وقد تعلم فى صغره مبادئ الفلسفة والحقوق ، ولكن علمه الصحيح كان ثمرة التجارب والمشاهدة ، وكان فى شبابه شـديد الميل الى التمثيل فتعلق به ، ويقـال أنه صحب لويس الثالث عشر فى سـياحته فى جنوب فرنسا سنة ١٦٤٢ وتعرف فى طريقه بالممثـلة " مادلين بيجار " التى عشقها زمانا ثم تزوج ابنتها .

ولم تكن مادلين محمودة السيرة ولكن موليير افتتن بهـا وتبعها أينما حلت وأسس معها فى باريس سـنة ١٦٤٣ "المرسح الشهير" ولكنه لم يوفق فى عمله فذهب الى مقاطعـة " الجويان " حيث انتظم هو ومن معه فى سـلك جوق التمثيل الذى كوّنه الدوق " ديبرنون " ثم ذهب فى سنة ١٦٥٣ الى مدينة ليون وأخذ يتنقل بعـدئذ بين المقاطعات الفرنسـية ومدنها الكبرى كليون ومونبلى وافنيون وديچون وجرينوبل للتمثيـل الهزلى تارة أمام الأمير

والأميرة دى كونتى ، وأخرى أمام مجالس المــديريات التى كانت تجتمع من وقت لآخر، وكانت فى زمن انعقادها بحاجة الى اللهــو والسرور .

فى سنة ١٦٥٨ عاد موليير ومادلين بجار وجوقهما الى باريس فشملهما أخو الملك بعنايته ومدّهما بماله وقوّته ، فما كاد ينصرم عاما حتى مثل موليير أمام الملك والجمهور الباريسى رواية "المتصنعات السخيفات" (Les Precieuses Ridicules) وهى أوّل صورة لمجتـــمع ذلك العصر رسمها موليـــير وشهر فيهـــا بالنساء اللواتى كن يتكلفن فى مشيتهن وخلقهن وحديثهن ، وكانت هـــذه الرواية أوّل كوميديا حقيقية تمثل الحياة المرئية المحسوسة ، وفاتحة عصر روائى جــــديد .

وفى ســنة ١٦٦٤ تزوّج موليير بابنـــة صاحبته مادلين واسمها "ارماند بجار" وكانت فى العشرين من عمرهـــا ، أما زوجها فقد جاوز الأربعين .

وكانــــ هذا الزواج مدعاة للقيل والقال ولا شك أن هذه الغلطة قد نغصت على موليير حياته فكانت فى الخارج مطعنا ظفر به أعداؤه وهم كثر وفى الداخل مبعثا للأسى والألم لا تنضب له عين . ولقد خانته زوجه وبقيت فى عزلة عنه أربعة أعوام كاملة

فأتى على موليير حين من الدهر كان يتجلد ويسعى جهده فى نسيان آلامه وأحزانه مرخيا لنفسه العنان طورا فى ميدان العمل، وطورا فى ميـدان اللهو والتصابى كما يفـعل رجال المراسح ولكنه فى آخر عمره وقع صريع الحزن والمرض .

روى جريمارست فى كتابه "حياة موليير" أن موليير أفضى لصديق له سنة قبل موته (١٦٧٢) بمـا يأتى :

«لقد تزوّجت بدون تبصر فاستحق كل ما أصابنى، إن امرأتى خفيفة مجرى الروح ، لعوب، مولعـة بإظهار رشاقتها وكل ذلك يولد فى نفسى القلق واليقظة المتناهية على الرغم منى، تلك المرأة التى هى أرجح منى عقلا مائة مرة تريد أن تمتع بالحيـاة، وهى تسلك سبيلها معتمدة على طهارة نفسها لا تعبأ بارادتى واحتياطاتى مما أشد لوعتى وأحزانى، ولطالمـا سعت جهدها كالنساء كافة فى اجتذاب ثناء الناس وإعجابهم، وليس لها غرض خاص، فكانت تضحك من ضعفى» .

وفى ١٧ فبراير سنة ١٦٧٣ — أى ثلاثة أيام قبـل موته — كان موليـير يشكو ويتوجع أمام امرأته : «طالمـا كانت حياتى ممزوجة على السواء بالألم والسرور كنت أخالنى سعيدا ولكن اليوم وقد أعيانى الداء، ولم أجد ساعة حلوة فيهـا عزاء وسلوى، أرانى

مضطرا الى ترك باب الرجاء وليس فى مقدورى الآن احتمال صـدمات الآلام المتتابعة التى لاتفتأ تهجم على ، ولكم تألم الانسان قبل أن يفارق الحياة ، وهأنذا أشـعر بأنى أخطو آخر خطوة بينى وبين الموت » .

ورغما من مرضه فان موليير فى ذلك اليوم طلب أن تمثـل للمرة الرابعـة رواية "المريض الخيالى" فأرادت زوجه أن تمنعـه فأجابها : « ماذا تريدين؟ أن هناك خمسين عاملا فقراء يتكسبون قوت يومهم فما يصنعون حال امتناعنا ، وهل تريدين أن أحرمهم من القوت يوما واحدا؟ » .

وسواء أكان الدافع الحقيق الى ذلك الرحمة المتدفقة من فؤاده أم حب العمل كما يقول اميل فاجيـه « فان موليير كان غنيا وكان فى امكانه دفع أجر اليوم للخمسين عاملا بدون تحمل المشقة والعناء» فمن الثابت أن موليير كان محبا للعمل وكان كبيرالنفس رحيما .

ولقد تغلب الداء عليه أثناء التمثيل فحملوه الى منزله فأخذ يقىء دما الى أن صعدت أنفاسه الأخيرة فى ٢١ فبراير سنة ١٦٧٣

تلك حياة موليير المترعة بالألم والعمل فلقد ألف فى ثلاثة عشر عاما ما يزيد عن خمس وعشرين رواية أكثرها من الخالدات

والانسان، كما يقول الفريد دى موسـيه، تلميذ أستاذه الألم، وكذلك الشعوب لايهذبها ولا ينضج مواهبها إلا الألم .

فاذا كنا اليـوم نحيي ذكرى موليـير فاننا نعطى بتلك الذكرى للشعب المصرى المثـل الأعلى للعمل البـاقى الذى تنتجه التجارب والآلام ، والانتباه الى حقائق الحياة دقيقها وجليلها ، والجلد على الشدائد، والصبر على المكاره .

وما أحوجنا اليوم الى إحياء ذكرى ذلك الرجل العظيم الذى عاش فعمل ولم ييأس، ومات فأخذنا من موته معنى الحياة .

الأهرام فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٢

مصر حيرى

من المؤلم جدّا أن يدقق الانسان النظر فى حالة مصر اليوم فمهما حملنا أنفسنا على حسن التفاؤل بالمستقبل ، ومهما حاولنا الوصول الى استنباط حسن العاقبة مما يحيط بنا من الحوادث ، فالحقائق التى تصدمنا اليوم ، والتى صدمتنا أمس وأول أمس ، ربما تضعف فينا روح الأمل ، ولقد أصبح الكثيرون منا على مذهب بعض الفلاسفة المحدثين الذين لا يرجون كثيرا من الحياة الدنيا ، ولكنهم أقوياء النفوس والعزائم لا يثنيهم ضعف رجائهم عن العمل .

أجل ؛ ليكن شعارنا العمل فى ظلمة الأمل ؛ فالعمل خير مؤنس فى تلك الوحشة ، وأخلق بمن وطنوا النفس على احتمال أذى الدنيا فى سبيل أصعب الغايات منالا أن يعملوا فصعب العلا فى الصعب .

ولقد كان أحد قياصرة الدولة الرومانية ، ولعله سبتيم سيفير ، يقول «لنعمل» (laboremus) ، وكان لقوله مغزى كبير فى ذلك الوقت الذى رأى فيه بعينيه تلك الدولة العظمى وقد ظهرت فيها عوامل الفساد ، ودبت فيها روح الانقسام ، ورأى بعينيه فى وجهها

تسرب المشيب خلال بقايا الشباب ، فما كان أشدّ لوعته ولكن ما كان أكبر شجاعته وهو يقول : « لنعمل » .

أجل ، لنعمل مهما داخل الشك نفوسنا ، ولنعمل للعمل فى ذاته ، للعمل الصامت الذى يستمدّ وحيه من الواجب ، للعمل المنتج الذى لا ينتظر جزاء ولا شكورا ، للعمل الصحيح الذى ينتسب الى الوطنية الصحيحة .

وإن من يرجع البصر كرة فى حالتنا فى الداخل والخارج لا يسعه إلا أن يأسى على مافات ، ويتوجس خيفة من الغد ، وما مثل مصر اليوم إلا مثل السفينة ألحت عليها الأنواء والرياح من كل جانب فهى مضطربة حائرة ، والمصريون فى أثناء ذلك ، بدلا من أن يفكروا فى نجاتهم ويعملوا على خلاصهم فى ذلك المضطرب الواسع ، تتجاذبهم الشهوات الحزبية وتلعب بهم لعب النكباء بالعود حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت ، وأصبح أفقهم أضيق من سم الخياط لأنه أفق رسمته لهم السياسة الشخصية التى تسدّ على الناس سبل الحق الفسيحة ، وتضلهم من حيث لا يشعرون .

وكل منهم يريد أن يكون ربانا ، وكل منهم اذا رفع اللواء رأيته تحت اللواء زعيما ، وكان لابد أن يسود النظام وسط هذه الفوضى ، النظام كما نفهمه نحن — لا كما يفهمه الخصم — النظام الذى يجمع

الكلمة و يوحد الغاية والذى لاتقوم له قائمة إلا اذا كان هناك تيار من الرأى العام قوى منظم لا ينشعب عنــد كل ملمة ، ولا يحدث فيه فلولا كل مضلل خداع .

وليتق الله حملة الأقلام فى مصر فان على أكتافهم تقع المسئولية الكبرى ، وليحاسبوا ذمتهم على كل سطر وكل كلمة يخطونها لأن مصر تجتاز ساعة عصيبة فى تاريخها ، فرب كلمة تهور أو كلمة استسلام أدخلت السم فى عقلية فريق من الأمة فألحقت بها ضررا بليغا .

فمن الاستسلام المنكر أو مايشبهه قول بعضهم أن ليس عنــدنا جيش ولا أساطيل نرغم بها الخصم على ردّ ما اغتصبه من حقوقنا ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم فاننا نعلم ذلك علم اليقين ، والخصم أيضا يعلم ذلك ، ولكنه لا يمكنه أن يتجاهل أبد الآبدين إرادة أمة ، وقد مضى الزمن الذى يعيش فيه المحتل قرير العين منعم البال وسط شعب يريد أن يعيش حرا .

ومن الاستسلام المنكر أن نسكت على الضيم بحجة أنه مؤقت وأن نتجاوز عن كل ماتفعله المحاكم العسكرية وقد وضعت الحرب أوزارها من ثلاثة أعوام خلت وهى باقيــة تدور رحاها ، أو أن نسكت على كل قانون يعجل بصدوره بحجة أن الدستور آت لا ريب فيه ، وأنه كفيل بنقض ماأبرم اذا اقتضى الأمر ، وما دروا

أن ذلك مضادّ للفكرة المعقولة القائلة بتمهيد الطريق للدستور ، ذلك الطريق الذى ملئ الآن حصا وشوكا ، وما دروا أنهم بذلك ينزلون على درج من التراخى الى وهدة الاستسلام المطلق الذى يهدّد الروح الوطنية بالاضمحلال شيئا فشيئا فما نشعر إلا وقد تلاشت نواة المعارضة الصحيحة فى النفوس الأبية المعتدلة من الجانبين .

ومن التهوّر المنكر أن يقوم فريق من الكتّاب الخياليين الذين زجوا بأنفسهم فى صفوف المعارضة ويتهموا لجنة الدستور بأنها "لجنة رجعية" وأنها تسير على النهج الذى رسمته لها السياسة الانجليزية ، ولو أنصفوا أنفسهم وأمتهم لكلفوا أنفسهم مؤونة البحث والاحتكاك قليلا بأعضاء اللجنة — وهذا أوّل واجبات الصحفى المرشد الأمين — وعرفوا اذا كان "كليشيه" التسمية التى أطلقوها عليهم حقا أو باطلا .

إننا لاننكر أن فى لجنة الدستور أعضاء رجعيين يؤثرون عاجل اللذات على آجلها ، و يعرضون للخطر الجسيم مصالحنا القومية الخالدة فى سبيل مصالحهم الشخصية الضئيلة الزائلة ، ولكنهم قليلون يعدّون على الأصابع والأمة رقيبة على مايعملون .

ومما يؤسف له أن فى صفوف المعارضة أناسا يتظاهرون

بالوطنية وهم ليسوا على الدستور أقل خطرا من هؤلاء الرجعيين ، أولئك النفر تارة يعملون على الايقاع بين لجنة الدستور و بين الأمة بانتقادهم أشياء عرضية فى النصوص لا جوهرية ، انتقادا أقرب الى التضليل بالرأى العام منـه الى الحقيقة ، وتارة يريدون الايقاع بين اللجنة وجلالة الملك بحجة أن الدستور فى بعض المواطن يفتات على حقوقه كأن سيادة الأمة التى على رأسها الملك تتعارض مع حقوق جلالته ، أو كأن جلالتـه تجهل أنه كلما عظمت سيادة الأمة التى يمثلها وتحققت عظمت هى فى أعين شعبها وفى أعين الأجانب .

دعونا يا قوم من الشخصيات واتقوا الله فى بلدكم فان الوطنية الحقة تقضى علينا أن نجعـل الدستور يمرّ سليما وسط العاصفة التى أثارتها أهواؤنا الحزبية ، فان فى جميع البلاد الغربية تشتجر الأحزاب وتتنازع على الوسائل وتتطاحن ، ولكنها وسط الجلبـة والضوضاء والصراحة المطلقة قد تكتم أمورا دقيقة ترى فى إذاعتها أو فى وضعها هدفا للجدل والمناقشة إضرار بالصالح العام .

وخطة الرأى العام هـذه فى هاتيك البلاد هى خير دليل على وجود روح النظام فى الرأى العام ، فمـا أحوجنا الى هذه الروح وما أحوج هذا البلد الى المرشدين الأمناء .

الأهرام فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢

الذكريات

للحياة غاية لابد أن تنتهى اليها ، فما أقصرها وان شئت فقل انها وجود فى حكم العدم ، على أننا اذا نظرنا الى مسافة العمر التى قطعناها ، بمنظار "الذاكرة الحساسة" التى هى القلب ، راعنا طولها وقلنا ما أطول الحياة !

وكأنى بها تزداد طولا على مر المدى ، ذلك بأن الأيام والليالى عند مرورها يخيل الينا أنها على وتيرة واحدة ، حتى اذا ولت وتقادمت قليلا ظهر كل يوم منها ، فى مرآة الذاكرة ، فى صورة مختلفة عن صورة اليوم الآخر ، وأوجد هذا الاختلاف مسافة بين اليوم وأخيه فتعددت المسافات ، وأصبحت الساعة يوما ، واليوم شهرا ، والشهر عاما .

ذلك بأن لكل إنسان فى الواقع ، فى اليوم الواحد ، حالة بل حالات نفسية خاصة تتأثر بمظاهر الحياة الخارجية التى تتبدل تبدل أوقات النهار دون أن نحس بها ، ثم تتكوّن من مجموع هذه الحالات صورة شخصية يومية للانسان تختلف عن صورة الغد ، ولهذا السبب نظن أننا اليوم غيرنا بالأمس ، وأننا فى هذا العام غيرنا

فى العام المـاضى، وأننا أصبحنا غرباء عن أشخاصنا السابقين رغما من قرب العهد .

وقد يزداد هذا الاختلاف والتباين اذا حدثت حوادث كبرى كالحروب والثورات لأنها توجد انقلابا فى مظاهر الحياة الخارجية يؤثر فى النفس، ولذلك ترى الأوروبى الذى عاش الحرب وعاناها يخيــل اليــه أنه قد مضى على سـنة ١٩١٣ ، سـنة السلم، قرن كامل، وترى المصرى بعد الثورة غيره قبلها، وكأن هناك شخصين مختلفيـــن .

ومما يساعد على إطالة مسافة المـاضى شدّة حساسية الذاكرة اذا كانت متصـلة بالقلب، وكثرة الذكريات المؤلمـات، وليت شـعرى من منا لا يذكر فى مختلف الجهات التى قضى فيها طفولته أو صباه وشبابه الأماكن التى ولع بها صغيرا فلا يحن اليها !

كم من رفيق صحبناه ساعة أو بعض ساعة صحبـة المسافر، ثم ودعناه على أمل التلاقى ولمـا نلتق، ونحن فى هذه الدنيا بين مشرِّق ومغـرب .

أنَّى مضى أولئك الصحب الذين التقينا بهم فى طريق الحياة، كما يلتقى الركب بالركب، ورأينا وجوههم السمحاء، ثم افترقت أسباب

دنياهم من أسباب دنيانا فأصبحوا لنا أمواتا وهم على قيد الحياة ، أولئك نحزن لهم لأننا فقدناهم .

وإنى لأذكر صديقا كان زميل دراستى فى باريس ، وكان خير مؤنس لى فى وحشتها فان باريس للناظر المدقق ، كما وصفها روسو ، "صحراء من الرجال" ، وكان على ذكاء عظيم ، شديد الفطنة ، قوى الملاحظة ، كثير المطالعة والتأمل فى وجوه الرجال ، لا تفارق شفتيه ابتسامة ، ولا يعرف الحزن الى قلبه سبيلا .

دار الفلك دورته وأصيب هذا الصديق بداء عضال فى عقله فعاد الى قريته فى مصر ثم مات ، ولم نمتع به كثيرا .

فما انضر ذلك العيش الذى هوى فى قرارة الزمن وأقسم أن لا يؤوب !

وما أكثر الذكريات المؤلمات !

وما أكثر الأصدقاء الذين نفجع بفقدهم أحياءا وأمواتا .

السياسة فى ١٠ يناير سنة ١٩٢٣

إسماعيل صبرى

بالامس دفناك يا إسماعيل وودعنا صافى العيش فيما ودعنا، ولكنى مازلت الى الساعة يعرونى الذهول لفقدك، ولا أكاد أصدق ما رأته عينى لما أودعوك الرمس وسووا عليك !

ولقد صدق لاروشفوكو "شيئان لا يمكن للانسان أن يحدق فيهما ببصره : الشمس والموت" ولكنى أعجب لموتك، ولو لم تمت بعلة لسألت بأى علة، وأعلم علم اليقين أن الموت قد حصد الملايين من بنى الانسان، وجندلهم، وبدل الديار ديارا، ولكننى لا أكاد أصدق أنك كنت أمس، حين أسلموك الى القبر، تحت الأرض وكنتُ عليها، وأن شبرا واحدا من التراب حال بيننا وبينك، فما أبعد شقتك، وما أشد وحشتنا !

وما أنس لا أنس تلك الشجرات التى صادفناها فى طريق جنازتك، وكانت تنثر علينا ظلالا ليتها كانت تقينا لفحات الحياة ولذعات الجوى، وما أنس لا أنس ذلك الرجل الذى أقبل نحوى ونحن وقوف على حافة القبر، وفى يده كسرة من فص خاتم اسماعيل

وهو يقول "تلك ذكرى"، ولكن من ذا الذى يحصى الذكريات التى تركتها فى قلوب الباكين والباكيات عليك ! لقد كان فى كل حركة منك وكل سكنة ألف ذكرى بل ألف حياة ، ففى ذمة الله يا اسماعيل .

أعرف صبرى من ثلاثة عشر عاما ، وكنت أغشى مجلسه كثيرا وأتردّد عليه ، وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار والتلميذ بأستاذه ، وكان يفيض علينا أدبا وفضلا ومكارم أخلاق ، وكان حلو السمر عذب الحديث .

ما كنت أدرى أطعم عافيتى أعذب أم طعم ذلك السمر

ولعل السر فى ذلك هو أن صبرى كان فى حياته ، كما كان فى شعره فنانا ، وكم مرة استرعى نظره فى الطريق منظر رائع من تلك المناظر الدقيقة التى لا يلتفت اليها أحد فوقف واستوقف يمتع منها ناظريه ، حتى أن المرء ليتساءل أيهما كان أشعر الرجل فى حياته أم الشاعر فى شعره ؟

كان صبرى باشا يحب النور والجمال ، وكان يحب من أجلهما الحياة ويقف منها موقف المتعبد ، وكان كثيرا ما يذكر الموت ويخشاه ، لا جبنا ولا فرقا ، بل حبا فى الحياة والنور والجمال ، ولقد بلغ من كراهيته للموت أن أصبح يتمناه فقال :

يا موت خذ ما أبقت الـ ۔ ـأيام والساعات مـنى
بينى و بينـك خطـوة إن تخطها فرجت عنى

وقد نغص عليـه داء القلب آخر سنى حياته وكان يتعسر عليه الفهم وهو يقرأ كتابا أو صحيفة سيارة ، ويتعب من القراءة اذا أطال ، ورغما من ذلك فقـد كنت أرى له أحيانا وهو يحدثنا عن الحركة الوطنية و رجالها حكما كالبرق الخاطف من ذكائه يلوح ثم ينطفئ .

أما شعر صـبرى فهو كحياته سمر المسافر ، وأنس المقيم ، وكما كان فى حياته يمل سمـاع الموسـيقى طويلا كان فى شـعره يكره القصائد الطوال ، وينظم المقاطيع الرائعة ، والبيت والبيتين ، وهو فنان يفضل نحت الدمية الجميلة على تشييد هرم جليل .

من منا لا يذكر قوله مخاطبا القلب :

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وقوله فى ساعة الوداع :

ساعة البين قطعة أنت قدت للمحبين من عذاب السعير

وقوله فى لقاء الحبيب :

ولمـا التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتـابا
كأن صديقا فى خلال صديقه تسرب أثنـاء العناق وغابا

وقوله فى شجرة :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بجسمى فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك

وقوله :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى
وهل تبينت داء فى زواياها
أواه من حرق أودت بمعظمها
ولم تزل تتمشى فى بقاياها
ياشوق رفقا بأضلاع عصفت بها
فالقلب يخفق ذعرا فى حناياها

وقوله :

اذا ما صديق عقنى بعداوة وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى و بينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم

تلك أبيات سارت مسير الشمس فى كل بلدة وناد ، وقد وضع صبرى باشا أغانى كثيرة هى أرق ما نظم من نوعها ، وهو فى مجموعه شاعر نسيج وحده انفرد بين الشعراء القدماء والمحدثين بطراز من الشعر المسمى (Lyrique) وهو شعر يطير بجناحين

فى فضاء الطبيعـة والخيال ، ويسمو بالعاطفة والوجدان الى أبعد غاية ، وكانوا يتغنون به قديما .

سألته مرة أيهما يفضل الشـعر العربى أم الشعر الافرنجى ؟ فقال قد يكون الشعر الافرنجى أغنى من الشعر العربى ولكن العربى فاق الافرنجى بالبيت والبيتين .

وكان يفضل البحترى على جميع الشعراء وهذا يدل على حاسته الفنية فان أسلوب البحترى أنق الأساليب وأكثرها دقة وطلاوة .

هـذه كلمة صغيرة نقولها اليوم عن الفقيـد الراحل الذى كان شعره وحياته مؤتلفين ائتلاف الزهر والخضرة فى الروض النضير .

رحمة الله عليك يا اسماعيل ، وألهم الله مصر العزاء على أبر بنيها .

السياسة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٢٣

خاطر فى العيد

يوم شم النسيم

أحب من الركب المصرى أن يقف هنيهة يستنشق فيها نسيم الحياة وطيب روائحها ، وأحب من الطبيعة أن تهش وتبسم فى وجوه أطفالها الباكين الذين لا يرقأ لهم دمع بين خرير مائها وحفيف شجرها ، بين نحرها وصدرها .

وأحب من قومى فى هذا اليوم أن ينسوا ما أصاب الوطن من جروح وأن يخرجوا من منازلهم صغارا وكبارا الى المروج الخضراء التى يختال بينها النيل فى حلة من سندس ، وأن يعود الآباء أبناءهم "فتح الأعين" والنظر الى مظاهر الجمال دقيقها وجليلها ، فى تلك الأرض المصرية التى قيل أنها جنة الله فى أرضه ، ولكن قلَّ من يعنى بتأمّل غضارتها ونضرتها وادراك سرهذا الجمال .

وقد نشأ عن ذلك المللُ من الطبيعة فى مصر لأن حبها ظل مبهما فى فؤاد الرجل منذ نعومة أظفاره فأصبح ينظر اليها كما ينظر الفلاح الى حقله صباح مساء ، اذا سألته عن ذلك قال : إن

الطبيعة سهل أخضر يجرى فيه النيل وانها على وتيرة واحدة، ولو أنه عوّد نفسه النظر اليها اوقف منها موقف الذى يقول :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظـــرا

أو الذى يقول :

لأسرحن نواظرى فى ذلك الوجه النضير

ولآكلنـــك بالمـــنى ولأشربنك بالضـــمير

أجل، إن الانسان يحب أبدا الأرض التى درج فى ثراها ويحنّ اليها اذا فارقها، ولكن حبه يقوى بمقدار تفهمه جمال مسارح الطفولة والشباب ومنازل الذكرى التى تنطبع فى فؤاده فتساعد على تذكر الماضى وغرس عاطفة الوطنية وتعهدها .

ولا ريب أن هذه الذكريات اذا تحرّكت عند شعب بأسره أخرجت من الأرض صورة الوطن الحى فانتفض الجميع تحت لوائه خفافا .

وما أحوجنا اليوم الى الوقوف ساعة فى ظل الطبيعة، علنا نجد فى جمالها معينا لنا على البأساء، فقد مضى زمن اللهو وجدّ جدّنا وأصبحنا نطلب الراحة قليلا فى ذلك الطريق الوعر لنتزود منها قوّة نصل بها الى الراحة الكبرى، ولكن أنّى هذه الراحة، وأنى الشعوب السعداء ؟ .

مثل الشعب المستعبد الذى يستسلم للهوان مثل الجاهل الذى ينعم فى الشقاوة فاذا استيقظ وفهم معنى الحياة كتب الشقاء عليه وكان نعيمه حلما فى الكرى أو خلسة المختلس .

فأولى بمن اشتدّ ساعده ، ودخل ميدان الكفاح ، أن يوطن النفس على احتمال الأذى ، وأن يستعين بحب الجمال على مقارعة كتائب الحوادث أبد الدهر .

واذا كنا اليوم نحيي ذلك العيد فانما نحيي الراحة بين الجدّ والعمل ، نحيي الورد والرياحين ، نحيي مهد النور والجمال ، نحيي أرضك يامصر .

السياسة فى ١٠ أبريل سنة ١٩٢٣

خطــرات فى الطــريق

١

الآلام

كان بعض القدماء ينهون عن ركوب البحر الذى لا يسلم راكبه من الأخطار ولكننا فى عصر أصبح يحلو فيه تجشم الأسفار وصار الخطر كل الخطر فى القعود عن ركوب الشدائد .

كان لى الشرف فى طريقى الى باريس باصطحاب علمين من أعلام النهضة المصرية فى أجلى مظاهرها أولهما أمير الشعر أحمد شوقى بك والثانى الزعيم المحنك محمد بك حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى فتجاذبنا أطراف الحديث .

وبينما كان الثانى يفكر فى خير الوسائل التى تحل المسألة المصرية حلا عاجلا يتلخص فى الجلاء ومداواة الجروح التى تسيل فى جسم الوطن ، كان الأول يصف الألم و يقول "كبر الألم بطولة " و يقول " من لم يتألم لم يتعلم " و يقول " الألم صاحب قديم وثالث اثنين

هبطا الأديم " ويقول " الآلام جراح شتى الأغوار ، كنه يدرك بالصبر وكنه يترك للقبر " .

ثم جرى ذكر الألم فذكرت قول رينان وهو على فراش الموت وقد زاره القسيس "لابرين" وسأله : " ألا تعتقد فى إمكان وجود قانون حب ووفاء فى هذا العالم بجانب قانون الضرورة ؟ " فأجاب رينان من فوره : " إنى أتمثل الطبيعة غادة حسناء متجملة بأحسن الثياب وأفخرها ، ولكنها تمشى معرضة ، بينما يسحق ذيل ثوبها النمل التى لا تبصرها ، وما أنا إلا إحدى هذه النمل وسأسحق " .

تلك الكلمات المحزنة التى تشف عن ألم دفين قالها رجل كد وجدّ وترك بعده آثارا خالدة وكان من المتشائمين الأقوياء . وقد تجلى هذا الشعور فى صورة مذهب عند بعض الشعراء الفرنسيين وعلى رأسهم " ألفريد دى فينى " الذى قال : " أحب جلالة الآلام الانسانية " فان هذا الشاعر أجاد تصوير ذلك الشعور الذى يجمع بين القوّة والألم فى ست أو سبع قصائد جعلته على قلتها من الشعراء المعدودين .

ولهذا الشاعر قصيدة فى الذئب من خير ما قاله : فى هذه القصيدة تكلم فينى عن رجل ذهب للصيد فصادفه الذئب وشمله فقتل الشمل ، عندئذ وقف الذئب جريحا لا يتكلم وهو يودّع الحياة فقال

الشاعر عن لسانه يخاطب الانسان : "أسلك بعزيمة صادقة وجلد ذلك الطريق الطويل الوعر الذى دعاك فيه القدر ، ودع البكاء والعويل ، ثم تألم كما تألمت ومت صامتا " .

وهذه القطعة درس من دروس الشجاعة المقرونة بالألم يلقيه الحيوان على الانسان ، وهى من خير ما يحفظه الشبان الفرنسيـون لأنها تبعث الهمة وتشدّ العزيمة وتحصن الخلق فتمنعه أن ينهار من صدمات الشك واليأس .

ولم يكن هذا الشاعر كالذين سبقوه ممن يجدون عزاء وسلوى فى الطبيعة التى يخاطبها بقوله "انهم يسمونك أما وما أنت إلا قبر" فلم يخدعه زخرفها وكان كل عزائه فى قوّته ، على أن كراهيته للمجتمع لم تكن لتحول دون حبـه للانسانية التى تربطه بها أواصر من لحم ودم ، وكانت نفسه كنفس المعرّى تفيض عليها رقة وحنانا ، وكأنهما قالا معا هذا البيت :

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

ومن غريب المصادفات اننا ما كدنا نصل الى مرسيليا حتى لقينا حضرة على بك الشمسى فنعى الينا المرحوم سـعيد بك زغلول فأسفنا على تلك الخلال الغرّ التى انطوت وتلك البشاشة التى ذوت

وبكينا فيه الوداعة واللين، والأدب الجم، والعقل الراجح، والخلق العالى الذى أبى له أن يعلن عن نفسه حياء وكبرا

وان مصر لتشيع فيه أحد أبنائها البررة الذين كانوا زين الشباب، وتألم لفقده ألم الثكلى فقدت واحدها، وكم فجعت مصر فى بنيها، وكم فجعت مصر فى آمالها وهى تمد يدا لاجتناء الثمر فتسبقها اليه يد الموت الخفية .

ولكن عزاء بنى مصر عزاء، فما أفلحت الشعوب والأفراد دون أن يكون لها الألم مهذبا ومربيا فالألم صيقل النفوس يجلوها ويصفيها من كدرة الضعف والخور .

وهل تجلت الروح المصرية وظهرت قدرتها إلا فى الألم، وهل ثبت وجود الروح القومية إلا فى الثورة، فانه رغما من أن نماذجنا فى الثورات والحركات كانت كلها أجنبية لم نلجأ الى التقليد وظهرت حركتنا فى ألوان مصرية بحتة يعبر عنها أدباء الافرنج "بالألوان المحلية"، وإلا فليقولوا لنا أى حركة فى التاريخ قامت فيها المظاهرات فى هذه الصورة المهيبة التى يخفق فوقها جلال الموت، صورة جنازات ضحايا الحرية ؟ أى حركة ظهرت فيها المقاومة السلبية فى صورة أفعل فى النفوس من المقاطعة التى قام بها

شعب بأسره ، ولم يتمكن الخصم بخيله ورجله وحيلته من إحداث ثلمة واحدة فى تلك الكتلة العريضة المتماسكة ؟

ألم تكن النكتة ، التى هى من مشخصات الروح المصرية ، علامة الخفة والنزق والسرور قبل الحرب والثورة ؟ وهى اليوم تفرج كرب أخى البأساء وتبسم عن مرارة العيش ، وهى ستر يخادع به المصرى عن نفسه المحزونة المضناة التى تعيش فى جو الحقائق السياسية بعد أن كانت هادئة مطمئنة .

ليفهم الجيل الحاضر أن شعاره الوحيد يجب أن يكون التضحية فإننا جسر تسير عليه مصر بين الماضى والمستقبل .

نحن جيل معذب ، وما أشبهنا بالجيل الفرنسى الذى أعقب الثورة وحروب نابليون ـــ فقد عرف ذلك الجيل ما أطلق عليه الكتاب "مرض العصر" وهو نوع من الحزن والكآبة يظهر على النفوس القلقة التى ورثت عن الماضى القريب كل ما يبعث الألم ، وأجاد كتاب العصر تصوير ذلك الداء وتشخيصه .

فلنوطن النفس على احتمال الآلام ، فالآلام مدرسة الحياة ، وهى ميدان كفاح لا يخرج منه بالغلبة إلا القوى .

٣

بلاغـــة العـــرب

قلت لأمير الشعر، والحديث شجون، أن خير ما قرأته فى العزاء كتابا أرسله أحد أصدقاء شيشرون يعزيه فى فقد ابنته : "خطرت لى فكرة وجدت فيها عزاء ولعلها تخفف من لوعتك . بينما كنت اتجه بسفينتى من جزيرة إيجينه الى مدينـة ميجار حانت منى التفاتة الى البلاد حولى، كانت ميجار أمامى وإيجينه ورائى، والبيريه على يمينى ، وقورنثـة على شمالى ، مدائن كانت قديمـا زاهرة زاهية فعفت ولم يبق إلا رسمها وأنقاض مبعثرة فعجبت حيال هذا المنظر كيف نجرؤ، نحن الهالكين الضعفاء ، على الشـكوى كلما انتزع الموت واحدا من أهلنا وذوينـا، بينما نرى فى طرفة عين كبريات المدائن صرعى هامدة ، وكانت عامرة آهـلة بالسكان ثم أضحت خلاء ... فتعز عن فقد ابنتك بفقد هاتيك المدائن والناس" .

أعجب شوقى بهـذا الخيال الرائع ولكـنه قال من فوره إن العـرب قالت أبلغ من ذلك : سأل أعرابى اعرابيا فقد ابنـه "أكان يغيب كثيرا" قال نعم! قال : "اتركـه غائبـا" فهل

رأيت أيها القارئ تعبيرا أبلغ من ذلك فى أداء المعنى مع السلاسة والوضوح والايجاز .

يدرس الآن فى جامعات أوروبا ما يسـمى بالطريقة العلمية التاريخية ، وهى تتلخص فى تحليل الوثائق والنصوص وسرد الوقائع مع الإيجاز والوضوح ، ولأجل تعرف هـذه الطريقة والتمكن منها يدرّب الطلبة على إيجـاز الرسائل وجلائل الحـوادث فى صحائف معدودة وافية بالغرض ، وشيخ هـذه الطريقة الأستاذ سنيو بوس المعلم الأوّل فى السربون .

ولكن العرب لم يتعلموا هـذه الطريقة بل كانوا يجرون عليها بفطرتهم ، وهل الإيجـاز إلا لباب الفصاحة والبيان؟ وهل نسينا بلاغة القرآن وفصاحة العرب الذين بلغوا بالبديهة مالم يبلغه غيرهم بالكد و إجهاد القريحة ؟

وصف عبد الله الجماز أبا نواس فقال : "كان أظرف الناس منطقا وأغزرهم أدبا وأقدرهم على الكلام وأسرعهم جوابا وأكثرهم حياء وكان أبيض اللون جميل الوجه مليح النغمة والاشارة ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير مسـنون الوجه قائم الأنف حسن العينين والمضحك حلو الصـورة لطيف الكف والأطراف وكان فصيح اللسان جيد البيان عذب الألفاظ حلو الشمائل كثير النوادر

وأعلم الناس كيف تكلمت العرب راوية للأشعار علامة بالأخبار كأن كلامه شعر موزون " .

فهل رأيت وصفا أدق من هذا المنثور الذى يصوّر لك شاعرنا من جميع الوجوه فى كلام رائع ؟ كان عمرو بن حجر ملك كندة ، وهو جدّ امرئ القيس ، أراد أن يتزوّج ابنة عوف بن محلم الشيبانى فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن ما بلغه عنها فلما عادت أقبلت الى الحرث فقال : أخبرينى ، قالت "رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل ، ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم ، وسودا بحمم ، قد تقوّسا على مثل عين العبهرة ، التى لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحدّ السيف المصقول ، لم يخنس به قصر ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ، فى بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذوات أشر ، وأسنان تعدّ كالدرّ ، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزينه عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقى بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كابريق الفضة ، ركب فى صدر تمثال دمية ، يتصل به عضدان ،

ممتلئتان لحما ، مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان ، رقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت بينهما الأنامل . وقد تربع فى صدرها حقان ، كأنهما رمانتان ، من تحت ذلك بطن طوى كطى القُباطَى المدمجة ، كسى عكنا كالقراطيس المدرّجة ، تحيط تلك العكن بسرة كمُدْهُن العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجـدول ينتهى الى خصر لولا رحمة الله لانخزل ، تحته كفل يقعدها اذا نهضت وينهضها اذا قعدت ، كأنه دعص رمل لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان خدلجتان كالبردى ، وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزرد ، ويحمـل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما " .

حسب هـذه القطعة أنهـا دليل على حب الجمال والفن عند العرب ، وهى لا تقل فى دقتها وروعتها عن تمثال أبدعه صانعه أو لوحة مصوّرة ، وما على القارئ – وهذا مثل واحد نضربه – إلا أن يتأمل فى وصف القدمين : " ويحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل مافوقهما " فانى لا أعرف لذلك نظيرا إلا قول فكتور هيجو : " كانت تسير الى جانبى وقدمها الفتانة تسخر بصغرها من الأقدار وتضحك بجوار قدمى ! " .

Et de sa petitesse étalant l'ironie
Son pied charmant semblait rire à côté du mien.

فأخلق بنا أن نرجع بلغتنا الى ذلك النبع الصافى الأول وأن نتبذ البديع والتكلف والأطناب وما شاكلها من ضروب البلاغة الكاذبة التى جاء بها أئمة الكتاب فى العصور المتأخرة .

ويحسن بنا أن نرجع الى الأغانى قبل أن نرجع الى الجاحظ أو الهمزانى ، وأن نفتش عن كنوز اللغة والأدب فى صهاريج العرب .

الاهرام فى ٢٧ يوليه سنة ١٩٢٣

القـــديم والجـــديد

سيدى صاحب ليالى رمضان

وضعتنى فى زمرة أنصار الجديد وليس لى أن أنقض حكمك وقلمك ينم عن أدب جم . وإنى مع احترامى للقديم وأنصاره أستأذنك فى تحديد معنى القديم والجديد حتى يكون القارئ على بينة .

القديم درجات والجديد درجات ، ولكل منهما أنصار يختلفون أذواقا ، ولكن ليس من اليسير أن نفضل بينهم ونجعل منهم طبقات تحمل ألوية مختلفة .

وأعرف للقديم أنصارا كالسيد المرصفى وغيره لا يحسون بجمال غير جمال الشعر العربى القديم ، فاذا ذكرت لهم شعر العباسيين والمحدثين لم يطربوا له ، وكأنك تنادى منهم صخرة لا تحركها الأذاريد .

وأعرف للجديد أنصارا كالريحانى وغيره من أصحاب "الفلسفات" و "الطيارات" تجلى العجمة والركاكة فى أساليبهم التى تشف عن سقم الخيال والمعانى وهى ماثلة كالهيكل العظمى .

إن كان هذا ما يقصد بالقديم والجديد فلست من أنصارهما .

وإن كان المقصود بالقديم أن نرجع بالشعر والكتابة الى عصر الجاهلية، وأن تكون أغراضنا فى الأدب أغراض القدماء، نبكى على الدمن والأثافى، ونستوقف الركب، ونمدح ونهجو، ونشكو الزمان فلست من أنصار القديم ؛ ذلك لأن لكل عصر أغراضا وأساليب يتجلى فيها طابع العصر، وقد تتشابه العصور فى جوهرها، وكيف لا تتشابه والانسانية لم تتغير، وما زال الكاتب والمصور والمثال ينشدون المثل الأعلى للحقيقة والجمال .

ولكن قبل البحث عن هذا المثل الأعلى لا بد أن يرجع الكاتب أو الشاعر فى طور التكوّن — وقد كان هذا رأى البارودى رحمه الله — الى القديم يقتله بحثا ثم ينحت بعد ذلك من صخره دمية ساحرة .

وفى القديم من الشعر والكتابة آيات قد لا يجود بمثلها الدهر، وهل هناك شعر غنائى أصفى جوهرا وأقل كلفة وتعملا من الشعر القديم الذى كان يرتجله الأعرابى من فوره حرا طليقا فى فضاء حر طليق فتتحرك له أوتار القلوب وتهتز له القبائل طربا .

أما الكتابة فمن شاء فليرجع الى الأغانى أو العقد الفريد أو زهر الآداب ليرى كيف كانت بلاغة العرب الأولين فريدة فى إيجازها ودقة التصوير، وحسن الانسجام ، خالية من البديع والتكلف

والاطناب التى أفسـدت اللغة فى العصور المتأخرة مع أن الايجاز أوّل أغراض الكتابة فى البلدان الراقيـة وبه يمتاز كبار المؤرّخين الحديثين وتتفاوت أقدارهم .

فلنرجع إذن باللغـة الى ذلك النبـع الأوّل ، ولن يمنعنا ذلك من انتقاء اللفظ الذى يلائم العصر ويجرى فى سلك الكلام لا نافرا ولا حوشـــيا .

قلنا إن القديم والجديد قد يتفقان جوهرا ، ولكن لكل عصر شخصيته ، وكل شخصية تحمل فى طياتها القـديم والحديث ، وهؤلاء شكسبير وموليير وجوت قد سموا سموّا واحدا فى تصـوير المجتمع رغمـا من اختلاف العصور والبلدان ؛ ولكنك اذا نظرت الى كل منهـم على حدة ، وفصلته تفصيلا ، تجلت لك الرابطة القوية التى بينهـم وبين الجيـل الذى عاصروه ، ورأيت فى تصويرهم أشخاصا عاشوا معهم ولكنهم أحياء فى كل جيل رسمتهم ريشة مصر ماهر فأبدع فى صنعته تلك الوجوه التى تعرف فيها الانسانية جمعاء .

وهؤلاء شوقى والبحترى والمتنبى يسمون سموّا واحدا فى تصوير العواطف البشرية ، ولكنهم يختلفون فى أساليبهم ومناحيهـم لأن كلا منهم يختلف عن الآخر فى البيئة والوسط ، وهل يصلح اليوم أسلوب شكسبير ، ومديح البحترى ، أو هجاء المتنبى ؟

على أن الأديب الناقد يرى فى كل شاعر عظيم صورة من صور الجمال ان لم تمل نفسه اليها فليس أقل من أن يوفيها حقها إجلالا ، وقد أخطأ من قال : ”هل غادر الشعراء من متردم“ فان الذكاء البشرى لا ينفد وان تباينت أشكاله بتباين الأزمنة والأفراد والجماعات .

ولو أمكن طائفة من الناس أو أمة من الأمم الاستئثار بالذكاء والتفرد بالنبوغ فى جميع أطوار حياتها لاختل نظام هذا العالم ، وما أصدق البحترى الذى يقول :

لولا التباين فى الطبائع لم يقم ... بنيان هذا العالم المجبول

فلكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل شخصية يجب أن تظهر فى أعماله وآثاره . ولكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل مثل أعلى فى الحياة .

وقد تتجلى الشخصية فى التجديد الحر الذى يتلاءم مع الذوق السليم .

ويحسن بكل أديب منا فى حياته الأولى أن يدرس الأدب العربى القديم والأدب الغربى الحديث درسا وافيا يهذب ذوقه ويهيئه للابتكار والتجديد .

وقد قطع بعض المعاصرين من أئمة البيان شوطا بعيدا فى هذه السبيل ولكننا ما زلنا بعيدين من الغاية .

فلنجدّد فان فى ذكائنا ، وفى لغتنا وآدابنا ، وفى أرضـنا كنوزا دفينة لم تهتد العبقرية اليها فتخرجها لنا سبائك من الذهب المصفى .

ولنجدّد فان فى التجديد مظهرا من مظاهر الشخصية القوية ومعنى من معانى الحياة .

السياسة فى ١٦ أبريل سنة ١٩٢٥

الى أى طريق نحن مسوقون

مهـــزلة فى مأتم

وهل يقيم المأتم إلا الرجل الحرّ بينما نرى بأعيننا المهزلة القائمة فى مصر بلد العجائب ، كما يقول هـيرودوت ، وبلد المضحكات كما يقول المتنبى ، ولكنه ضحك كالبكا ، حالة تملأ النفس أسى فلقد أصبحنا نشاهد كل يوم وفى كل آونة ممثلا جديدا ، وفصلا جديدا ، وشاهدا جديدا ، و بين هذا وذاك المصفق المأجور .

وقد يظهر هذا الممثل تارة فى صورة سياسى ، وتارة فى صـورة أديب ، وتارة فى صورة صحفى . ولكل منهم من الأثواب المستعارة ما لا عدد له ، ضاحك لعوب والبلاد فى محنة .

ولقــد يدور الانسان بعينيه فى هــذا السواد الأعظم فلا يرى إلا الفوضى السياســة والخلقية والعلمية ضاربة أطنابهـا فى جميع مظاهر الحيـاة .

ولست أريد أن أتعرّض للسياسة إلا من الوجهة الاجتماعية البحتة ، فقد تقلبت على مصر المحن فى هذا العصر الأخير ، ورأت فيه على قصره العجب العجاب ، ولو طلب الى مؤرّخ أن يصف حكومتنا

فى الطور الذى أعقب ثورة سنة ١٩، وان يحـدد بالدقة شكلها ونوعها كما يحدده الواقع الحار فى أمره، فقد خضعت فى وقت من الأوقات لحكم الدكتاتورية المستترة أو غير المستترة، وخضعت لحكم الأقلية، وخضعت لحكم الأكثرية، وقد كان هذا الحكم فى بعض الأحايين أقرب الى الديماجوجية منه الى الديموقراطية، واتفق أن اجتمعت هذه الأشكال فى وقت واحد فى حكومة واحدة، وكانت هذه القوى المتجاذبة حول الدستور كالوصى الذى يأكل مال اليتيم، أناس يهزلون وخلف الستار يجد المجد .

هذه المهزلة السياسية يمثلها السياسى المصرى ، واذا كانت الرجال توزن بأعمالها ، والأعمال بنتائجها ، فقد عرفنا الدور الذى لعبه ذلك اللاعب ، وعرفنا كيف يضحى بمصالح بلاده فى سـبيل المصلحة الخاصـة ، وكيف يثبت على مبدئه ، و يتنقل من حزب الى حزب و يلبس لكل حالة لبوسها .

*
* *

وللأدب مهزلة وأى مهزلة : كل من ترجم كتابا فى التـاريخ صـار مؤرّخا ، وكل من ترجم كتابا فى الفلسفة صار فيلسوفا ، وكل من كتب كتابا فى الأدب صار أديبا عالمـا ، وقد يرجع ذلك الى أن الموازين والمقاييس التى توزن بها أعمـال الرجال قد خضعت

فى مصر للأهواء فانقلبت وسط المهزلة ، و يظهر أن نفسية الشعوب — و بالأخص الشعب المصرى — طفلة سريعة التأثر والتحوّل من الضدّ الى الضدّ ، وهذا ما جعل كثيرين من كتابنا لا يعبأون بالرأى العام ولا يحسبون له حسابا .

ولكن الذى نأسف له أن الكتاب أنفسهم ورجال السياسة يتأثرون بما يكال لهم من مديح — او غربا ه كان ملقا — ويتوهمون أنهم بلغوا عليا مراتب الأنبياء فيتيهون فى الأرض صلفا .

والواقع أن الخبيرين بالكتابة والبحث والشروط العلمية التى يجب أن تتوافر فيهما ثلاثة أو أربعة ، على الأكثر فى مصر ، وقد ألف بعض كتابنا المعدودين رسائل وكتبا مختلفة فى مواضيع شتى أعجب بها الجمهور والأدباء ، ولكنك لو نظرت اليها من وجهة البحث العلمى ألفيتها جوفاء مزوقة ، ذلك أننا لم نتعوّد عناء البحث والغوص على اللباب ، وقل أن تجد فى مصر من فى مقدوره الحكم على كتاب حكما صحيحا ، والتمييز فى الأدب بين الكتاب السطحى والكتاب العلمى .

فأخلق بمن يتصدون للأدب أن يعلموا أنه فن صعب وطويل سلمه ، فلقد صار كل من يستظهر شيئا من المنثور والمنظوم زينة المجالس وأديبا يشار اليه بالبنان .

ومن عجائب هـذا البلد أنه لا تكاد تتألف فيـه جمعية تاريخية أو أدبيــة حتى يحتل المكان الأول فيها أصحاب الأبهات لا الأخصائيون "أصحاب المصالح" الحقيقية فيها .

ومن عجائب هذا البلد أنك لا تجد عالمـا يعترف بالفضل لعالم أو أديبا يعترف بالفضل لأديب ، واذا وجد إجماع أو شبه إجماع على الاعتراف بمنزلة رجل فى العلم أو الأدب انبرى له من ينال من شرفه وكرامته بالطعن فى شخصيته واختلاق الأكاذيب عليه .

***

وللصحافة مهزلة وأية مهزلة ، وحســبك أن تلقى نظرة واحدة فى الصحف المصرية لترى عجبـا ، كلها تطن بالشتم والطعن بجميع أساليبه ، فكل صحيفة تطعن فى حزبين أو ثلاثة وفى طوائف وأفراد لا عدد لها ، وتراها ينهش بعضها بعضا .

وقل أن تجــد صحفيا يدين بمبــدأ فهو يتلوّن تلوّن الحرباء بين بياض نهاره وسواد ليله وهو فى معظم الأحايين ، وله العذر ، يضطر الى مجاراة الرأى العـام فى كثير من آرائه وأهوائه ، وهو إما يضلل بالرأى العام أو يضلل الرأى العام به طوعا أو كرها ، وهو على أية حال كالخطيب والسياسى يستند الى الرأى العام فى مهنته والرأى العام ، كما قال لامرتين ، بغى لا وفاء لها .

وليس أشدّ إيلاما للنفس من إندماج بعض من لا خلاق لهم في زمرة الصحفيين الذين جعلوا أمناء على الأمة ومصالحها ، ولكن قدّر لكل مهنة في مصر أن تلوّث ، وقدّر لكل رجل عامل أو مصلح أن لا يسلم من الأذى .

الواقع أننا هازلون وسيسدل الستار على مأساة .

الأهرام في ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٥

البنون والحياة الدنيا

من أمير الشعر الى رئيس تحرير السياسة

يعزيه فى فقد ابنه

الضلوع تتقد والدموع تطرد
أيها الشجى أفق من عناء ما تجد
قد جرت لغايتها عبرة لها أمد
كل مسرف جزعا أو بكى سيقتصد
والزمان سنته فى السلو يجتهد
قل لثاكلين مشى فى قواهما الكمد
لم يعاف قبلكما والد ولا ولد
الذين ميل بهم فى سفارهم بعدوا
ما علمتما أشقوا بالرحيل أم سعدوا
ان منزلا نزلوا لا يرد من يرد
كلنا اليه غدا ليس بالبعيد غد

* * *

البنون هم دمنا والحياة والوُرد
لا تلذ مثلهمو مهجة ولا كبد

يستوون واحدهم — في الحنان والعدد
زينــة ومصلحة — واســتراحة ودد
فتنة اذا صلحوا — محنــة اذا فسدوا
شاغل اذا مرضوا — فاجع اذا فقــدوا
جرحهم اذا انتزعوا — لا تلمــه الضُّمد
العــزاء ليس له — آســيا ولا الجــلد

* * *

قل لهيكل كلمــا — من ورائها رشد
لم يشب مهذبهــا — باطل ولا فنــد
قد عجبت من قلم — ثاكل ويتجــرد
أنت ليث معركة — وهو صــارم فرد
والسيوف نخوتها — في الوطيس تتقد
أنت ناقــد أرب — والأريب ينتقــد
ما تقول في قــدر — بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على — كل خطوة رصد
يعــثر الأنام به — ان سعوا وان قعدوا
ينزل الرجال على — حكمه وان جحدوا
القضــاء معضــلة — لم يحلهــا أحــد

كلما نقضت لها عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها واستراح معتقد

⁂

عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائنه كائناته الجدد
لا تقل به إدد ان حسنه الإدد
تلتقى نقائضه غاية وتتحد
الفناء فيه يد للبقاء أو عضد
إئتلافه رشد واختلافه سدد
جد فى عمارته منصف ومضطهد
ذو الغنى لخدمته كالفقير محتشد
وهو فى أعنته ممعن ومطرد
والحياة حنظلة فى حروفها شهد
هيكل الشقاء له من مدامع عمد
قامت النعوش على جانبيه والوسد
عرسه ومأتمه غايتاهما نفد

(شوقى)

٢

النقـــــد

الموضـــوع ــ عزى شوقى صديقه هيكل فى فقد ابنه ، وما كان الموضوع جديدا ولكن الموقف أكسبه جلالا وروعة . كلاهما يحمل قلبا كبيرا يفيض عاطفـة وان كان يخاله الرائى معرضا عن الدنيا وآلامها .

على أن هذه العاطفة سرعان ما تتحوّل الى فكرة تسمو بصاحبها فوق هذا العالم وهمومه ، ولعـل هذا منشأ الأعراض البادى على الرجلين ، ومصدر هذه الابتسامة التى تعلوهما فيحسبها الناظر تهكما وما هى بالتهكم ، ولكنها ابتسامة مفكر مجرّب خبر الأيام وذاق حلوها ومرها ، ونفثة مصدور .

وقد عرف الشاعر فى هذه القصيدة كيف يعزى صديقه ، فخاطب منـه الناحية «الحساسة» ناحية الفكر ، وعرف بأسلوبه الفلسفى الرائع كيف يهون على صديقه مصابه فى ولده إزاء مصاب بنى الدنيا ، ثم سما به على جناح الفكرة الى أعلى سماء .

*
* *

هــذه القصيدة فى قصر بحرها واطراد رويها صورة من صور الحياة العاجلة ، وقد أثبت شوقى أنه فنان مبدع أطال أو أوجز فاذا قال :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

أو :

همت الفلك واحتواها المـاء وحداها بمن تقل الرجاء

رأيت أهراما فى جلالهـا وروعتها .

واذا قال :

نجـا وتمـاثل ربانهـا وزف البشائر ركبانهـا

أو :

حف كأسهـا الحبب فهى نضـــة ذهب

أو :

الضـلوع تتقـد والدموع تطـرد

رأيت تماثيل صغرى فى جمالها وفتنتها .

وهــذه القصيدة الأخيرة آية من آيات أحمــد شاعر الجلال والجمال وناحت القوافى من خير مقطع .

وقد امتاز شوقى فى هــذه المرثية بوجه خاص ببناء موضوعه بناء محكما وحسن تقسيمه، ولم تكن عنايته بالمواد أقل من عنايته بالشـــكل .

كانت ســنة العرب فى أغلب الحـالات قصر اهتمامهم على المطلع الذى هو باب القصيد، وكانوا يبنون قصائدهم بناء صناعيا مفككا، يستقل فيه البيت عن البيت ويرتبط فيه المديح بالنسيب ارتباطا ظاهرا فطن اليه البحترى فأهمله :

وثبـا كوثب البحترى   من النسيب الى المديح

ولكن شوقى يقيم قصيدته كلها على أساس من الوجدان الصادق والفكرة الواســعة العميقة التى تربط الموضوع ربطا محكما فى جزئياته وكليـاته .

قسم شوقى هذه القصيدة الى أربعة أقسام يشد بعضها بعضا :

فى القسم الأول — ويحتوى على أحد عشر بيتا — تعـزية الصديق للصديق :

الضــلوع تتقــد   والدموع تطــرد

أيها الشجى أفق   من عنـاء ما تجد

... ...

وفى القسم الثانى تعزية الوالد للوالد :

البنون هم دمنـا والحيـاة والوُرُد

لا تـلد مثلهــمو مهجـة ولا كبد

... ...

وفى الثالث تعزية الأديب للأديب أو تعزية الشاعر الحكيم للكاتب الحكيم :

قـل لهيكل كلما من ورائها رشـد

لم يشب مهـذبها باطـل ولا فنـد

قد عجبت من قلم ثاكل وينجــرد

... ...

ما تقول فى قـدر بعض سنه الأبد

... ...

وفى الرابع تعزية الانسان للانسان فى فناء هذا العالم المتقلب :

عالم مدبــره بالبقاء منفرد

من بلى كوائنه كائناته الجدد

... ...

وقد أظهر الشاعر فى أرق ديباجة احساس الصديق والوالد والحكيم والرجل .

* * *

يلاحظ أن شوقى قدّم فى البداية العزاء لصديقه (أيها الشجى أفق) ثم سمت به العاطفة وأدبه العالى فقال :

قل لثاكلين مشى   فى قواهما الكمد
لم يعاف قبلكما   والد ولا ولد

وكأنى بالشاعر فى هذا الموقف أحس وحشة الموت فى بنى الدنيا، وقد مضت قرون نسائل الموت عنهم فلا يرد جوابا، فصاح جازعا :

الذين ميل بهم   فى سفارهم بعدوا
ما علمتما أشقوا   بالرحيل أم سعدوا
ان منزلا نزلوا   لا يرد من يرد

ثم انتبه وذكر أنه فى موقف عزاء فقال :

كلنا اليه غدا   ليس بالبعيد غد

بهذا البيت ينتهى القسم الأول من قصيدة شوقى، وعنده تهدأ النفس كما تهدأ فى أعلى الربى .

* * *

استطرد شوقى فى القسم الثانى الى ذكر البنين والعاطفة الأبوية التى تحوطهم، ولعل أحسن تصوير لهذه العاطفة قول الأعرابى

وإنمـا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشى على الأرض
إن هبت الريح على واحد امتنعت عينى من الغمض

ولكن شوقى ، وهو خير والد ، فصل هـذه العاطفة تفصيلا يصور الحقيقة التى يحسها كل أب فقال :

لا تـلد مثلهـمو مهجة ولا كبـد
فتنـة اذا صلحوا محنة اذا فسـدوا
شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقـدوا
جرحهم اذا انتزعوا لا تلمـه الضمد
العـزاء ليس له آسـيا ولا الجـلد

وقد امتاز شوقى فى كثير من مراثيه بتصوير الحقيقة والاشارة بلطف الى حالة خاصة تزيد الشـعر رونقا وجمـالا لأن الشاعر يكشف لنا عن ناحية من نواحى الحياة التى ترخى الستور عليهـا ، من ذلك قوله فى رثاء صديق له توفى عن بنات كثر ... وقد دعاه الموقف الى ذكر فضل النساء :

الباكيات حين ينقطع البكا والذاكراتك بالعراء النائى

وقوله فى المرحوم عبـد الحى المغنى وقد ترك أما شـيخة كان يعولهـا :

كسرت عصاها اليوم فهى بلا عصا

ومضى فتاهـا الأجـــود المسماح

ويعجبنى من شوقى أن ولعه بالحقيقة المعنوية لا يقل أحيانا عن ولعه بالحقيقة المـاثلة أمام أعيننا ، وهـل أدل على ذلك من صراحته اذ يصف الجرح الذى يتركه بفقده الابن الراحل

العــزاء ليس له آســيا ولا الخــلد

وهذا ولا ريب من خير أنواع التعزية .

*
* *

أخذ الشاعر الحكيم بعد ذلك يدعو صديقه الكاتب الحكيم الى التفكير فى القضاء الذى لامرد له ، ولكنه مهـد لذلك بالثناء على شجاعة صديقه الذى لم يحل هول المصاب بينه وبين قلمه :

قد عجبت من قلم ثاكل ويتجــرد

أنت ليث معركة وهو صارم فــرد

وصف القلم بالصارم والشجاع بالليث من الأوصاف القديمة التى تعلق بالشعر الحديث، وهى من بقايا القديم التى يسميها الافرنج (Réminiscence) وقد تأتى عفوا ويصعب التحرر منها ولذلك تجدها عند أكبر الشعراء المحدثين فى الغرب .

أجاد شوقي في قوله بعد ذلك :

أنت ناقد أرب والأريب ينتقد
ما تقول في قدر بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على كل خطوة رصد
يعثر الأنام به إن سعوا و إن قعدوا
ينزل الرجال على حكمه وان جحدوا

ولكن شوقي أبدع في قوله وقد بسط جناحيه واستعرض معضلة القضاء :

القضاء معضلة لم يحلها أحد
كلما نقضت لها عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها واستراح معتقد

صوّر شاعرنا في هذه الأبيات الثلاثة موقف الفلاسفة والشعراء على اختلاف عقائدهم أمام معضلة القضاء منذ القدم ، ولا ريب أن لكل شاعر حالتين : حالة شك وحالة يقين ، ومهما بلغ ايمان الشاعر فان في الحياة ساعات يتمنى الموت فيها لأن تجارب الحياة تحتوي المر في قرارتها .

ويلوح لي أن يقين شوقي يغلب على شكه لأن العقيدة الدينية

متمكنة من فؤاده ، وهو فى معظم شعره كثير الايمان يجد فيه ظلا وراحة وسلوى .

* * *

يخيل الى أن الشاعر بعد أن حلق فى سمائه وقلب معضلة القضاء على وجوهها فلم يهتد الى حل لها هبط الأرض ثانية ونظر فى هذا العالم نظرة فيلسوف فقال ، وكأنى أسمع منه صوت أبى العلاء :

عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائنه كائناته الجدد
تلتقى نقائضه غاية وتتحد

لاريب أن التناقض الذى يبدو فى جميع مظاهر الحياة دقيقها وجليلها مما يسترعى الذهن

ومن مليح التصوير قول شوقى فى هذا المقام :

الفناء فيه يد للبقاء أو عضد

ومن دقيق التصوير :

الحياة حنظلة فى حروفها شهد

وقد انتهى بشاعرنا المطاف الى صورة من صور التناقض تعرض لنا كل يوم فى هذه الحياة الدنيا ويراها الشاعر فى "هيكل الشقاء" :

هيكل الشقاء له من مدامع عمد
قامت النعوش على جانبيه والوسد
عرسه ومأتمه غايتاهما نفد

بهذه الصورة الملموسة الرائعة التى خلعت الحقيقة عليها جمالها ختم شوقى قصيدته وقد نزلت الحكمة من أبياتها منازل الأقمار فكانت عزاء ورحمة للثاكلين .

السياسة فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥

٣
نقــد الأمير شكيب

نشرت "كوكب الشرق" الغرّاء المقال الآتى بتاريخ ٢٧ يناير سنة١٩٣٦ لأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ننشرها اتماما للفائدة :



لا يقـال فى شعر شوقى "هذا أحسن من هذا" فكله نسج واحد وكله نسيج وحده، وما أحراه بهذا الأثر الشريف — ولله المثل الأعلى — وهو أنه كالغيث لا يدرى أوّله خير أم آخره؟ أو هو كماء المزن لا يقال فيه هذا أصفى من ذاك .

وانما تلهج الألسن بجديد شوقى أكثر من قديمه، لما فى الجديد من الطلاوة لا غير، فلهـذا ملهج الألسـنة اليوم قصيدة شـوقى فى توت عنخ آمون التى وان كانت مما لا يخلق جدّته الملوان، تبقى حديث الأندية وموضوع المسامرات ولا يزال انشادها فاكـهة مجالس الأنس، ونقلها نقــل الندامى اذا دارت الكأس، الى أن يأتى شوقى بجديد غيرها، ولا يجىء إلا ببدع ولا يظهر إلا بفذ .

وكذلك تعزيته لحسين بك هيكل فى وحيده كانت وحيـدة فى بابها ، وقد رأيت لها وصفا شائقا فى "السياسـة" تحت إمضاء

"محمد صبرى" ، وفاها فيه حقها من التنبيه الى الرقائق ، والتنويه بالجلائل من الدقائق ، بحيث لا احتاج أن أضيف الى ذلك شيئا ، وانما لا يمكننى إلا أن أردّد إعجابى بما فيها من الفلسفة العليا لا سيما عنـــد قوله :

عالم مـــدبره بالبقـــاء منفرد
من بلى كوائنـــه كائناته الجـــدد

ما رأيت من يجمع التوحيد الى الفلسفة فى شعره مثل شوقى ؟ ولو كان أبو العتاهية حيا لبكى وناح ، أكثر ممـــا له عادة أن ينوح ويبكى ، على كون شوقى جاء بمثل قوله :

الذين ميـــل بهـــم فى سفارهم بعـــدوا
ما علمتا أشـــقوا بالرحيل أم سعدوا
ان منزلا نزلوا لا يرد من يرد

المرحوم أبو العتاهيـــة مع نبوغه فى الوعظ وعبقريته فى ذكر ما وراء الحياة والبعث ، لم يأت بأحسن من هذا فى زهدياته مع أنه كان لا يجيد هذه الاجادة المستولية على الأمد إلا فى هذا الباب وحده ، وشوقى يجيد فى كل باب

وأنّى لأبى العتاهية أن يقول عن الأولاد :

فتنـــة اذا صـــلحوا محنـــة اذا فســـدوا

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا
جرحهم اذا انتزعوا لا تلمه الضمد
العزاء ليس له آسيا ولا الجلد

فان فيه فصاحة لغة أبي العتاهية ودرره في العربية ، ويزيد عليه في المنزع العصرى والشعر العملى عند قوله :

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا

لم أعب من هذا البيت إلا ضعف لفظتى "شاغل" و"فاجع" وأنهما صارتا مبتذلتين من كثرة الاستعمال ، ولو أنه قال :

شاده اذا مرضوا محرق اذا فقدوا

أو شيء آخر أقوى من شاغل وفاجع اللذين فلّهما طول الضراب لكان أحجى .

وان كل وصف ليقصر دون بلاغة قوله " اذا انتزعوا " كأن فقدهم أشبه بالاقتطاع ، لا تأخذه المنية من أكباد الآباء إلا بالكلاليب أو المناقيش . وما ألطف قوله بعد ذلك " لا تلمه الضمد " ان هذا هو القول الذى تنقطع دونه الأعناق كما قيل ، ومثل هذه البلاغة الشافية لما فى كل نفس قوله فى القدر :

يعثر الأنام به ان سعوا وان قعدوا
ينزل الأنام على حكمه وان جحدوا

والله ان هذا لهو الحق ، كما رأينا ممن يكابر فى القضاء والقدر ، ويزعم أن ليس ثمة إلا خطأ وصواب ، أو نقص وكمال ، وتأتى عليه أحداث لا يقدر أن يعللها إلا بقوة غير منظورة أو غير منتظرة ، فيخر أمامها و يعنو صاغرا ، وتضيق عليـــه وجوه التعليلات الأخرى ، ولو نشر المتنبي لتمنى هذين البيتين لنفسه وكان بهما فخورا .

وأما الآية الكبرى التى جمعت فأوعت فهى قوله :

القضـــاء معضلة لم يحلهـــا أحد
كلمـــا نقضت لها عقدة بدت عقد
أتعبت معالجهـــا واســـتراح معتقد

وهل حل مسألة القضـــاء أحد ؟ أفليس كلما أتى فريق من المتكلمين بوجه رأيت عليـــه اعتراضا لا تقـــدر أن تحتقره؟ أفليس الاعتقاد هو الراحة لمن آمن إيمان العجائز ؟

ولكن شـــوقى عوذ محاسن هذه القصيدة التى لا تجارى بهفوة فقـــال :

هيكل الشـــقاء له من مدامع عمد
قامت النعوش على جانبيـــه والوســـد
عرســـة ومأتمـــه غايتاهمـــا نفـــد

وقد أطنب صبرى فى استلطاف هـذه الأبيات التى ختم بها شوقى قصيدته ولكن فات شوقى وصبرى أن جملة "هيكل الشقاء" غير مناسـبة هنا نظرا الى أن القصـيدة موجهـة الى رجل اسمه "هيكل" وهو من الأدباء الألباء، ومن الأخلاء لشوقى الأحباء .

وما عدا ذلك فالقصيدة درة فى تاج الشعر والادب .

برلين فى ١١ يناير شكيب أرسلان

المصرى غريب فى بلاده

كلما أجلنا النظر فى هذا السواد الأعظم اسودّ الظنّ وتسرب الشك الى اليقين ورأينا شعبا يعامل معاملة الغـريب ، يطالب بحقوقه فلا تردّ اليه ولكن تمنح له ، وتمنح بقدر ، ويحسب حساب لمصالح الغير قبـل مصالحه كأن الدار ليست دار أبيـه وجدّه فهو غريب الديار .

ومما يزيد هذا الشعور وحشة عند المصرى أنه بينما يجد شعوب الأرض جمعاء بينها وبين بعضها والبعض الآخر صـلة مصلحة أو جوار أو رحم أو حِلف أو دين أو عصبية أو عطف نرى شعب مصر بين الشعوب غريبا اذا نهض تألبوا عليه وأوقعوا من يده لواء النهضة فى المشرق .

وأخلق بهذا الشعور أن يشدّ من عزائمنا ويخلق لنا من الاعتماد على النفس قوّة ، ويطهر نفوسـنا من كل درن ، ولكن البلية أن المصرى غريب فى بلاده ، لا لأن الأجنبى فيها الآمر النـاهى ، ولكن لأن المصرى فيها غريب عن المصرى .

وانك لترى بين المصرى والمصرى هوّة تنكشف عنها أخلاقنا رغما مما بيننا من أواصر الذكريات والدين واللغة والجنسية .

وانك لتجد المصرى غريبا حتى عن نفسه كأنما صور من "طينات" مختلفة، غريب الأطوار، متباين الطباع : وقد تعاشر الفرنسى أو الانجليزى فتفهم أخلاق الفرنسيين أو الانجليز، وتصل الى أغوار نفسيتهم ، ولكنك تعاشر المصريين فيستعصى عليك أن تدرك كنه مصرى واحد .

واذا كان لك صديق عاشرته زمانا ، وظننت أنك استبطنت أمره، وعرفت دخيلته، وامتزجت نفسا كما امتزاج الماء بالماء انقلب عليك وقد أمنته، ووثقت به ، وعشت من أخلاقه فى ظل ظليل .

ذلك أن المصرى كتلة أضداد تجمع بين الوفاء والغدر، والشجاعة والجبن، والحرص والكرم، وحب الماديات والتعلق بالخيالات ، سريع التنقل من النكتة اللطيفة التى تفرج عن النفس الى التهكم المرّ الذى ينضح بالحقد ، ميال الى المصافاة ولوع بالنزاع والتقاضى ، غريب فى أطواره يأتى بالخسيس وقد يأتى بالمعجز كالبحر ينطوى على الدرّ وتعلو فيه جيفة .

واذا كان المصرى غريبـا عن نفسه وفى نفسيته فهو غريب فى أسرته ، لأن الأسرة مفككة يقيم الجهل بين أفرادها حجابا كثيفا فترى الهوّة بين الرجل وزوجه ، والأب وبنيه ، لا تربطهم إلا صلة واحدة ، صلة الرحم .

وبينما نجد الرجل فى الغرب يلوذ ببيته من المجتمع فيجد فيـه راحة وسـلوى ، وعزاء من هموم الحياة ومتاعبها ، يجـد المصرى مشاكل الأسرة فى بيته تحوّل ظله لفحات ، وتنغص عليه عيشته ، فتراه يبسم عن باطن متجهم ، ويتنقل بين المجتمع والبيت كمن يتنقل بين الرمضاء والنار .

والمصرى غريب فى بيئته اذا سار نظروا اليـه نظر العدو الى العدو وسلطوا عليه الألسنة ، واذا جلس يتحدّث الى قوم كالوا له الثناء بالمكيال ، فاذا فارقهم ذمّوه بالحق وبالباطل .

ولا نكاد نجد هيئة فى مصر إلا وبين كل فرد وآخر هوّة ، وترى الهوّة بين الهيئات المختلفة ، وتراها بين الجيـل القديم والجيل الجديد ، وبين المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، وبين المتعلمين بعضهم وبعض .

ولله ما أشقى المتعلم فى مصر ، وما أشقى الحر ! يرى المتعلم بعينيه

تعلى الأسافل وارتفاع "السطحيين" الى مراتب الكتّاب والعلماء والمؤرّخين والفلاسفة والوطنيين والأساتذة وهم يغمرون الحقيقة بشهرة كالطبل الأجوف .

ويرى الحرّ بعينيه كيف يعلو الملق والرياء والتلوّن أحيانا بأصحابه على كل عامل نزيه يؤدّى واجبه فى صمت واحتشام وكيف تفسد المبادئ وتتستر فيها الأغراض .

وقل أن تجد ادارة مصرية أو معهدا مصريا إلا وقد اتسعت مسافة الخلف بين رؤسائه على حساب المصلحة العامة ، هذا يدس لذاك ويؤلب عليه حزبا معينا ، أوطائفة معينة ، أونفرا من مرءوسيه ، واننا لنجد معظم الموظفين ، الذين صارت مرتباتهم ثقلا على خزانة الدولة ، يقضون معظم أوقاتهم فى الدس أو القضاء على الدسائس المحيطة بهم ، بدلا من التفرّغ للصلحة العامة والتفكير فيها .

وقل أن تجد مصريا يثق بمصرى ويعتقد فى كفايته ونبوغه فاذا أتى ببحث طريف أو فكرة جديدة اتهم فى أدبه ، ولكننا نحنى إجلالا أمام "القبعات" ولو كانت الرؤوس التى تحملها خاوية .

ثم تريدون بعد ذلك أن يحترم الأجنبى قوما متخاذلين ، غرباء عنه وعن أنفسهم ! ثم تريدون أن نحتفظ بشخصيتنا وكياننا !

لقد حقت كلمة الأفغانى "اتفق المصريون على أن لا يتفقوا" ولكننا رغما من ذلك لا نريد أن نستسلم لليأس فان مصر اليوم فى طور من أدق أطوار الانتقال ، وللانتقال فى كل أمّة عيوب ومساوئ لا بدّ من تحملها .

إن الانقلاب الحديث تناول جميع مظاهر حياتنا الاجتماعية ، واذا كنا الآن نعانى منه ما نعانى فلا بد من وقت يصفو فيه الخلق المصرى الذى يستند الى أعلى ذكاء ، ولا بدّ من وقت تأخذ الكفايات المصرية المنزوية الآن فى كرامتها ، وما أكثرها ، مكانها فى الصف ، وتهبط الى الدرك القوى الصاخبة التى لا وزن لها

ولكن يجب علينا عاجلا أن ننظر الى موقفنا الدقيق نظرة تحيط بالحقائق ، وأن نفتش عن عيوبنا وأمراضنا الاجتماعية فنعمل على مداواتها .

فقد آن أن ننهض من غفلتنا حتى لا يأكلنا آكل ، وأن نقصر مسافة الخلف بيننا ما استطعنا فنحن أمة ، ولا حياة لأمة اذا لم يقم بنيانها على أساس من الخلق المتين .

الأهرام فى ١٢ نوفبر سنة ١٩٢٦

وفاة كازانوفا

انتزع الموت من الجامعة المصرية علما من أعلامها فثكلت في شبابها، وهي أحوج ما تكون الى النصر والتأييد .

وقد رأيته أمس وهو جثة هامدة يعلوها الاصفرار كأنه ورقة من ورق الخريف المتساقط ، ورأيت الموت ماثلا يرفرف حوله بجناحيه فعراني الذهول كأن الموت لم يمل قبله بحي فنام، وكأن هذا الرجل لم يكن أول أمس، وقد كان نور الحقيقة يتلألأ في عينيه وفي ثغره فيضيء هذا الشحوب البادي و يملؤه نضرة ونعيما .

كان كازانوفا على خلق عظيم يعرفه كل من عاشره وخبر طويته، وكان صريحا في الحق لا يحب فيه مواربة ولا لينا، وكان يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا مفعما بالحب والاخلاص، ولكن الأسى ضرب على أوتاره حين أحس دنو الأجل، فكان ذلك القلب دليلا صادقا في ساعة الموت على إصابة المقدار رغما من تأكيد الطبيب أن حياته بأمن .

وان مصر ليعز عليها أن يحتجب في سمائها ذلك الكوكب اللامع ، وأن تخمد حياة هذا الذي جاء ينفخ فيها الحياة ، وأن تجمد

هذه النسمة من نسمات الغرب ، وأن يطوى الموت ناشر الحقيقة فى أرجائها .

ولكننا بنينا على الصبر ، وامتحننا الزمان باحداثه فامتلأت نفوسنا يقينا ، واذا كانت الأيام لا تهادننا صروفها ونوائبها فاننا لا نهادنها عزما وإقداما ، ولا نيأس .

الاهرام فى ٢٤ مارس سنة ١٩٢٦

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٤٧٥/٢٠٠٠)